دكتور
محمود سعيد عمران
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية
عميد كلية الآداب - جامعة بيروت العربية سابقاً

معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - الأزاريطة - ت ٤٨٣٠١٦٣
٣٨٧ ش قنال السويس - الشاطبي - ت ٥٩٧٣١٤٦

معالم
تاريخ أوروبا في العصور الوسطى

دكتور
محمود سعيد عمران

أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة الإسكندرية
وعميد كلية الآداب بجامعة بيروت العربية

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - الأزاريطة ت ٤٨٣٠١٦٣
٣٨٧ ش قنال السويس - الشاطبي ت ٥٩٧٣١٤٦

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى أمي التي علمتني العطاء

وإلى روح أبي الذي علمني الصبر

أهدي هذا الكتاب

محمود سعيد عمران

تقديم

يشتمل الكتاب الذي بين أيدينا على معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، وهو تاريخ امتد على أرض القارة الأوروبية أكثر من ألف عام ابتداء من القرن الرابع حتى الخامس عشر الميلادي. وقد شهدت هذه الحقبة من الزمن تطورات عديدة في كافة المجالات نقلتنا عبر الزمن من التاريخ القديم إلى التاريخ الحديث. وخلال هذه الفترة الطويلة تحركت قبائل من أقصى الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب، وقامت دول وسقطت وقامت أخرى وبقيت، وكان لكل دولة منها سياستها وحضارتها.

ومن الصعب الارتباط جغرافياً للتاريخ لدول أوروبا في العصور الوسطى، بمعنى تناول منطقة جغرافية معينة مثل إيطاليا أو غيرها للتاريخ لها منذ بداية العصور الوسطى حتى نهايتها لعدة أسباب؛ منها افتقار هذه المناطق الجغرافية إلى الوحدة السياسية وتحرك العناصر التي عاشت في أوروبا من منطقة إلى أخرى. لذلك كان المدخل الطبيعي للكتابة هو الارتباط بالعناصر التي أقامت الدول وتتبعها من بدايتها حتى نهايتها. ويستمر الكتاب على هذا النسق حتى تستقر الأوضاع في أوروبا، ومع هذا الاستقرار يتحول الكتاب من التأريخ للعناصر إلى التاريخ للدول.

ولما كان هذا الكتاب موضوع بصفة عامة للقارىء العربي ولطلاب الجامعات بصفة خاصة، فقد راعيت فيه قواعد خاصة ليكون مقبولاً ومعقولاً

وميسراً في صفحات محدودة وفي فصول متجانسة. كما زودت الكتاب ببعض الخرائط والجداول التي تعين القارىء على فهم بعض جوانبه.

وحاولت في هذا الكتاب أن أبرز أهم معالم التاريخ الأوروبي الوسيط، وهي اعتناق المسيحية بدلاً من الوثنية، ونزوح العناصر البربرية إلى جوف أوروبا، وإقامة ممالك خاصة بها على أنقاض الامبراطورية الرومانية في الغرب، وظهور الاقطاع، والملكية المستبدة، والحروب الصليبية، وأخيراً الصراع بين البابوية والامبراطورية.

وإذا كان البعض يرى أن تاريخ أوروبا في العصور الوسطى هو تاريخ العصور المظلمة إذا ما قورنت بالعصور الإسلامية فإن ذلك صواب. ولكن أوروبا أخذت عن الحضارة اليونانية والرومانية والجرمانية وأخيراً الحضارة الإسلامية. والحقيقة أن المجتمع الأوروبي نجح في الاستفادة من كافة هذه الحضارات خاصة الإسلامية، وصاغها بصورة تتفق مع الظروف التي أحاطت به في كل مرحلة من مراحل التاريخ الوسيط. فعندما كانت الغارات البربرية تجتاح أوروبا كان هناك حضارة خاصة بتلك الفترة، وبعد استقرار الأوضاع نسبياً في نهاية القرن الثامن وأوائل القرن التاسع ظهرت حضارة أخرى متقدمة عن سابقتها. وفي القرن الثاني عشر برزت حضارة ثالثة أكثر تقدماً. وأخيراً جاء عصر النهضة الذي حول العالم إلى التاريخ الحديث.

وبدراستنا لتاريخ أوروبا في العصور الوسطى وحضارتها نجد أن العالم الوسيط كان يسير وفقاً لما تراه الكنيسة وبالقدر الذي تسمح به، ولكننا في الوقت نفسه نرى تقدماً فكرياً رائعاً في نهاية هذه العصور. وعلى سبيل المثال عندما نادى البعض في القرن الثالث عشر خاصة رجال القانون في فرنسا الذين حلوا محل رجال الدين في إدارة الدولة بإقامة محكمة دولية للنظر في الخلافات التي تقع بين الدول وبعضها، كما نادوا أيضاً بإعطاء المرأة الحقوق السياسية. وفي هذه المرحلة أيضاً نادى بعض الملوك بأن من يمس الناس جميعاً يجب أن يوافق عليه الناس جميعاً. ومن هنا كانت

نشأة البرلمانات التي وصلت إلى نموذج يحتذى، ومن هنا أيضاً يكمن سر دراسة التاريخ، ففي الماضي عظات وعبر.

والله أسأل السداد والتوفيق في الفكر والقول والعمل، إنه نعم الموفق والنصير.

بيروت في كانون ثاني (يناير) ١٩٨٦ — محمود سعيد عمران

الفصل الأول

تمهيد

مجتمعات العصور الوسطى
بداية العصور الوسطى
نهاية العصور الوسطى
المراحل الرئيسية وخصائص كل منها

إن الدارس للتاريخ يلاحظ أن عالم العصور الوسطى قد اشتمل على ثلاثة مجتمعات كبيرة هي ـ حسب ظهورها التاريخي ـ المجتمع البيزنطي الذي ورث الجانب الشرقي من أملاك الامبراطورية الرومانية والمجتمع الأوروبي الذي عاش على أراضي الجانب الغربي للامبراطورية الرومانية، والمجتمع الإسلامي الذي بدأ من شبه جزيرة العرب ثم ما لبث أن احتوى أملاك الدولة الفارسية وجانباً كبيراً من أملاك الامبراطورية الرومانية هو الشام وآسيا الصغرى والشمال الإفريقي من مصر حتى المحيط الأطلسي وأسبانيا وغير ذلك في آسيا وإفريقيا.

والمجتمع الأول وهو البيزنطي قد اتخذ من الديانة المسيحية ديناً له شأنه في ذلك شأن المجتمع الأوروبي، ولكنه اختلف عن المجتمع الأوروبي في اتخاذ المذهب الارثوذكسي مذهباً مسيحياً رسمياً لدولته. وقد اتخذ هذا المجتمع من مدينة القسطنطينية عاصمة له ليحكم الأراضي التابعة له التي تضمنت شعوباً مختلفة، منها ما هو آسيوي أو إغريقي أو سلافي وغير ذلك من الشعوب التي كانت تتحرك في شمال أوروبا وغربي آسيا. والملاحظ هنا أن أملاك الامبراطورية البيزنطية قد تقلصت مع الزمان ولكن عاصمتها وهي القسطنطينية ظلت باقية طالما بقيت الامبراطورية البيزنطية.

أما المجتمع الثاني وهو المجتمع الأوروبي فقد اشتمل على العناصر

الرومانية بعد انهيار الامبراطورية الرومانية، هذا بالإضافة إلى العناصر التي وفدت إليه على شكل هجرات أو غزوات وهو ما يعرف في التاريخ باسم الغزوات الجرمانية. وقد حملت هذه العناصر معها حضارتها التي اختلطت بالحضارة الرومانية وظهر مجتمع جديد كان في بداية الأمر يعتنق غالبيته الديانة المسيحية على المذهب الاريوسي، ثم ما لبث أن تخلص من الأريوسية واتخذ المذهب الكاثوليكي. وإذا كانت مدينة روما ظلت مركزاً لهذا المجتمع في مطلع العصور الوسطى من الناحية السياسية والروحية فإن هذا المركز قد تلاشى في مراحل لاحقة واقتصر على السيادة الروحية فقط لتواجد المركز البابوي بها.

وفيما يتعلق بالمجتمع الثالث وهو المجتمع الإسلامي الذي بدأ بظهور الإسلام، فقد أصبح له دولته المتميزة سياسياً وحضارياً لقيامها على مفهوم إسلامي مستمد من شريعتها. وإن كان هذا المجتمع قد بدأ صغيراً مع الدعوة المحمدية فإنه ما لبث أن انتشر سريعاً وساد أقاليم شاسعة لما بعثته الدعوة المحمدية في الشعوب المعاصرة.

وما يعنينا في هذه الدراسة هو المجتمع الأوروبي في غرب أوروبا. وواقع الأمر أن العصور الوسطى ليست عصوراً منفصلة عن العصور القديمة أو العصور الحديثة فهي مرحلة من مراحل التاريخ الطويلة يصعب تحديد بدايتها أو نهايتها بحادثة محددة مثل تولية ملك أو أمبراطور أو معركة عسكرية لها أهميتها. ومن المتفق عليه أن التطور التاريخي يسير في حركة غير ملموسة تكون مدخلاً لعصر آخر له أبعاده السياسية والحضارية التي تميزه عن مرحلة سابقة وأخرى لاحقة.

وإذا كانت العصور الوسطى تتوسط التاريخ القديم والحديث وهي فترة امتدت أكثر من عشر قرون، فليس معنى ذلك أن هذه المرحلة قد سارت على وتيرة واحدة في الجوانب السياسية والحضارية، فقد اختلفت هذه الجوانب من مرحلة إلى مرحلة ومن منطقة إلى أخرى. بمعنى أن ما

ساد العصور الوسطى من نظم قد اختلف عنه في نهايتها، وما ظهر من حضارة في إيطاليا في فترة ما يختلف عما ظهر من حضارة في انجلترا في الفترة ذاتها. وعلى ذلك يتضح أن لكل مرحلة من مراحل العصور الوسطى خصائصها المتميزة عن غيرها مع شيء من التجاوز.

ولما كان لكل مرحلة من مراحل التاريخ الوسيط مايميزها عن غيرها، فمن هنا أطلق بعض المؤرخين عبارة العصور الوسطى المظلمة على المرحلة الأولى من العصور الوسطى لما سادها من حروب وغزوات وهرطقات دينية. ولكن هذا المفهوم قد تغير بعد قيام المؤرخين المحدثين بالبحوث التاريخية عن هذه المرحلة وما تلاها من مراحل، وهي البحوث التي أوضحت الجوانب الإيجابية لفترة العصور الوسطى بأكملها وأظهرت الجوانب الحضارية التي سادت مجتمع أوروبا في العصور الوسطى، وهي الحضارة التي ارتكزت عليها العصور الحديثة في أوروبا وفي العالم أجمع.

وعلى أية حال فالمدخل الطبيعي لدراسة العصور الوسطى هو تحديد بدايتها ونهايتها، وهو أمر صعب دار حوله جدل كثير واجتهد كل باحث في إيضاح وجهة نظره حول بداية ونهاية العصور الوسطى. وما يسطر على الصفحات التالية عرض لأهم الآراء حول بداية ونهاية العصر الوسيط، وقد حاولت إدماجها في وحدات متجانسة أو إلى أسباب متشابهة حتى يتيسر فهمها بسهولة.

أولاً: آراء تدور حول أعمال بعض الأباطرة:

يرى البعض اختيار عصر الامبراطور دقلديانوس Dicoletian (٢٨٤ - ٣٠٥م) ليكون مدخلاً للتاريخ الوسيط. ويرجع ذلك إلى أن الامبراطور دقلديانوس حاول إعادة تنظيم الامبراطورية على أسس إدارية اختلفت كثيراً عن الأنظمة التي سادت الامبراطورية من قبل، كما أنه ترك مدينة روما عاصمة الامبراطورية واستقر في آسيا الصغرى واتخذ من مدينة

نيقوميديا Nicomedia مقراً له. هذا بالإضافة إلى موقفه المعادي للديانة المسيحية وما لاقاه المسيحيون في عصره من اضطهاد حتى عرف عصره بعصر الشهداء وأصبح عام ٢٨٤م وهو العام الذي يبدأ به حكمه بداية للتاريخ القبطي في مصر. ولما كانت المسيحية قد اعترف بها بعد نهاية حكم دقلديانوس بفترة قصيرة، ولما كانت المسيحية أيضاً من معالم العصور الوسطى، فمن هنا كانت وجهة نظر هؤلاء المؤرخين تبدو مقبولة ومعقولة.

ويتخذ البعض عصر الامبراطور قسطنطين الأول Constantine I (٣٠٥ - ٣٣٧م) مدخلاً للعصور الوسطى، لأن قسطنطين تمكن من القضاء على الحرب الأهلية داخل الامبراطورية وأصبح حاكماً لا منافس له، كما صاحب عهده تغييرات جذرية في مجالات متعددة. ومن هذه التغيرات الاعتراف بالديانة المسيحية كدين في الدولة إلى جانب الوثنية عندما صدر مرسوم ميلان Edict of Milan عام ٣١٣م. هذا بالإضافة إلى بناء مدينة القسطنطينية واتخاذها عاصمة للامبراطورية، ثم إصلاحاته المتعددة في الجوانب التشريعية والعسكرية والإدارية.

وتشير مجموعة أخرى من المؤرخين إلى الامبراطور جستنيان Justinian (٥٢٧ - ٥٦٥م)، على اعتبار أن عهده يفصل بين القديم والوسيط. ويعللون وجهة نظرهم بالأعمال الكبيرة التي قام بها هذا الامبراطور في الداخل والخارج، ومن ذلك ما قدمه لنا من تشريعات ظلت باقية لفترة طويلة من الزمن، وما صاحب عصره من حركة معمارية ظل بعضها إلى يومنا هذا، هذا بالإضافة إلى ما قام به من محاولات عسكرية لإعادة أراضي الامبراطورية وبخاصة في استرداد شمال إفريقيا من الوندال وإيطاليا من القوط الشرقيين وجانباً من اسبانيا من يد القوط الغربيين. ولما كانت محاولته هذه تعتبر آخر محاولة قام بها أمبراطور روماني، فإن ما حدث يعتبر نهاية لمجد الامبراطورية الرومانية لأن خلفائه من بعده فشلوا في الحفاظ على هذه الأراضي، وعلى ذلك يعتبر عصره مرحلة جديدة تنقلنا إلى عصر

جديد هو عصر التاريخ الوسيط.

ثانياً: أسباب دينية:

سبق أن أوضحنا أن البعض اختار عصر قسطنطين ليكون مدخلاً للتاريخ الوسيط نظراً لما قام به هذا الامبراطور في مجالات متعددة. ولكن هناك فريق من المؤرخين يرون في عام ٣١٣م بداية للتاريخ الأوروبي الوسيط لصدور مرسوم ميلان في هذا العام نظراً لما أبداه هذا المرسوم من تسامح تجاه المسيحيين وجعل الديانة المسيحية ديانة معلنة بعد ما كانت حركة سرية. ولكن فريق آخر من المؤرخين يرى أن هذا التسامح لم يدم، فقد أصيب بنكسة في عهد الامبراطور جوليان المرتد Julian the Apostate (٣٦١-٣٦٣م) الذي ارتد من المسيحية إلى الوثنية وجعل الأخيرة ديناً رسمياً للدولة. ولكن هذه المحاولة قد فشلت تماماً وانتصرت المسيحية. ومن هنا يعتبر هؤلاء المؤرخون عصر جوليان بداية للعصور الوسطى على اعتبار أن عصره كان آخر عصور الوثنية وأول عصور المسيحية إحدى دعائم العصور الوسطى.

ومن الفريق الذي ينظر إلى الجانب الديني على أنه بداية للعصور الوسطى يتخذ البعض المرحلة التي تحولت فيها بعض العناصر الجرمانية. وهم القوط Goth من الوثنية إلى المسيحية وإن كانت على المذهب الأريوسي، ويضعون عام ٣٧٦م بداية لهذا التحول وهو العام الذي بدأ فيه المبشر أولفيلاس Olfilas (٣١٠-٣٨٣م) التبشير في القوط، وما لبث أن اعتنق هذا المذهب عناصر أخرى تحركت مع القوط لأسباب متعددة ودخلت إلى أراضي الامبراطورية وأقاموا دولاً كانت علامة بارزة في تاريخ أوروبا العصور الوسطى.

وفي ختام تلك النواحي الدينية نقول إن بعض المؤرخين يضعون حكم الامبراطور ثيودوسيوس الأول Theodosius I (٣٧٩-٣٩٥ م) نقطة البداية للتاريخ الوسيط ويحددون سنة ٣٧٩م لتكون نهاية للتاريخ القديم

وبداية الوسيط. ومرجع ذلك أن هذا الامبراطور قرر في هذا العام القضاء على العناصر الوثنية وعلى اتباع المذهب الأريوسي. وقد تجلى ذلك في مجمع القسطنطينية عام ٣٨١م الذي أقرّ نهائياً عدم شرعية المذهب الأريوسي وفرض العقوبات على أتباعه. كما وقف في وجه الوثنيين وأقفل مراكز عبادتهم وأصدر التعليمات الكفيلة بعدم مباشرتهم طقوسهم وحرق ما هو مدون من تعاليمهم.

ثالثاً: أسباب عسكرية:

وترى مجموعة من المؤرخين أن معركة أدرنة Adrianpole التي دارت رحاها عام ٣٧٨م تصلح لتكون نهاية للتاريخ القديم وبداية للتاريخ الوسيط. ويعللون وجهة نظرهم بأن القوط الغربيين بعدما عبروا الدانوب استقروا في مواشيا Moesia وتراقيا Thrace، قد ضاقوا بهذه المناطق ودخلوا في صراع مع الامبراطورية وحاربوها وانتصروا عليها في معركة أدرنة وهي المعركة التي قتل فيها الامبراطور فالنز Valens (٣٦٤ - ٣٧٨م) وهزمت جيوش الامبراطورية هزيمة ساحقة. وكان لهذه المعركة والنتائج المترتبة عليها أثراً كبيراً في تاريخ الامبراطورية حتى أن بعض المؤرخين شبهوها بمعركة كاناي Canay التي وقعت في عام ٢١٦م بين الامبراطورية الرومانية وهانيبال وقتل فيها ما يقرب من خمسين ألف وأسر حوالى ثلاثة آلاف من قوات الامبراطورية.

رابعاً: نظم إدارية:

يرى فريق من المؤرخين أن عام ٣٩٥م وهو العام التي توفي فيه الامبراطور ثيودوسيوس نهاية للتاريخ القديم ومطلع للتاريخ الأوروبي الوسيط. وتستند أفكارهم إلى أنه في هذه السنة قسمت الامبراطورية الرومانية إلى قسمين بين أبناء ثيودوسيوس، تولى القسم الشرقي منها ابنه أركاديوس Arcadius (٣٩٥ - ٤٠٧م) وابنه الآخر هونوريوُس Honorius (٣٩٥ - ٤٢٣م) القسم الغربي وعاصمة روما. وبذلك أصبح كل قسم دولة

قائمة بذاتها. وبمعنى آخر أن ذلك كان بداية لدولة في الشرق عرفت باسم الامبراطورية البيزنطية وعاصمتها القسطنطينية استمرت حتى عام ١٤٥٣م، وقيام دولة في الغرب عاصمتها روما لم تلبث أن تعرضت لغزوات العناصر الجرمانية التي أقامت على أرضها دولاً وممالك كانت من معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى.

خامساً: أفكار تتعلق بمدينة روما:

تدور أفكار بعض المؤرخين حول مدينة روما، وما كان لها من عظمة ومجد باعتبارها عاصمة الامبراطورية الرومانية منذ قيامها، هذا بالإضافة إلى كونها مقر الكرسي الرسولي بعد قيام القديس بطرس بتأسيس كنيستها. وإن سقوط هذه المدينة الخالدة في أيدي عناصر غير رومانية كان إيذاناً بنهاية التاريخ القديم وبداية التاريخ الوسيط. ويرى الفريق المؤيد لهذا الرأي في عام ٤١٠م تحديداً لذلك، لأن القوط الغربيين ـ بقيادة الأريك ـ Alaric قد تمكنوا في هذا العام من غزو إيطاليا، والزحف على روما واقتحامها في الوقت الذي لجأ فيه الامبراطور الغربي هونوريوس إلى رافنا Ravenna واتخذ منها عاصمة له بعد روما.

سادساً: آراء تتعلق بمنصب الامبراطور الغربي:

يرى العديد من المؤرخين في عام ٤٧٦م نهاية لتاريخ الامبراطورية الرومانية وبداية تاريخ العصور الوسطى لأنها السنة التي تمكن فيها أودواكر Odoacer زعيم الهرول Herules ـ إحدى العناصر الجرمانية ـ من دخول مدينة رافنا وعزل الامبراطور الغربي رومولس أوغسطولس Romulus Augustulus (٤٧٥ ـ ٤٧٦م) الذي كان في الثانية عشر من عمره، ونفيه إلى جنوب إيطاليا مع تخصيص معاش مناسب له.

وإذا كان البعض يضع عام ٤٧٦م نهاية للتاريخ الروماني وذلك لانتهاء حكم الأباطرة الرومان للقسم الغربي للامبراطورية الرومانية، فإن البعض يضع على المعيار نفسه عام ٨٠٠م بداية لتاريخ الوسيط على

اعتبار أنه في هذا العام توج شارلمان Charlemagne (٧٦٨ ـ ٨١٤ م) أمبراطوراً في الغرب الأوروبي وتم إحياء الامبراطورية تحت اسم الامبراطورية الرومانية المقدسة بعد ما خلا الغرب من شخص يحمل لقب الامبراطور طوال الفترة الممتدة من ٤٧٦ ـ ٨٠٠م.

بعد هذا العرض المحدود لأهم الآراء التي دارت حول سقوط الامبراطورية الرومانية وبداية التاريخ الأوروبي الوسيط ولكل منها ما يؤيدها، يمكن القول أن هناك عوامل متداخلة أثرت بشكل أو بآخر في تحول المجتمع الأوروبي إلى التاريخ الوسيط، وإن هذه العوامل سارت بدرجة غير ملموسة حتى شكلت التاريخ الوسيط. وعلى أية حال فإنه إذا تمعنا في الآراء التي سبق عرضها نجد أن القرن الرابع الميلادي قاسماً مشتركاً في معظم الحالات، وأن هذا القرن قد شهد تطوراً في مجالات سياسية وحضارية كان لها أكبر الأثر في المجتمع الأوروبي ومن ذلك الاعتراف بالديانة المسيحية ديناً في الدولة ثم الاعتراف بها ديناً رسمياً للدولة، وظهور بعض الغزوات الجرمانية التي اجتاحت أوروبا وازدياد حدتها مع زيادة ضعف الامبراطورية، والتقسيم الإداري الذي فصل الجزء الشرقي عن الجزء الغربي من الامبراطورية. وعلى ذلك يمكن القول أن القرن الرابع الميلادي يعتبر مدخلاً لتاريخ أوروبا العصور الوسطى.

نهاية العصور الوسطى:

وكما ظهرت الآراء حول بداية العصور الوسطى فقد تعددت الأفكار حول نهاية العصور الوسطى. وإذا كان ما حدث في القرن الرابع من تغييرات على المجتمع الروماني هو الذي دفعنا إلى تغيير اسم هذا المجتمع إلى مجتمع العصور الوسطى، فإنه لا بد أن تحدث تغييرات في المجتمع الوسيط تجعلنا ننهي بهذه التغيرات المجتمع الوسيط إلى مجتمع آخر وهو ما نطلق عليه مجتمع العصر الحديث. ومع هذه التغيرات ظهرت بعض الآراء لوضع نهاية التاريخ الأوروبي الوسيط. وقد حاولت إدماجها في عناصر متشابهة حتى تصبح واضحة المعالم.

أولاً: آراء تدور حول الجوانب الحربية:

يرى بعض المؤرخين إنهاء العصور الوسطى بعام ١٤٥٣م ويعللون وجهة نظرهم بحادثتين وقعتا في تلك السنة كان لهما أثرهما البالغ الأهمية في الشرق والغرب الأوروبي ففي الشرق سقطت القسطنطينية في أيدي الأتراك العثمانيين بعدما ضيقوا الحصار عليها بعد بناء قلعة أناضولي حصار عام ١٣٩٧م على الشاطىء الآسيوي على مسافة ستة أميال شمالي العاصمة، ثم قلعة روملي حصار لتقابلها على الشاطىء الأوروبي عام ١٤٥٢م. ومع سقوط هذه المدينة يأفل نجم مجتمع الامبراطورية البيزنطية أي نصف مجتمع أوروبا العصور الوسطى وينفذ الأتراك إلى أوروبا حاملين معهم أفكاراً جديدة قضت على أنظمة الامبراطورية البيزنطية ومهدت لقيام أنظمة أخرى ساهمت في قيام العصر الحديث.

أما فيما يتعلق بالأحداث التي وقعت في العام نفسه (١٤٥٣م) في الجانب الغربي من أوروبا، ففي هذا العام تنتهي حرب المائة عام التي دارت رحاها بين انجلترا وفرنسا وانتصار الأخيرة بعد سقوط مدينة بايو Bayonne ومدينة بوردو Bordeaux على التوالي. ولعل اتخاذ بعض المؤرخين لهذه الأحداث علامة على نهاية العصور الوسطى مرجعه إلى ما ترتب عليها من نتائج شملت الجوانب القومية والفكرية والاقتصادية والمعمارية في انجلترا وفرنسا ثم انسحبت على بقية الغرب الأوروبي.

ثانياً: آراء حول عصر النهضة:

يضع بعض المؤرخين عصر النهضة فاصلاً بين التاريخ الوسيط والحديث. ومرجع ذلك إلى أن عصر النهضة اشتمل على تطورات واسعة في كافة المجالات. ففي مجال اللغة كانت اللغة اللاتينية هي لغة الكتابة في أوروبا العصور الوسطى وهذا يعني أن طائفة معينة هي التي كانت تطلع على ما كتب في هذه المرحلة. ولكن تحولاً كبيراً طرأ على هذا الجانب عندما كتب دانتي اليجيري Dante Alighieri (١٢٦٥ - ١٣٢١م) - وهو

الشاعر الفلورنسي الذي اعتبروه كبير شعراء عصره- كتب باللغة الإيطالية بدلاً من اللاتينية ولعل أعظم ما كتبه هو الكوميديا الإلهية Divine Comedy التي صاغها شعراً. وفي هذا المجال تجدر بنا الإشارة إلى الشاعر الفيلسوف أبي العلاء المعري (٩٧٣-١٠٥٧م) صاحب رسالة الغفران ولما لهذه الرسالة من أثر على كتابات دانتي. وإذا كان دانتي قد برز في إيطاليا فإن الشاعر الإنجليزي جوفري تشوسر Geoffrey Chaucer (١٣٤٠-١٤٠٠م) يعتبر أبرز الشعراء الإنجليز قبل وليم شكسبير. وقد قدّم تشوسر لمعاصريه عدة مؤلفات ختمها بكتابه الذي لم يتم وهو قصص كانتربوري The Canterbury Tales. وكان لاستخدام هذا الشاعر اللغة الإنجليزية في الكتابة أثراً كبيراً على معاصريه. وفي فرنسا يبرز لنا الشاعر الفرنسي فرانسوا ليون François Villon (١٤٣١-١٤٩١م) الذي استخدم اللغة الفرنسية في الكتابة بمنهج ساخر. ومما لا شك فيه أن التحول إلى الكتابة باللغة المحلية وهي اللغة التي يستطيع الكثير استخدامها بدلاً من اللاتينية التي احتكر معرفتها القليل كان له أبلغ الأثر وأعطى الفرصة للعديد للاطلاع على آراء المفكرين في هذه المرحلة.

وفيما يتعلق بالفنون نذكر الرسام الإيطالي سيمون مارتيني Simon Martine (١٢٨٤-١٣٤٤م) الذي تميزت أعماله بالرشاقة، ومن بعده رفاييل سانزو Raphael Sanzio (١٤٨٣-١٥٢٠م) الرسام المهندس المعماري الإيطالي الذي اعتبروه أعظم الفنانين العالميين في مختلف العصور، ونكتفي في هذه المرحلة بذكر ثالث وهو مايكل أنجلو Michel Angelo (١٤٧٥-١٥٦٤م) وهو النحات والرسام والمهندس المعماري. وواقع الحال أن هؤلاء الفنانين وغيرهم قد خرجوا على تقاليد العصور الوسطى وخاصة كنيستها، وقدموا أعمالاً فنية في غاية الروعة والجرأة وتركوا لنا فناً مختلفاً تماماً عن فنون العصور الوسطى.

ثالثاً: آراء مرتبطة بالجانب الديني:

لما كانت الكنيسة وما فرضته من تعاليم وسيطرة على أوروبا من أهم

معالم العصور الوسطى، لذلك كان الخروج على الكنيسة وأفكارها التي سادت مجتمع العصور الوسطى يعتبر نقلة من مرحلة إلى مرحلة أخرى. لذلك يرى البعض أن حركة الإصلاح الديني التي بدأت بمهاجمة رجال الدين لبعدهم عن مثل المسيحية وبساطتها نهاية للعصور الوسطى. ومهما كان موقف البابوية من أمثال من نادوا بذلك فما لا شك فيه أن مركز البابوية قد تأثر كثيراً منذ القرن الرابع عشر الميلادي نتيجة الأسر البابوي (١٣٠٥ - ١٣٧٧م) والانشقاق الديني الأكبر (١٣٧٨ - ١٤١٧م). ويجدر بنا الإشارة هنا إلى اثنين من الذين نادوا بالإصلاح الديني في هذه المرحلة هما يوحنا هس John Huss (١٣٧٣ - ١٤١٥م)، المصلح الديني البوهيمي الذي اتهم بالهرطقة وأعدم حرقاً، ويوحنا ويكلف John Wycliffe (١٣٣٠ - ١٣٨٤م) المصلح الديني الإنجليزي الذي أنكر سلطة البابا إذا تعارضت مع تعاليم الكتاب المقدس لذلك اتهم بالهرطقة. ولا شك أن هذين المصلحين قد مهدا لدعوة مارتن لوثير Martin Luther (١٤٨٣ - ١٥٤٦م) الراهب الألماني الذي تزعم حركة الإصلاح البروتستانتي في ألمانيا، ومن بعده هيولاتيمر Hugh Latimer (١٤٨٥ - ١٥٥٥م) المصلح البروتستانتي الإنجليزي الذي حكم عليه بالموت حرقاً بتهمة الهرطقة. ونخلص من ذلك أن حركة الإصلاح الديني امتدت حتى منتصف القرن السادس عشر الميلادي وأن الحكم بالموت حرقاً في هذه المرحلة يشير إلى أن أفكار العصور الوسطى كانت سائدة حتى هذه المرحلة أيضاً.

رابعاً: أفكار تدور مع الكشوف الجغرافية:

مما هو معروف أن الكشوف الجغرافية وما ترتب عليها من نتائج في كافة المجالات كان لها أثرها البالغ عن مجتمعات العصور الوسطى في العالم أجمع. هذه الكشوف الجغرافية التي قام بجانب منها الملاح البرتغالي بارثليميودياز Bartholomeu Diaz (١٤٥٠ - ١٥٠٠م) واكتشف طريق رأس الرجاء الصالح ١٤٨٧م، ومن بعده فاسكو دي جاما

Vasco de Gama (١٤٦٩ - ١٥٢٤م) الذي قام بأول رحلة بحرية إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح (١٤٩٧ - ١٤٩٨م)، وفرديناند ماجلان Ferdinand Magellan (١٤٨٠ - ١٥٢١م). الملاح البرتغالي الذي اعتبروه أول من قام برحلة حول العالم. وفي مجال الكشوف الجغرافية يلمع كريستوفر كولمبوس Christopher Columbus (١٤٥١ - ١٥٠٦م) الذي اكتشف أمريكا الجنوبية دون أن يدري عام ١٤٩٢م. ويتخذ أصحاب هذا الرأي هذا العام منطلقاً لعصر جديد ونهاية للعصور الوسطى لما ترتب على هذه الكشوف من نتائج في المجالات السياسية والاقتصادية بصفة خاصة، وفي المجالات الفكرية بصفة عامة.

وعلى أية حال وبعد هذا العرض المحدود لأهم الآراء التي دارت حول نهاية العصور الوسطى نكرر أن التحول من مرحلة التاريخ الوسيط إلى التاريخ الحديث لم تتم في سنة بذاتها وإنما هي عملية تحول تتم تدريجياً وبطريقة غير ملموسة، وأن كل ما ورد من آراء لها وجاهتها، ولكنه يمكن اتخاذ القرن الخامس نهاية للعصور الوسطى نظراً لما حدث في هذا القرن من تطورات فكرية وسياسية ودينية واقتصادية واجتماعية أدت إلى الانتقال من العصر الوسيط إلى العصر الحديث.

مراحل العصور الوسطى:

يتضح من الصفحات القليلة السابقة أن الفترة التي نسميها بالعصور الوسطى فترة طويلة استمرت حوالى ألف ومائة عام. ومع طول هذه الفترة لا يمكن القول إن الناس الذين عاشوا في هذه المرحلة ساروا على نظام واحد طوال هذه الفترة، فقد كانت الأحوال تتبدل وتتحول وإن كان ذلك بطيء الخطا. ولإيضاح ذلك نقول إن الناس الذين عاشوا أيام جستينيان في القرن السادس الميلادي قد اختلفت حياتهم وأفكارهم عن الذين عاشوا أيام شارلمان في القرن الثامن الميلادي، واختلف الاثنان أيضاً في معيشتهم عن الحياة التي عاشها الفرد أيام الملك الإنجليزي هنري الثالث Henry III (١٢١٦ - ١٢٧٢م). وعلى ذلك يميل بعض المؤرخين

المحدثين إلى تقسيم تاريخ العصور الوسطى إلى مراحل متعددة يمكن وضعها في ثلاث مراحل رئيسية لكل مرحلة منها ما يميزها عن غيرها مع شيء من التجاوز في الزمان والمكان.

المرحلة الأولى:

وهي المرحلة التي تبدأ ببداية العصور الوسطى وهي ما حددناها بالقرن الرابع وتمتد حتى القرن العاشر. وفي هذه المرحلة نلاحظ تزايد اضمحلال الامبراطورية الرومانية وبداية الغزوات الجرمانية، كما بدأت الفتوحات الإسلامية في القرن السابع والثامن حتى وصلت غرباً إلى إسبانيا، كما شاهدت هذه المرحلة تحركات الفايكنج Viking في شبه جزيرة اسكندناوه في القرن التاسع. وبمعنى آخر إن هذه المرحلة شهدت تحركات واسعة النطاق شملت الأراضي الأوروبية. وقد صاحب ذلك انعدام الأمن لعدم قدرة الحكومات على السيطرة على ما تحت أيديها من أراضي. ومع ذلك كله فقد تمت في هذه المرحلة عملية انصهار الحضارة الرومانية مع الحضارة الجديدة التي جاءت بها العناصر الجديدة التي اتخذت من أراضي أوروبا مستقراً لها. كما شهدت هذه المرحلة أيضاً الهرطقات الدينية حتى ساد المذهب الأرثوذكسي في الامبراطورية البيزنطية والمذهب الكاثوليكي في غرب أوروبا.

المرحلة الثانية:

وتلي المرحلة الأولى مرحلة أخرى تبدأ من القرن الحادي عشر وتستمر حتى القرن الثالث عشر. ونلاحظ في هذه المرحلة تمتع الغرب الأوروبي بقدر من الأمن النسبي ووجود النظام الإقطاعي Feudalism وما صاحبه من الفروسية Kinghthood وما احتوته من مُثل عُليا. كما ظهرت الجامعات واهتم البعض بالمعرفة خاصة دراسة الفلسفة اليونانية والقانون الروماني. ونشاهد أيضاً التحول الذي ظهر في الفنون المعمارية، ونمو المدن، وقيام أوروبا تحت زعامتين هما الزعامة الدينية بقيادة البابا والدنيوية بزعامة الامبراطور. ويتضح من هذه المرحلة أن أوروبا قد دخلت مرحلة

التكوين وأن حضارتها في هذه المرحلة بدأت تتخذ شكلاً مميزاً اختلف عن المرحلة السابقة، وظهرت به نهضة لها خصائصها عرفت باسم نهضة القرن الثاني عشر.

المرحلة الثالثة:

وتنحصر هذه المرحلة في القرن الرابع عشر، وفي هذه المرحلة تغيرت أفكار العصور الوسطى بفعل تصادم أفكار المرحلة السابقة مع الأفكار الجديدة التي ظهرت في أوروبا بفعل التطور أو من جراء دخول أفكار جديدة نتيجة الاحتكاك بين الشرق والغرب وخاصة عن طريق الأندلس وصقلية والحروب الصليبية. هذا الاحتكاك الذي أثرى الغرب الأوروبي بالكثير من العلم والمعرفة، وليس لنا في هذا المجال أن نستشهد بأحد بل يكفينا أن نذكر بعض علماء المسلمين في هذه المرحلة. فقد كتب جابر بن حيان (٧٠٢ـ٧٦٥م) عن الطب والكيمياء، ووضع الخوارزمي (٧٨٠ ـ ٨٥٠م) أقدم جداول في حساب المثلثات، وكتب الفرغاني حوالى عام ٨٦٠م كتاباً عن الفلك ظلت تعتمد عليه أوروبا لزمن طويل، كما عمل ثابت بن قرة (٨٢٦ ـ ٩٠١م) بالطب والفلك. كما كان البيروني (٩٧٣ ـ ١٠٤٨م)فيلسوفاً ومؤرخاً وجغرافياً ولغوياً ورياضياً وفلكياً وشاعراً وعالماً في الطبيعة. ونذكر أيضاً الشاعر والطبيب والفيلسوف ابن طفيل (١١٠٧ ـ ١١٨٥م) وابن رشد (١١٢٧ ـ ١١٩٨م) الذي كان أكبر فلاسفة المسلمين تأثراً في العقول،؛ وقد عرف في العصور الوسطى باسم أفروس Averroes، وابن البيطار (ت ١٢٤٨م) عالم النبات صاحب كتابَ الأدوية، وابن النفيس (ت ١٢٨٨م) الطبيب الذي اكتشف الدورة الدموية الصغرى.

ولعل من جراء تأثير هؤلاء العلماء وغيرهم من داخل أوروبا ومن خارجها تغير تفكير الناس في أوروبا في هذه المرحلة في نواحي عديدة، فإذا نظرنا إلى نظام الحكم على سبيل المثال نجد أن نظرة الشعب إلى النظام الملكي قد تغيرت وأصبحت تنظر إليه على أنه رأس الدولة بدلاً من رأس الإقطاع، وأكثر من ذلك أن بعض شعوب أوروبا قد طالبت الملكية

بتحديد سلطاتها وهو ما أدى إلى ظهور البرلمانات. ومع هذا التحول الفكري في نظام الحكم أصبح الناس يهتمون بأمور دولتهم واضمحلت الفكرة التي كانت سائدة بأن أوروبا وحدة واحدة.

وإذا نظرنا إلى الجانب العلمي نلاحظ ظهور اللغات المحلية بدلاً من اللاتينية وهذا يؤكد ما أوردناه من تفكك الوحدة الأوروبية، ويبدو أن هذا التحول قد أثر على التعليم لبعض الوقت حتى أننا نجد أن الحركة العلمية في الجامعات قد أصابها الجمود، ولعل ذلك مرجعه إلى أن هذا التحول يحتاج لبعض الوقت حتى تتفهم الناس الحضارة الوافدة إليها واللغة الجديدة التي ظهرت.

أما ما يتعلق بالجانب الديني فقد تزعزع مركز البابا والكنيسة معاً وهاجمها الناس في مواضع عديدة وهو ما لم يكن مألوفاً في مراحل سابقة. وعلى الجانب الديني نذكر الحروب الصليبية التي ابتعد عنها الناس كثيراً بعد ما ضعف التعصب الديني وبدأ الناس يهتمون بشؤونهم وتنمية مواردهم في بلادهم.

وخلاصة القول إن عالم العصور الوسطى بدأ في القرن الرابع وانتهى في القرن الخامس عشر الميلادي، وأن هذا العصر لم يسر على وتيرة واحدة بل يمكن تقسيمه إلى فترات ثلاث لكل منها ما يميزها. وأن فترة العصور الوسطى أسهمت في التطور الحضاري الذي نقلنا من التاريخ القديم إلى التاريخ الحديث.

الفصل الثانى

نهاية الإمبراطورية الرومانية
وعصور دقلديانوس وقسطنطين وخلفائه

أسباب سقوط الامبراطورية الرومانية

عصر دقلديانوس

عصر قسطنطين

خلفاء قسطنطين

تبين لنا من الصفحات السابقة ان القرن الرابع الميلادي هو القرن الذي يمكن أن يبدأ منه تاريخ العصور الوسطى مع شيء من التجاوز ، واتضح لنا كذلك أن في هذا القرن سارت الحضارة القديمة وهي الحضارة الرومانية في أوروبا جنباً إلى جنب مع ما استجد من المتغيرات التي نقلتنا إلى العصور الوسيطة . وبذلك يكون المدخل الطبيعي لدراسة تاريخ العصور الوسطى هو القرن الرابع حيث نلاحظ انهيار الامبراطورية الرومانية وبداية معالم التاريخ الأوربي الوسيط . ومن ثم فإن القاء الضوء على القرن الرابع وما ساده من انظمة وتغييرات هو الدراسة التمهيدية لهذا الكتاب .

وعلى أية حال فمنذ القرن الثالث الميلادي تعرضت الامبراطورية الرومانية لأزمات عنيفة هددت كيانها وهزت دعائمها ، فانتشر الفساد في جميع أركان الحياة وكثرة الغارات على الحدود خاصة غارات البرابرة على حدود نهر الدانوب ، هذا بالإضافة الى الخطر الفارسي على الحدود الشرقية . وعلى ذلك أصبحت الامبراطورية الرومانية مهددة بالانهيار . ويمكن تقسيم أسباب انهيار الامبراطورية الى أسباب داخلية وأسباب خارجية . وعلى رأس الاسباب الداخلية سوء احوال الجيش والحركات الانفصالية وسوء الأوضاع الاقتصادية .

وفيما يتعلق بأحوال الجيش فيمكن القول أن القوات العسكرية

تحكمت في شؤون الحكم وأخذت تولي وتعزل من شاءت من الأباطرة، وقد أدى هذا كله إلى عدم الاستقرار . وبذلك حاد الجيش عن مهمته الرئيسية وهي الدفاع عن البلاد ، فبدلاً من أن يتولى الامبراطور سلطته بواسطة الجيش اصبح الجيش هو الذي يتولى شؤون الحكم عن طريق الامبراطور الذي يختاره . وقد أدى هذا كله إلى عدم الاستقرار داخل البلاد .

أما الحركات الانفصالية فهي مترتبة على سوء احوال الجيش ، فقد وُجدت جماعات متنافسة على الحكم من العسكريين ادت الى حروب داخلية حتى شملت الامبراطورية وظهرت الحركات الانفصالية التي هددت وحدة الامبراطورية ، وحاول بعض الاباطرة القضاء على هذه الظاهرة بالفصل بين السلطة العسكرية والمدنية لدى حكام الاقاليم وتصغير حجم الوحدات الادارية .

وسوء الأوضاع الاقتصادية مترتب على الحروب الداخلية والحركات الانفصالية. فقد أدى اختلال الأمن إلى سوء الأحوال الاقتصادية، ولكي تعالج الدولة عجزها المالي في ميزانيتها لجأت الى زيادة الضرائب بدرجة لم يتحملها صغار المزارعين فهجروا اراضيهم ، ولم تُجد محاولات الاصلاح المالي فسارت الأمور من سيء إلى أسوأ .

أما أسباب انهيار الامبراطورية الخارجية فيمكن حصرها في الخطر الفارسي الذي تزايد في هذه المرحلة والحق هزائم عديدة بجيوش الامبراطورية على الجبهة الشرقية . ولم تكن الجبهة الغربية بأحسن حال من الحدود الشرقية ، فقد انتشرت قبائل البرابرة وراء نهري الدانوب والراين وتزايدت هجماتها وعجزت الامبراطورية عن وقف هذا التيار وتوفير الأمن لمواطني الحدود .

— دقلديانوس Diocletian ٢٨٤ - ٣٠٥

ولد دقلديانوس بالقرب من مدينة سالونا Salona في إقليم دالماشيا عام ٢٤٥ م ، وقد أطلق إسمه على مدينة صغيرة تقع في هذا الإقليم ،

حيث كان مسقط رأس أمه . وكان والداه عبدان في بيت انولينوس Anulinus أحد أعضاء مجلس السناتو . وعلى ما يبدو أن والده حصل على حرية الأسرة ، وأن دقلديانوس قد حصل على وظيفة كاتب ، وهي من الوظائف التي يمكن أن يشغلها أمثال دقلديانوس . وبفضل جهوده ونبوغه وصل إلى مرتبة القنصل ، ثم تولى وظيفة قائد حرس القصر الإمبراطوري وهيَ من الوظائف الخطيرة ، وتجلت كفاءته العسكرية في حرب فارس . وبعد موت نومريانوس Numerianus (٢٨٣ ـ ٢٨٤ م) اعترف به بأنه أجدر شخص بعرش الامبراطورية .

ويبدو ان أول ما قام به دقلديانوس هي تعيين مكسيميان Maximian زميلاً له في الحكم ، وبذلك حذا حذو ماركوس أوريليوس Marcus Aurelius (١٦١ ـ ١٨٠ م) ومنحه لقب قيصر Caesarفيَ بداية الأمر ، ثم أضفى عليه لقب أوغسطس Augustus فيما بعد ، والواقع أن مكسيميان كان صديقاً لدقلديانوس ورفيقه في السلاح .

قام دقلديانوس ببعض الاصلاحات ليواجه بها الأزمة التي انتابت الامبراطورية ، فأعاد النظر في نظم الامبراطورية والغى ما اعتبره فاسداً وابقى على ما رآه غير ذلك ، واستحدث بعض التنظيمات التي رأى انه يستطيع بها حل مشاكل الامبراطورية .. واستهدفت اصلاحات دقلديانوس تقوية سلطة الامبراطور ، واقامة جهاز اداري دقيق يمكنه من السيطرة على شؤون الامبراطورية ، وفصل بين السلطة العسكرية والمدنية . وقد رأى دقلديانوس أيضاً أن الامبراطورية التي يهاجمها البرابرة من كل جانب تتطلب قوة عسكرية كبيرة في كل موضع من المواضع المعرضة لغاراتهم . لذلك كله قسم دقلديانوس الامبراطورية الى قسمين شرقي وغربي . حكم كل منهما حاكم يحمل لقب اوغسطس ، وتولى دقلديانوس القسم الشرقي بينما تولى مكسيميان القسم الغربي . وتم تقسيم الامبراطورية الى أربعة أقسام ادارية عرفت بإسم Prefecture، الأولى منها هي ايطاليا وعاصمتها ميلان Milan ، والثانية غالة وعاصمتها تريف Triev الواقعة على نهر الراين ، والثالثة

إلليريا Illyricum وعاصمتها سرميوم Sirmium وهي بلغراد الحالية ، أما الرابعة منها هي الجانب الشرقي وعاصمتها نيقوميديا الواقعة على الشاطيء الأسيوي للبسفور . هذا وتولى وظيفة القيصرين جاليروس Galerius الذي تبناه دقلديانوس وقسطنطيوس Constantuus الذي تبناه مكسيميان . وألزما كل من القيصرين بطلاق زوجته والتزوج من ابنة متبنيه ، واقتسم هؤلاء الأربعة الامبراطورية فيما بينهم ، فتولى قسطنطيوس مهمة الدفاع عن غالة واسبانيا وبريطانيا واتخذ من تريف مقراً له ، واعتبرت ايطاليا وشمال افريقيا في نطاق حكم مكسيميان واتخذ من ميلان مركزاً لحكمه ، أما دقلديانوس فاحتفظ بإقليم تراقية Thrace وآسيا الصغرى ومصر ، وحكم جاليروس إلليريا وأقام في سرميوم الواقعة على نهر الدانوب . وكان كل من الحكام الأربعة سيداً في نطاق اقليمه ، ولكن سلطتهم المتحدة امتدت على الإمبراطورية بأكملها ، وكانت القرارات والأوامر تصدر باسمهم جميعاً . ويلاحظ أن هذا التقسيم لم يتم إلا بعد إشتراك مكسيميان في الحكم لست سنوات .

وكان النظام الرباعي يقضي بأنه عندما يعتزل الاوغسطس الحكم يخلفه القيصر الذي يرقى إلى أوغسطس ويعين لمساعدته قيصرا جديدا وهكذا تباعا . أما الجيش فكانت قواه موزعة بين شركاء الامبراطورية الأربعة . ورغم كل هذه الاحتياطات ذابت الوحدة السياسية في العالم الروماني شيئاً فشيئاً وساد مبدأ التقسيم الذي كان سببا في الفصل الدائم بين اجزاء الامبراطورية في بضع سنين قليلة . وثمة عيب آخر إلى جانب نزعة التقسيم وهو فداحة تكاليف الادارة الحكومية الجديدة مما أدى إلى زيادة الضرائب .

وعلى أية حال فإن تجربة دقلديانوس لم تلق النجاح المرجو رغم فكرتها الرائعة ، فإلى جانب المشاكل المتأصلة ابتليت الامبراطورية بعدة نكبات ، منها هجمات البرابرة المستمرة على الحدود ، وقيام الحرب الأهلية . وهذا بدوره أدى إلى تفشي الطاعون ونقص عدد السكان وضعف التجارة والصناعة . وترتب على ذلك أيضاً زيادة الأسعار بدرجة كبيرة أدت إلى نقص

قيمة العملة مما دفع دقلديانوس إلى إصدار القرارات الخاصة بتحديد أسعار السلع والمواد الغذائية ، ووضع العقوبات لكل من يخالف ذلك ولكن دون جدوى . وكان من أكبر المشاكل التي سادت عهد دقلديانوس مشكلة المسيحية التي عارضها الامبراطور بعنف حتى أنه صادر أملاك الكنائس ومنع المسيحيين من إقامة شعائرهم والزمهم بعبادة الأوثان . وكان لتعسف دقلديانوس مع المسيحيين أن اطلق على عصره عصر الشهداء .

وفي عام ٣٠٥ م اعتزل دقلديانوس الحكم وعمره تسعة وخمسين عاما بعد أن اصيب بعلل الشيخوخة المبكرة ، وقضى دقلديانوس اعوامه التسعة الاخيرة من عمره معتكفا عن الحياة العامة . وفي الوقت نفسه اعتزل مكسيميان الحكم في ميلان وفقا لاتفاق سابق مع دقلديانوس .

قسطنطين الكبير Constantin the Great (٣٠٦ - ٣٣٧ م)

تمثل العيب الأساسي في نظام الحكم الرباعي في أنه كان لمكسيميان ابناً هو مكستيوس Maxentius ، وكان لقسطنطينوس ابناً هو قسطنطين ، وتحكم في كلاهما العطف الأبوي على نظام الانتخاب ، وحاول جاليروس أن يفرق بين قسطنطينوس وابنه ، ولكن هذه المحاولات لم تفلح ولحق قسطنطين بأبيه في الجزر البريطانية . وعندما مات الوالد في مدينة يورك York نادت الحامية الرومانية بقسطنطين أوغسطا .

وفي الوقت عينه أقام مكستيوس نفسه حاكماً على ايطاليا وافريقيا واتسم حكمه بالطغيان فنفرت منه الرعية ، وكان في ذلك فرصة طيبة لقسطنطين الذي زحف بجيشه وتولى إدارة غاله ، ثم ما لبث أن غزا ايطاليا وهزم مكستيوس وقتله عند جسر ميلفيان Milvian عام ٣١٢ م خارج مدينة روما ، واعدم أبناءه ونكل بكل من ينتمي إليه ، وتوقع أعوانه أنهم ملاقون نفس المصير . ولكن قسطنطين الذي امتاز بخططه الدفاعية البارعة في الحرب امتاز أيضاً بالمناورات السياسية في السلم فأصدر عفواً عاماً هدأت

به الخواطر . وعندما زار مجلس السناتر أكد احترامه لهذا المجلس ووعد بتدعيم مكانته وامتيازاته القديمة ، ورد المجلس على هذا بإصدار مرسوماً يقضي بتعيين قسطنطين في المكان الأول بين الأباطرة الذين يحملون لقب اوغسطس . وواقع الأمر لم يكن قسطنطين في حاجة إلى مثل هذا المرسوم لأن المجلس لم تعد له سلطة فعالة بل كانت السلطة الحقيقية في يد قسطنطين معتمداً على رجال الجيش وعلى النصر الذي احرزه على منافسيه .

ويلاحظ انه في الفترة الممتدة من ٣٠٥- ٣١١ م وهي الفترة المضطربة التي تلت اعتزال دقلديانوس ومكسيميان ، كان يحكم الامبراطورية جاليروس بالاشتراك مع قسطنطيوس الأول وسيفريوس الثاني Severus II وليسينوس Licinius وقسطنطين الأول ومكسيميان في فترات مختلفة . ومنذ عام ٣٠٩ م كان هناك ستة حكام يحملون لقب اوغسطس ، ثم انفرد قسطنطين الأول وليسنيوس بالحكم من ٣١٢ - ٣٢٤ م ، وساد هذه الفترة ايضاً الفوضى والاضطراب والحرب الأهلية نتيجة لمطامع كل منهما ، ونشبت الحرب الأهلية من جديد وانتصر قسطنطين على منافسه عام ٣٢٤ م وانفرد بالسيادة على الامبراطورية بعد معركتي ادرنة Adrianoph وكريسبوليس Chrysopolis ، وانتهى الأمر بموت ليسينوس . وألغى قسطنطين النظام الرباعي وعين حكاماً يساعدونه في إدارة شؤون الامبراطورية . ويلاحظ انه قبيل وفاة قسطنطين تم اعادة تقسيم الامبراطورية من جديد ، وفي هذه المرة قسمها بين أولاده لكي يجنب البلاد النزاع الدموي ، ولكن الخلافات ما لبثت ان قامت بين أولاده ونتج عنها الفوضى والاضطراب ، ورغم هذا فإن مبدأ تقسيم الإمبراطورية إلى اقاليم أصبح المبدأ السائد فيما بعد .

شخصية قسطنطين

اعطت الطبيعة شخص قسطنطين وعقله أثمن ما لديها ، فكان فارع الطول مهيب الطلعة ، محمود السيرة ، واحتفظ منذ طفولته حتى آخر أيام

حياته بقوته وصحته بفضل ما التزم به من العفة وضبط النفس ، وكان بشوشاً سمحاً يمزح في تحفظ ، ولم يكن لقلة تعليمه أثر على تقديره للعلم والتعليم ، ولذلك حظت العلوم والفنون في عهده بالتشجيع والرعاية . وكان عندما يعمل فهو يعمل دون كلل أو ملل ، وكانت له عزيمة ماضية ، فكان يقرأ ويكتب ويفكر ويستقبل السفراء وينظر في شكاوى رعاياه . وكان عندما يتبنى مشروعاً فإنه يعمل فيه بكل حواسه ولا يعوقه عنه عائق . وفي ميدان المعركة كان قائداً يقود رجاله في عزم. وكان طموحاً إلى أبعد الحدود وعرف كيف يضع يده على نبض امبراطوريته وهي في محنتها . ويبدو أن ذلك قد ملك حواسه منذ اللحظة التي نادت به الحامية الرومانية في انجلترا اوغسطسا ، لأنه كان مدركاً لم تنطوي عليه نفسه من مواهب وتطلعه الى انه سوف ينجح في حروبه ضد منافسيه لتفهمه لروح شعب الامبراطورية ، التي قارنت بين حكمته وعدالته وبين الرذائل المتأصلة في منافسيه مكسنتيوس وليسينوس. لذلك يمكن القول أن نجاحه ينسب إلى قدراته أكثر مما ينسب الى حظه .

وواقع الأمر أن الحديث عن الأمبراطور قسطنطين وكيفية توليه العرش الامبراطوري وعن شخصيته وعهده تضيق بها هذه الصفحات ، لذلك فإننا نكتفي بإلقاء الضوء على عملين من أهم أعماله ، أولهما : الاعتراف بالديانة المسيحية ، وثانيهما بناء مدينة القسطنطينية لتكون عاصمة جديدة للامبراطورية .

الاعتراف بالديانة المسيحية

المقصود بالاعتراف بالديانة المسيحية هو أن قسطنطين أعلن الاعتراف بالديانة المسيحية كدين داخل الامبراطورية وليس ديناً رسمياً ، والأمر الأخير تم في وقت لاحق لعهد قسطنطين ، أما مسألة اعتناق قسطنطين المسيحية فهو موضوع آخر، وسوف نتناول كُل موضوع منهما على حدة .

١ ـ الاعتراف بالمسيحية ديناً داخل الامبراطورية :

عندما اعتلى قسطنطين العرش البيزنطي كانت الديانة المسيحية قد تغلغلت في كيان الامبراطورية منذ حوالي ثلاثة قرون ، وقد حاول بعض الاباطرة القضاء على هذه الديانة بالعنف والدم مثل دقلديانوس وجالريوس . فقد كان جالريوس رجلاً دموياً شديد البأس على المسيحيين ولم تجد قسوته نفعاً بل انتشرت المسيحية أكثر من ذي قبل . وقد وجد جالريوس نفسه بعد سنوات من الاضطهاد ان سياسة العنف هذه سياسة فاشلة ، واقتنع آخر الأمر بأن العنف والاستبداد لا يقضيان على شعب بأسره وعلى معتقداته الدينية / ولعل ذلك ناتج عن اعتلال ألم بصحته لفترة ليست بقصيرة ، فأصدر عن طيب خاطر ـ لاصلاح ما أفسدته يداه ـ مرسوماً عاماً يحمل اسمه واسم ليسينوس . ومن هذا المرسوم « . . . لقد اتجهت ارادتنا الى بسط مزايا رأفتنا المألوفة على هؤلاء الافراد المسيحيين التعساء ، ولذلك نرخص لهم بإعلان آرائهم الخاصة في حرية تامة ، وفي عقد اجتماعاتهم السرية دون خوف او ازعاج شريطة ان يظهروا دوماً الاحترام اللائق للقوانين والحكومة القائمة ، وإنا لنأمل ان يكون تسامحنا دافعاً الى الصلاة والتضرع الى الإله الذي يعبدوه من أجل سلامتنا ورخائنا وسلامتهم ورخائهم وسلامة الجمهورية ورخائها» .

وعلى ما يبدو أن أعوان جالريوس لم ينشروا هذا المرسوم كما هو ، وإنما نشروا تعليمات الى حكام الولايات تحدثوا فيها عن رفق الأباطرة بالمسيحيين وأشاروا فيه على رجالهم بوقف محاكمة المسيحيين وغض الطرف عن الاجتماعات السرية . واعقب ذلك اطلاق سراح المعتقلين منهم ، ولكن ذلك لم يدم طويلاً بسبب حكم جالريوس القصير ٣٠٥ ـ ٣٠٦ م وما تبع ذلك من اضطرابات داخل الامبراطورية .

مرسوم ميلان ٣١٣ م :

بعد ما انتصر قسطنطين على منافسيه في موقعة ميلفيان عام ٣١٢ م أعلن الامبراطور قسطنطين مرسوم ميلان الشهير الذي أعاد السلام والهدوء

الى الكنيسة المسيحية . وواقع الأمر ان قسطنطين لم يتفرد باصدار هذا المرسوم بل شاركه في مسؤوليته شريكه في الحكم على النظام الدقلديانوسي الاغسطس ليسينوس، وقد استقبل هذا المرسوم على انه قانون أساسي من قوانين العالم الروماني ، ومن هذا المرسوم :

« عندما تقابلنا نحن قسطنطين أوغسطس وليسينوس. أوغسطس في ميلان مكللين بالرعاية والعناية ، أخذنا نبحث في جميع الوسائل الخاصة بالصالح العام لرعايانا . ومن هذه المسائل التي تهم الكثيرين وتعود بالنفع عليهم مسألة حرية العقيدة . لذلك قررنا إصدار مرسوم يضمن للمسيحيين وكافة الطوائف الأخرى حرية اختيار وممارسة العقيدة التي يرتضونها ، وبذلك نضمن رضاء جميع الآلهة والقوى السماوية علينا ، كما نضمن رضاء جميع رعايانا ممن يعيشون في كنف سلطاتنا . وهكذا قررنا عن ثبات وتعقل الا يحرم أي فرد كائناً من كان من اختيار المسيحية ديانة له . ولكل فرد الحرية في اختيار الدين الذي يناسبه . وبذلك نضمن استمرار تأييد الرب لنا بنفس الكرم والقوة اللذين تعودناهما منه . . . وهذا المرسوم الذي صدر من فيض كرمنا يجب ان يذاع على الجميع ويجب أن يحاط به الجميع علماً وينشر في كل مكان حتى لا يفوت أحد الأخذ به .

والنص الخاص بالفقرة الأخيرة كما هو منشور باللغة الانجليزية كالآتي :

So that the form of this ordinance and of our benevolence may come to the attantion of all men. It will be convenient for you to promulgate these letters everywhere and bring them to the Knowledge of all, so that ordinance of our benevolence may not be hidden.

وعلى ذلك فنحن أمام الحقائق التالية :

١ ـ ان المسيحية ظلت حركة سرية منذ بدايتها حتى إعلان مرسوم ميلان عام ٣١٣م.

٢ ـ تناول بعض الأباطرة المسيحيين بالاضطهاد والتعذيب وغالي بعضهم في ذلك .

٣ ـ لم يكن مرسوم ميلان اول مرسوم بالتسامح مع المسيحيين بل سبقه المرسوم الذي حمل إسم جالريوس وليسينوس.

٤ ـ ان مرسوم جالريوس لم يعمل به لقصر مدة حكم الامبراطور .

٥ ـ لعل في العبارة الأخيرة الواردة في مرسوم ميلان ما يؤكد ذلك وان عبارة Not be hidden تشير إلى الخوف من سابقة حدثت تحوم حول ما تنطوي عليه هذه العبارة من معنى ويخشى تكرارها .

٦ ـ إن مرسوم ميلان لم يصدره قسطنطين منفرداً بل صدر منه ومن شريكه في الحكم ليسينوس.

واستكمالاً لمحتوى مرسوم ميلان نقول أن المرسوم قضى برد كل الحقوق الدينية الى المسيحية التي كانوا حرموا منها ظلماً وعدواناً ، ونص على ان تعاد للكنيسة كل أماكن العبادة والأراضي العامة المصادرة دون جدل أو ابطاء أو تكلفة . واقترن هذا الانذار الصارم بوعد كريم يقضي بأن يدفع ـ لمن اشتروا املاك الكنيسة ودفعوا مبالغ كبيرة ـ تعويض من خزانة الامبراطورية .

ومع تتبع قضية الاعتراف بالمسيحية تدخل في قضية أخرى ، وهي متى أصبح قسطنطين مسيحياً ؟ لعل النصوص التي تركها المؤرخون المعاصرون لعصر قسطنطين هي التي اوجدت جدلاً حول هذا الموضوع . فنجد احدهم يسجل ان الامبراطور اعتنق المسيحية منذ اللحظة الأولى من حكمه ، بينما يرى آخر ان ايمان قسطنطين مرجعه الى شارة الصليب التي ظهرت في السماء عام ٣١٣م. وموجز هذه الرواية ان قسطنطين عندما كان يعد العدة للقاء منافسه مكستيوس شهد في السماء راية الصليب وعليها طرة نصها « عز نصره » ، مكتوبة بأحرف من نور ، وان الأمبراطور اتخذ تلك الطرة شعاراً للوائه في حروبه . وهناك رواية ثالثة تختلف عن هذه وتلك ، ورابعة تقول ان قسطنطين لم يُعمد الا على فراش الموت ، وانه تلقى في

النزع الأخير التعاليم المسيحية حيث وضع الاسقف يده على رأسه وأتم اجراء الطقوس الدينية ، ثم ما لبث ان اسلم الامبراطور الروح . ولعل ما دفع المؤرخين الى هذا الخلط وتعدد رواياتهم سلوك قسطنطين نفسه .

والواقع ان هناك تدرج بطيء غير محسوس انتهى بإعلان قسطنطين نفسه حامياً للمسيحية . فلقد كان من الشاق على قسطنطين ان يمحو من ذهنه ما تلقنه من عادات ومعتقدات وثنية ، وأن يؤمن بالديانة المسيحية ويعلن ذلك بين يوم وليلة ، فلقد علمته ايضاً التأملات التي يحتمل انها شغلت ذهنه ان يسير بخطى حذرة في تغيير الديانة الوطنية وهو تغيير له خطره وأهميته . والخلاصة ان تيار المسيحية تدفق طوال سني حياته في حركة هادئة وإن كانت سريعة الخطى . ولكن حذر قسطنطين عوق تارة وانحرف تارة اخرى بالاتجاه العام للمسيحية . فلقد وازن قسطنطين دائماً بين آمال رعاياه وبين مخاوفهم ، ومن ذلك أنه كان يصدر مرسومين في وقت واحد ، الأول ينص على الاهتمام الشديد بيوم الأحد وفي ذلك نصر للمسيحيين ، والثاني يحض على استشارة العرافين وفي ذلك نصر للوثنية . ولا شك ان مثل هذه الأمور جعلت المواطنين من مسيحيين ووثنيين يرقبون سلوك امبراطورهما بنفس القدر من القلق وإن اختلفت مشاعر كل منهما .

واستكمالاً لهذه القضية نضع سؤالاً نقول فيه ، ما هي الدوافع التي دفعت قسطنطين الى الاعتراف بالمسيحية ؟ اختلفت الآراء حول هذه الدوافع ، فالبعض يرى أن قسطنطين اعترف بالديانة المسيحية عن اقتناع وعن ايمان وحجتهم في ذلك منبثقة من خُلق قسطنطين وتصرفاته إزاء المسيحيين . ومن ذلك مثلاً بناء العديد من الكنائس . والرأي المضاد يعتمد على تصرفات قسطنطين تجاه الوثنية التي لا تقل سخاء عن ما قدمه للمسيحيين . ويرى فريق ثالث أن إيمان قسطنطين بالمسيحية مرجعه الدوافع السياسية وعلى رأس هذه المجموعة المؤرخ هنري جريجوار Henry Gregoire ، فيقول هنري في معرض حديثه عن فترة حكم قسطنطين من كان يريد الشرق فعليه أن يكون مسيحياً أو صديقاً

للمسيحيين. ولم يكن قسطنطين يستطع أن يسيطر على الشرق وهو الجزء الغني من الامبراطورية برجاله وموارده إلا بمهادنة المسيحيين ، خاصة في الوقت الذي بدأت فيه العناصر الجرمانية تتحرك صوب غرب الامبراطورية .

وفي نهاية الأمر نستطيع القول ان قسطنطين كان رجلاً على مستوى عال من الذكاء فلم يكن يستطيع أن يعلن أنه مسيحي فيغضب الوثنيين ولم يكن يستطيع ان يعلن انه باق على وثنيته وفي هذه الحالة يتطلب الأمر منه أن يتخذ موقفاً من المسيحيين وهذا ما لم يحدث ، بل انه عايش الاثنين معا وأنه كان يميل إلى المسيحية شيئاً فشيئاً حتى اصبح في آخر الأمر مسيحياً .

٢ ـ بناء القسطنطينية .

دأب قسطنطين وتبعاً لدواعي الحرب والسلم على التحرك في يقظة تامة على حدود مملكته الشاسعة . وكان دوماً على أهبة الاستعداد لملاقاة أي عدو خارجي أو داخلي . وعندما تقدمت به الايام بدأ يتدبر مشروعاً تستقر به قوة العرش الامبراطوري في مكان أشد ثباتاً من روما ، وبدأ يفكر في بناء عاصمة جديدة للامبراطورية. ولم يكن موضع القسطنطينية هو الموضع الأول الذي اختاره قسطنطين في بداية الأمر ، فقد طرأت على ذهنه عدة أماكن لتكون مقر حكمه الجديد ، فنجد انه نظر الى مسقط رأسه مدينة نيش Nish الواقعة على نهر مورافا Moravaشمال شبه جزيرة البلقان ، ومدينة سرديكا Sardica (صوفيا Sofiaالحالية) ومدينة نيقوميديا التي اتخذها دقلديانوس من قبل . ولما كان قسطنطين يفضل منطقة الحدود بين أوروبا وآسيا ليتمكن من ضرب البرابرة الذين كانوا يقطنون الدانوب ، ويراقب بعين ساهرة تحركات الفرس ، فلقد كانت نيقوميديا أنسب المدن لتكون عاصمة الامبراطورية . ولما كان قسطنطين لا يريد ان يربط مدينته الجديدة بذكرى دقلديانوس ، لذلك آثر اختيار موضعاً آخر يرقب منه تحركات الفرس والبرابرة ، وكان هذا الموضع هو قرية بيزنطيوم التي بنى على انقاضها مدينة القسطنطينية .

ومرقع المدينة الجديدة في شكل مثلث على خليج البسفور يلتقي طرفه المنفرج الذي يمتد شرقاً الى شواطىء آسيا بأمواج البسفور ، وتحد الميناء الجزء الشمالي من المدينة ، أما الجنوب فتحفه مياه بحر مرمرة ، ومن ناحية الغرب فتقع قاعدة المثلث التي تواجه قارة أوروبا . واكتسب ميناء القسطنطينية إسم القرن الذهبي لأن الانحناء الذي يرسمه يمكن تشبيهه بقرن الغزال ، ولفظ ذهبي يعبر عن الثروة التي تدفقت على المدينة من أقصى الأرض الى ثغر المدينة الواسع الآمن ، لأن الميناء كان واسعاً ومناسباً جداً لعملية الشحن والتفريغ حيث يندر حدوث المد والجزر . وكان طول لسان البسفور من مصب نهر ليكوس Lycus ـ الذي يمد المدينة بالماء العذب ـ الى الميناء أكثر من سبعة أميال ويبلغ عرض المدخل نحو خمسمائة ياردة ، ويمكن عند الضرورة وضع سلسلة متينة تحمي الثغر والمدينة من هجوم أي اسطول معاد كما كان الحال في مدن العصور الوسطى مثل مدينة دمياط في مصر .

والعاصمة الجديدة تقع على خط عرض ٤٣ وخط طول ٢٩ وتسيطر المدينة على تلالها السبعة وهي تتمتع بمناخ صحي معتدل وتربة خصبة ومدخلها الى القارة الأسيوية قصير المدى ، والدفاع عنه ميسور . كما أن خليجي البسفور والدردنيل يعتبران بوابتين للقسطنطينية ويستطيع من يسيطر عليها أن يغلقهما في وجه أي اسطول معاد ويفتحهما في وجه السفن التجارية ، وما يتبع ذلك من تدفق الثروات الطبيعية والمصنوعات من الشمال والجنوب عبر البحر الأسود والبحر المتوسط .

لعل في كل ما سبق مبرراً كافياً لاختيار قسطنطين لهذا الموقع ، ولكن ثمة مزيج من المعجزة والخرافة كان يعكس في كل عصر قدراً من العظمة على نشأة المدن الكبرى . ولهذا نرى قسطنطين ينسب اختيار هذا المكان الى القوة الإلهية واهتم بأن يسجل في ايجاز بأنه امتثالاً لأوامر الله ، وضع الأساس الخالد لمدينة القسطنطينية ، واستطرد خيال الكتاب اللاحقين لعصره وسجلوا ان شبحاً تراءى ليلاً لقسطنطين وهو نائم في رحاب بيزنطة ،

وقالوا ، ان ربة المدينة وحارستها وهي سيدة عجوز تحولت فجأة الى شابة ظهرت في أزهى زينتها حين البسها الامبراطور بيديه شارات الامبراطورية ، وأفاق قسطنطين من نومه وفسر الفأل السعيد وامتثل لإرادة السماء دون تردد . ووردت أسطورة اخرى تقول ان الأمبراطور سار على قدميه تتبعه حاشيته كلها ، ورسم بحربته الخط الذي يجب بناء التحصينات الجديدة بحذائه ، ولما سار غرباً على ساحل القرن الذهبي وابتعد عنه ميلين قال له رجاله ، لقد تجاوزنا الحدود التي تتطلبها المدينة ولكن قسطنطين أجاب : « سأسير في طريقي حتى يرى الدليل الخفي الذي يسير أمامي انه من المناسب ان اتوقف .

على أية حال أختيرت قرية بيزنطة موقعاً للمدينة الحديثة ، ولما كان أساس الاختيار عسكرياً ، فإنه رغم موقع المدينة الحصين فقد حصنت أيضاً بالأسوار وأنفق قسطنطين على المدينة بسخاء لبناء الأسوار والأروقة وقناطر المياه ، وعمل جمع غفير من العمال والصناع في بنائها الذي استمر من عام ٣٢٤ - ٣٣٠م . ولما حان موعد الاحتفال بذكرى مولد المدينة وهو الحادي عشر من مايو عام ٣٣٠ م وضع على عربة من عربات القصر تمثال قسطنطين الذي صنع بأمر منه من الخشب المموه بالذهب ، وسارت مواكب الحراس حاملة الشموع المضاءة مرتدية أثمن الثياب ، وفي اليوم نفسه نقش على عامود من الرخام مرسوم امبراطوري يخلع اسم « روما الجديدة » على المدينة ولكن إسم القسطنطينية فاق هذه التسمية .

خلفاء قسطنطين ٣٣٧ - ٣٧٨ م

توفي قسطنطين في عام ٣٣٧م بعد أن أمضى سنواته الأخيرة في سلام نسبي هيأ له الفرصة لمواصلة إعادة التنظيم الاداري المدني والعسكري للامبراطورية . وخلفه على العرش أبناؤه الثلاثة مجتمعين وهم قسطنطين وقسطنطيوس وقنستانز Constans، وكان الأخوة الثلاثة ميالين بطبعهم الى الشقاق والخلاف ، ولكن هذا الخلاف ما لبث اذ انتهى

عندما توفي كل من قسطنطين عام ٣٤٠م وقنستانز في عام ٣٥٠م فانفرد قسطنطيوس بالحكم بعد ما هزم منافسه ماجنيتيوس Magnentius في عام ٣٥١م واستمر في الحكم حتى وفاته عام ٣٦١ ، . وفي خلال هذه السنوات عادت الأخطار الخارجية تحدق بالأمبراطورية ، فالخطر الفارسي قائم على حدود الامبراطورية من جهة الشرق ، كما ان خطر القبائل الجرمانية على نهر الدانوب والراين في الغرب أصبح أقوى وأشد . وكان ذلك بسبب ظهور قبائل الهون Huns . هذا الخطر الذي توقف لبعض الوقت عندما قضى القيصر جوليان Julian ابن عم الامبراطور على هذا الغزو . وقد أعلى هذا الانتصار من شأن جوليان فنادى به جنوده امبراطوراً عام ٣٦٠ م ، ولكن قسطنطيوس توفي قبل أن تنشب الثورة في البلاد فخلفه جوليان على العرش دون اراقة دماء .

جوليان Julian ‏٣٦١ـ ٣٦٣ م .

كان الاهتمام بتوفير الأمن والرفاهية للرعية هي شغل جوليان الشاغل ، وكان يخصص اوقات الفراغ الشتوية التي اعتاد قضاءها في باريس في أعمال الإدارة المدنية . ولقد وجد جوليان متعة في شخصية الحاكم والقاضي أكثر من شخصية القائد العسكري . وكان من عادته ايضاً قبل ان يذهب للحرب إحالة معظم القضايا العامة والخاصة إلى حكام الولايات حتى إذا عاد راجع كل اعمالهم . كما أعاد جوليان معظم مدن غاله الى سابق عهدها بعد ان ظلت ردحاً طويلاً من الزمن عرضة للاضطرابات الأهلية وحروب المتبربرين . وانتعشت روح الاقبال على العمل أملا في المتعة والتنعم ، وازدهرت الصناعة والتجارة مرة أخرى تحت حماية القوانين . وزخرت الهيئات المدنية مرة أخرى بالأعضاء النابغين المرموقين ، وتجلى الرخاء الوطني ورغد العيش في كثرة الاتصالات بين الأقاليم وبعضها .

ولم يكن كل هذا سبباً في شهرة جوليان التاريخية ، بل اكتسب شهرته بارتداده الى الوثنية . وقد كان معروفاً بهذه الميول من قبل بسبب

نشأته . وبعد ان اصبح امبراطوراً أعلن عن ذلك صراحة وأصدر مرسوماً يقضي بفتح المعابد الوثنية وتقديم القرابين على المذابح من اجل عبادة الآلهة . ولا شك أن مثل هذا العمل قد انعش آمال الوثنيين بعدما عادت لهم الحقوق الدينية والسياسية . وحتى لا يغضب جوليان رجال الدين المسيحي فإنه دعاهم الى قصره كما دعا رجال الدين الوثنيين وأعلن لهم انه يريد ان تعيش الامبراطورية في تسامح ، ولكل فرد الحرية في اختيار الدين الذي يراه . وبذلك نقول ان جوليان حذا حذو قسطنطين من الجانب المضاد ، فإن كان قسطنطين اعترف بالديانة المسيحية ثم مال اليها في آخر الأمر ، فإنه على العكس نجد جوليان اعاد للوثنية كيانها في أول الأمر ثم عاد اليها بعد ذلك . فقد أبعد جوليان المسيحيين من الوظائف العليا وأحل محلهم الوثنيين ، كما رفع الرموز والصلبان المسيحية من بيارق الجيش واسلحة الجنود ووضع مكانها شارات وثنية ، كما منع تعيين المدرسين المسيحيين في المدارس وجعل هذه الوظائف مقصورة على الوثنيين حتى يشب الجيل الجديد وهو متشرب بالديانة الوثنية . وكان في ذلك ضربة قاصمة للمسيحية لأن بعض المدرسين من المسيحيين تحولوا الى الوثنية حتى يحافظوا على وظائفهم .

جوفيان Jovian ٣٦٣ ـ ٣٦٤ م .

ورغم كل هذا فإن هذه الحركة انتهت بالإخفاق ، فلم يعد العالم متقبلاً للوثنية وكانت المسيحية أنسب له . وأن كان جوليان قد فشل في هذا الجانب فإنه فشل ايضاً في الجانب العسكري ، فلقد حاول غزو فارس وأمعن في تقدمه ولكنه مات أثناء عودته في عام ٣٦٣ م . فانتخب الجيش قائداً مسيحياً يدعى جوفيان الذي وقع معاهدة مهينة تقضي بهدنة لمدة ثلاثين عاماً نظير تنازله عن اربع ولايات ، كما تنازل أيضاً عن سيادة الامبراطورية على دولة أرمينيا ، ولكن هذا الامبراطور الجديد ما لبث أن مات في العام التالي ٣٦٤ م .

فالنز Valens ٣٦٤ - ٣٧٨ م .

نادى الجيش بالقائد فالنتيان امبراطوراً بعد وفاة جوفيان . وقد آثر فالنتيان أن يحكم الامبراطورية من روما ، لذلك ترك أخاه فالنز امبراطوراً شريكاً له في القسطنطينية . وكان فالنز هذا يعتنق المسيحية على المذهب الاريوسي فكرهه الناس واعتبروه مهرطقاً ، ولذلك اتسم حكمه بالفتن المتواصلة . وكانت نهايته عندما دفع الهون بالقوط الغربيين الى حدود الامبراطورية حيث حصلوا على إذن من الامبراطور بعبور نهر الدانوب والاستقرار داخل الامبراطورية ، ويلاحظ ان هذه الحادثة تعتبر بداية استقرار البرابرة داخل حدود الامبراطورية . وعلى اية حال لم يستقر السلام بين الجموع الدخيلة وبين موظفي الامبراطورية ، وعندما شجر النزاع بينهم زحف القوط الى القسطنطينية فخرج فالنز لملاقاتهم على عجل دون ان ينتظر المدد القادم من الغرب فلقى جيشه هزيمة قاسية في معركة أدرنة عام ٣٧٨ م . وقتل فالنز في هذه المعركة وبموته تظهر أسرة جديدة على عرش الامبراطورية وهي أسرة ثيودوسيوس Theodosius .

الفصل الثالث

الإمبراطورية الرومانية والبرابرة
في نهاية القرن الرابع

نظام الحكم

الضرائب

الكنيسة

البرابرة

نجح الامبراطور قسطنطين في الثلث الأول من القرن الرابع أن يهيأ لنفسه مزيداً من السلطة وأن يحقق جانباً طيباً من الامن والاستقرار بعد تغيير طابع الحكومة . فبينما كان مصير الامبراطور يتوقف من قبل على تنافس الفيالق العسكرية أو الحرس الامبراطوري أصبح الامبراطور في هذه المرحلة يحتل مكانة سامية وفخامة لم نعهدها في الأباطرة الأوائل . وان القاء الضوء على أحوال الامبراطورية في نهاية القرن الرابع الميلادي يعطينا صورة واضحة عن طبيعة العصر .

نظام الحكم

وفيما يتعلق بنظام الحكم الذي أصبح على رأسه الامبراطور في عاصمته القسطنطينية نجد حشداً كبيراً من الموظفين المدنيين والعسكريين كما لو كان القصد منهم حجب شخصية الامبراطور عن المواطنيين ، وكانت الصدارة في هذه المرحلة للموظفين المدنيين وليست للعسكريين . وإلى جانب هؤلاء الموظفين كان هناك القناصل وقادة الفيالق ومجلس الشيوخ الذي ظل منّ الجهة الرسمية فقط فقد كان عديم الفاعلية .

وكان على رأس هؤلاء الموظفين ناظر الغرفة المقدسة وهي غرفة

الامبراطور، وكان لهذا الناظر نفوذاً واسعة في أغلب الأوقات لأنه كان يرافق الامبراطور بصفة دائمة .

ويلي هذا الناظر منصب كبير الديوان وكان يتولى أمر شؤون الامبراطورية في جوانب متعددة ، فكان يتولى أمر حوالي عشرة آلاف من ضباط الحرس والشرطة ، هذا بالإضافة إلى الاشراف على الترسانات ومعامل الأسلحة ومخازنها ، وكانت هذه الادارة الضخمة تتألف من أربعة أقسام ، ويساعد كبير الديوان مديرون ومديرون مساعدون بالاضافة إلى حوالي مائة وخمسين كاتباً .

ووجدت أيضاً وظيفة وزير البلاط، وهي نوع من الوزراء يتحدث باسم الامبراطور ويسجل مراسيم الامبراطور وقراراته .

وكان هناك أيضاً وظيفة المشرف على الهبات المقدسة ، ويعتمد عليه مديرو الادارات المالية المحلية وكل الموظفين الماليين بالامبراطورية ، وكان يتولى أيضاً وظيفة القاضي في القضايا المتعلقة بالشؤون المالية .

وإلى جانب هؤلاء كان هناك المشرف على أملاك الامبراطورية الخاصة، وكانت مهمته هي إدارة ضياع الأمبراطور ويعاونه في هذا العمل بعض الوكلاء . هذا بالإضافة إلى قائد سلاح الفرسان الخاص بالامبراطور وقائد سلاح المشاة الخاص أيضاً . وكان هذان القائدان يأتمران على ثلاثة آلاف وخمسمائة من الجنود مقسمين إلى سبعة أقسام . وكان غالبية هؤلاء الجنود من الأرمن وكان منظرهم يدعو للاعجاب وهم يشكلون صفوفا في ساحة القصر . وفوق هذا كله عدد من البوابين والغلمان والجواسيس وخدم من كافة الأنواع .

وإذا تركنا الحكومة المركزية وانتقلنا إلى أقسام الامبراطورية نجد الولاة الأربعة في الشرق والليريا وايطاليا وغالة وهو التقسيم الرباعي الذي أدخله دقلديانوس على نظم الامبراطورية، وقد استمروا دون أن يكون لهم خطراً على وحدة الامبراطورية أو الامبراطور نفسه بعد تجريدهم من

سلطة قيادة الجيوش . وكانت أعمالهم هي طبع أوامر الامبراطور ومراقبة تحصيل الضرائب ، والفصل في الدعاوي الجنائية والمدنية بناء على طلب من رؤساء الاسقفيات والأبرشيات .

وكانت كل ولاية مقسمة إلى أبرشيات يحكمها نواب الوالي وقسمت الامبراطورية إلى ستة عشر أبرشية . منها ست أبرشيات في ولاية الشرق وهي مصر والشام واثنان في آسيا الصغرى وبنطس وتراقيا . كما وجد اثنان في الليريا هما داكيا ومقدونيا وثلاثة في إيطاليا هم ايطاليا والليريا الغربية والساحل الافريقي الشمالي. وكان في غالة ثلاث أبرشيات هم اسبانيا وغالة وبريطانيا. أما روما فكان لها أبرشية قائمة بذاتها مثلها في ذلك مثل القسطنطينية .

كما انقسمت الولايات والابرشيات إلى مائة وعشرين إقليماً أو مقاطعة يحكم كل منها القناصل والرؤساء وقد اختلفت سلطتهم كل حسب درجته .

وإلى جانب هذا الهيكل المدني نجد التسلسل الهرمي العسكري وعلى رأسه قائد الفرسان وقائد المشاة . وقد زاد عدد هذه المناصب بعد انقسام الامبراطورية . وتحت هؤلاء القادة نجد قواد الجيش في الأقاليم وعلى الحدود الذين كانوا ينفردون بالسيطرة على قوات الأقاليم كل في اقليمه .

الضرائب

وواقع الحال لقد كانت النظم الحرة داخل الامبراطورية لا تزال تحيا في الحكومة البلدية ، فلقد كان لكل مدينة داخل الامبراطورية مجلس شيوخها المصغر المؤلف من الملاك الذين بحوزتهم خمسة عشر فداناً على الأقل، وهذا المجلس كان يتولى إدارة شؤون المدينة . وكان بكل مدينة القاضي ومحصل الضرائب وضابط الشرطة وغيرهم . وكان هؤلاء يعملون من أجل رخاء مدينتهم .

ولكن هذا الرخاء أصبح مظهرياً مع مرور الأيام ، لأن الحرية المحلية كانت تنقصها الضمانات غير المتوفرة ، فقد أصبح بوسع الحكومة المركزية أن تستولي على الأراضي وأن تجمع الضرائب بضمان هؤلاء الملاك . وأخذ هذا الالتزام يصبح عبئاً ثقيلاً فتقلص الرخاء وضاق أعضاء المجالس البلدية بهذا النظام .

وكانت هذه الضرائب باهظة فرضتها الحكومة دون النظر إلى سعادة أو تعاسة رعاياها . وأول هذه الضرائب وضعها قسطنطين الأول عام ٣١٢ م ، وتقررت على الأملاك بعد حصرها كل خمسة عشر سنة ، وهي التي تعرف باسم Indiction . وهي ضريبة على الأرض . وهذه الضريبة يحدد مقدارها كل عام طبقاً للاحصاء الذي يتم كل خمسة عشر سنة . وكان الامبراطور يحدد فئاتها بالنسبة لكل أبرشية بموجب مرسوم يوقع عليه بنفسه ، وتعلن قيمة الضريبة في المدن الرئيسية لكل أبرشية في شهر يوليو ، وقد زاد من المشكلة ما كان يضاف إلى هذه الضريبة من ضرائب أخرى .

وكانت هناك جوانب أخرى للايرادات المالية وهي ضريبة الرؤوس وما كان يفرض على الأعمال الصناعية والتجارية وأخيراً الضرائب غير المباشرة ، وهي ضرائب على صادرات وإيرادات الجمارك والمناجم وملاعب السباق والملاحات ومصانع الامبراطورية .

وفوق هذه الضرائب أعطيات الطعام أي واجب استضافة الجنود والموظفين في دوائرهم والمحافظة على الطرق العامة وغير ذلك . وقد أثقلت هذه الأعباء كاهل الفقراء وذوي الدخل المحدود . فانخفض مستوى المعيشة لدرجة كبيرة ، وكان لذلك كله أثره السيء على الحياة الاجتماعية والفكرية .

الكنيسة المسيحية :

مع نهاية القرن الرابع أخذت الديانة الوثنية في الاندثار بعد فشل المحاولة التي قام بها الامبراطور جوليان المرتد ، وبدأت المسيحية تأخذ

وضعها الطبيعي داخل المجتمع . وواقع الأمر أن الدور الذي لعب الامبراطور قسطنطين في مطلع القرن الرابع كان له دوراً كبيراً في علو شأن المسيحية حتى أنه يمكن القول أن المسيحية اعتلت العرش مع قسطنطين .

لقد فوض الامبراطور قسطنطين الاساقفة بأن يعتبروا أنفسهم للحكم في المسائل الدنيوية إذا رانق المتخاصمان ، كما أعفى الكنائس من الضرائب البلدية ووهبها أجزاء من الأملاك الامبراطورية وسمح لها أن تتلقى بعض الهبات والتوصيات حتى جمعت الكنيسة بين الثراء وقوة الإيمان . وفي الوقت الذي بدأ فيه الأدب الوثني يلفظ أنفاسه كان الأدب المسيحي إيجابياً وعملياً . وتوضح المجالس العديدة التي عقدت خلال القرن الرابع نشاط الكنيسة في هذه المرحلة لما قامت به من اتصالات بين جميع أقاليم الامبراطورية . ولعل هذا النشاط يرجع إلى التنظيم الكنسي الذي يضع الاساقفة فوق القس والمطارنة فوق الأساقفة . وبفضل هذا النظام ادعى كرسي روما أنه أعلى مرتبة من الآخرين لأن روما عاصمة العالم الروماني وأن وريث هذا الكرسي وريث القديس بطرس .

هذا المجتمع الجديد أو بالأحرى المجتمع الديني مجتمع الكنيسة كان لا بد من العثور خلاله على حياة أكثر أملاً ومستقبلاً أفضل،فلقد شهدت الكنيسة كل شيء ينهار حولها ويتحطم حتى البناء الامبراطوري الذي ساعدها وحاولت أن تجد فيه ملاذاً . ولكنها عاشت بعد الانهيار ومهمتها إنقاذ النفوس . وكانت تطمح أن تقود كل البشرية إلى طريقها ،وذهبت إلى أقصى حدود الامبراطورية حيث البرابرة للتبشير بالدين المسيحي .

البرابرة وعاداتهم

عندما أطلقت روما على نفسها سيدة العالم كانت تعلم أن هذا اللقب ينطوي على مبالغة وأن حدودها ليست حدود العالم . وقد علمتها التجارب أنها لا تسيطر على أي حدود تهددها القبائل القاطنة في أقصى الشمال الاوروبي أو في الجنوب أو في الشرق.

ففي الشمال كان يوجد ثلاثة شعوب كبيرة هي الجرمان والسلاف والأمم الأسيوية . وفي الشرق كان الفرس الذين كثيراً ما اشتبكوا في حروب مع الرومان واستمرت هذه الحرب كثيراً من أجل بعض المدن الحدودية دون أن تكون لها نية الغزو . وفي الجنوب تواجد العرب الذين لم يكونوا قد أصبحوا مصدر خوف أو إزعاج حتى هذه المرحلة . وكانوا يتجولون في شبه الجزيرة العربية الواسعة . وفي الصحارى الأفريقية الشمالية كانت قبائل البربر الذين كانوا من الكثرة بحيث أثاروا خوف الضباط الرومان . وإن كانت كثرة هؤلاء قد ساعدت على تفكك الامبراطورية إلا أن كثرتهم هذه لم تجعلهم يفكرون في غزو الامبراطورية .

وفيما يتعلق بالجرمان فقد ظهر خطرهم منذ عهد الامبراطور فالنز بعد هزيمته ومصرعه في معركة أدرنه عام ٣٧٨ م . وعند وفاة خليفته الامبراطور ثيودوسيوس عام ٣٩٥ م ظهر خطرهم بشكل واضح بعدما تجمعوا على حدود الامبراطورية الشمالية مدفوعين بالعناصر السلافية من ورائهم ، وهؤلاء السلاف مدفوعين بدورهم بالقبائل الآسيوية من ضفاف نهر الفولجا . كما وصلت قبائل السويفي والألمان إلى نهر المين ، وتقدم إلى نهر الدانوب قبائل الماركوني والهيرول والقوط . وفي الغرب على طول نهر الراين الأسفل استقرت قبائل الفرنجة ، أما في الشمال فقد كانت قبائل الفريزيان بجوار بحيرة فليفو Flevo ، كما وجدت في الشرق قبائل الوندال والبرجنديون واللمبارديون بين نهري الألب والأودر . وخلف كل هؤلاء كانت عناصر الأنجلوسكسون والجوت، أما الداغاركيون والاسكندنافيون الذين سكنوا السويد والدانمارك فلم تظهر أخطارهم إلا في القرن التاسع الميلادي .

كانت تقاليد وطبائع هذه القبائل على نقيض العالم الروماني، فقد كان الانضباط والعبودية في نظر هذه العناصر هي مبادىء الحكم لدى الرومان وعدّتها القبائل شيئاً مروعاً ، بينما كان حب الاستقلال الفردي

والاخلاص للزعيم هما أساس طابع الجرمان . وأن فكرة الحرب عندهم هي مخاطـــر تتم بعيداً عن الوطن في سبيل المجد والأسلاب وفي ذلك المتعة الكبرى لهم . وكان الحال عندهم عندما يكبر الفتى ويصبح شاباً أن يتقدم هذا الشاب أمام الجميع ويتلقى من يدي أبيه ، أو رئيس مشهور ، درعه ورمحه ويصبح جندياً ومواطناً . وسرعان ما يرتبط بزعيم ذائع الصيت ويتبعه في الحرب والسلم مع زملائه الذين يجندون بالطريقة نفسها . وكان هؤلاء الرجال مستعدون دائماً للتضحية بحياتهم من أجل زعيمهم، لذلك كانوا يرافقونه وقت الشدائد والأخطار . وواقع الأمر ان التزام هؤلاء الجنرد بزعيمهم كان اختيارا وأن الجندي يرتبط بكلمة شرف مع زعيمه .

وكان من الصعب إستبداد هذا الزعيم على مثل هؤلاء القوم ، ولهذا كانت حكومة الجرمان تتألف من جمعية (Mall) يشترك فيها الجميع . وكانت هذه الجمعية مقدسة على حد قولهم، أقامها الآله بأنفسهم . وكانت هذه الجمعية تعقد في أماكن مقدسة تحت السماء على المرتفعات أو في الأخاديد وفي أيام مقدسة أيضاً مثل مولد الهلال واكتمال القمر . وفي هذه الأماكن كان المحاربون يجتمعون بأسلحتهم وهي شعار السيادة العسكرية ، وكان طرق الدروع يدل على موافقة أعضاء الجمعية على قرار ما . وكانت الجمعيات نفسها تمارس أعمال السلطة القضائية أحياناً عندما يجتمع كل الرجال الأحرار أو يتم الاجتماع بالتفويض .

وكان يتولى أمر كل مائة رجل سيد ، وعادة ما يكون لكل الأمة ملك يختار من بين أفراد أسرة واحدة تتوارث هذا اللقب . وعند قيام الحرب يختار المحاربون أنفسهم من سيعملون تحت إمرته في هذه الحرب .

أما الألعاب الرياضية عند هؤلاء فكانت تتفق مع روح الاعتزاز والبطولة والعاطفة والتعطش للدماء وحب المجد .

وفيما يتعلق بالديانة فقد امتزج خيال هؤلاء بسحر معين ، فكان هناك إله النـ..ـر Woden الذي يهبط كل ليلة من القصر السماوي الآتي تفتح

نوافذه نحو الشرق لكي يركب الهواء مع المحاربين الموتى . كما عرفوا إله الحرب Domar وهو هرقل Heraclius الجرمانيين، وهو الإله الذي ترهب له الأشجار التي يصعقها البرق . وعرفوا أيضاً الإله Ereya وهي فينوس الشمال ، والإله Hoda الجميلة مثلها مثل الإله ديانا Dyana التي تطير في الهواء في ليالي الشتاء مرتدية ثياباً بيضاء ناثرة الجليد في طريقها . وفي هذه الأساطير نجد عبادة النجوم والالهة Hertha وهي الأرض أولى ربات الجرمانيين . كما عبدوا الشمس Sunna وأخاها القمر Mani الذي يتبعه ذئبان،وكانت هذه الإلهة لها أشعارها ذات المستوى الرفيع .

واحتل شعر الملاحم عندهم مركزاً رفيعاً ، ومن أشعارهم « كل شيء هالك ، شيء واحد لا يموت ، ذكرى الأعمال الشهيرة » ومثل هذه الفكرة جعلت الموت سهلاً فتحدوه ، وتحملوا بجسارة وبدون خوف الأخطار ، ومن هناك رواية تشير إلى أن الفرنجة الذين وصلوا إلى البحر ذات يوم واستولوا على عدة قوارب وأبحروا عبر البحر المتوسط ناهبين حيثما ذهبوا شواطىء اليونان وايطاليا وأفريقيا ، وان الذين عادوا عن طريق المحيط بعد تحدي العواصف والامبراطورية الرومانية كانوا يضحكون ويتباهون لتحديهم الموت .

وفيما يتعلق بالزراعة فلم يهتم الجرمان اهتماماً كبيراً بزراعة الأرض ، ولم تكن لهم أملاك خاصة ، وكان المسؤولون يوزعون كل عام على كل قرية وكل أسرة القطعة التي يجب زراعتها ، وعلى حد قول المؤرخ قيصر Caesar (ت ٤٤ ق . م .) أن هذا النظام قد وضع لعدم صرف الرجال عن الحروب وللمحافظة على تكافؤ توزيع الثروات .

ولم يكن لهذه العناصر مدن ـ ربما للأسباب المتعلقة بزراعة الأرض ـ بل كانت لهم أكواخ من الطين منفصلة عن بعضها ويحيط بكل كوخ منها الحقل الذي يزرعه صاحب الكوخ . وكان رداؤهم النسيج مناقضاً للملابس الكاملة لدى الاغريق والرومان .

وفيما يتعلق بطرق الحياة ، فلم يسمح بتعدد الزوجات إلا للملوك ومشاهير الرجال ، ولم يكن الوقار من فضائلهم فقد كانوا يتعاطون قدراً كبيراً من الشراب في أعيادهم ، وكان كأس الشرف لديهم جمجمة عدو مهزوم . وكثيراً ما كانت الأعياد تنتهي بإراقة الدماء وموت أحد الضيوف . كما كانوا مغرمين بلعب الميسر ويراهنون على كل شيء حتى أشخاصهم ، ومن يخسر اللعب يصبح عبداً للمنتصر . وكان المجتمع قائماً على كلمة الشرف ولم يفكر الفرد في التنكر للكلمة التي قطعها على نفسه .

وكان للجرمان رذائلهم شأنهم في ذلك شأن معاصريهم ، ولكنها كانت أفضل لأنها نابعة من خشونة قابلة للتنقيح والتهذيب وليست نابعة من الفساد والتحلل الخلقي الذي لا علاج له . ورغم هذا كله فقد قدر لهؤلاء الجرمان أن يغزوا ويسيطروا على خير أجزاء الامبراطورية الرومانية .

وكان خلف هؤلاء الجرمان شعبان بربريان آخران يقومان بدفع الجرمان إلى الجنوب وهما السلاف والهون . وكان السلاف مشتتين بالقرب من نهر الدانوب والبحر الأسود وعند منبع نهر الفولجا وعلى طول بحر البلطيق حتى الألب ويحتمل امتزاجهم ببعض القبائل الجرمانية ، ولم يظهروا في أماكن أخرى إلا في فترات لاحقة . وقد إنقسم السلاف إلى ثلاثة فروع هم سلاف الجنوب سكان دالماشيا الجدد وهم أهل البوسنة والصرب والكروات . وسلاف الغرب بين نهر الدانوب والبحر الادرياتيكي ومنهم البولنديون والتشيك والمورافيون، أما سلاف الشمال فقد استقروا بين نهري الألب والفستولا والبلطيق وجبال الكروات . ويعرف الشماليون باسم المستقرون وقد إنضم إليهم الفنلنديون وكونوا أمة روسيا البدائية .

أما الهون Huns (هيونج ـ نو) الذين ينتمون إلى العنصر الفنلندي التتري فقد كانوا مصدر خوف وفزع لكل الشعوب الغربية سواء الجرمانية أو الرومانية. وكانت حياتهم الرحلات المتنقلة التي يقضونها في مركبات ضخمة أو على ظهور الجياد، وكانت عيونهم الضيقة وأنوفهم العريضة المفلطحة وآذانهم الكبيرة وبشرتهم البنية وعليها الوشم، تشكل خصائص في الطباع

وهي غريبة المظهر لأهل أوروبا، وقد أطلق عليهم المؤرخ البيزنطي اميانوس مارسيلينوس (ت بعد ٣٩١ م) Ammianus Marcellinus بأنهم «الوحوش ذات الساقين» وقارن بينهم وبين الأشكال التي ترسم على الكباري والجسور. وتحدث عنهم آخرون بأنهم أبناء الأرواح الجهنمية والساحرات المشعوذات في مراعي الاستبس المترامية الأطراف في الشمال والشرق، وهي منطقة مجهولة مثيرة للرعب تصلح أن تكون مأوى لمثل هذه الكائنات.

ومن هذه العناصر التترية جاءت عناصر أخرى إلى أوروبا، فقد جاء الأفار في القرن السادس الميلادي والبلغار والخزر في القرن السابع والمجريون في التاسع والمغول في القرن الثالث عشر والأتراك في القرن الرابع عشر. وكانت تحركات الأتراك خاتمة هذه الغزوات.

وإذا كان ما سبق يتعلق بالعناصر البربرية وطرق معيشتهم وتحركاتهم، فسوف نتعرض في الصفحات التالية لبعض هذه العناصر وعلاقتهم بالامبراطورية الرومانية.

الفصل الرابع

الإمبراطورية الرومانية
ومرحلة الغزو الأولى للبرابرة

- تمهيد
- القوط الغربيون
- البرجنديون
- الوندال
- الهون
- نهاية الامبراطورية الغربية

تمهيد

في بداية العصور الوسطى ومع مطلع القرن الرابع الميلادي بالذات نلمس تغيرات واسعة المدى في الامبراطورية الرومانية والعالم الأوروبي بوجه عام . وقد لعبت عدة عوامل أساسية دورا هاما في هذا التغيير ، نذكر منها اضمحلال الامبراطورية الرومانية وظهور الديانة المسيحية التي نقلت الامبراطورية من العهد الوثني الى عهد جديد انتصرت فيه المسيحية لتؤثر في حياة الناس وفكرهم طيلة العصور الوسطى وما بعدها . ومن العوامل الهامة التي اسهمت في هذا التغيير كان نقل العاصمة من الغرب الى الشرق أي من روما إلى القسطنطينية وما ترتب على ذلك من نتائج ، وإنتقال مركز الثقل إلى الشرق وبقاء القسطنطينية مركزا لتبلور الحضارة الهلينستية التي اصبحت من مميزات الامبراطورية الشرقية أي الامبراطورية البيزنطية . وفضلا عن ذلك وجد عامل أساسي آخر لعب دورا كبيرا في تغيير خصائص التاريخ الأوروبي وخاصة في الجزء الغربي من اوروبا ، ونعني بذلك جماعات البرابرة الذين تدفقوا على الامبراطورية الرومانية وانتهى المطاف بهم الى الاستقرار داخل مساحات كبيرة من اراضيها .

ولفظ « بربري » Barbarian قديم جدا، فقد ورد في الالياذ

اليونانية ، وكان يدل على الاحتقار والازدراء . ثم تحول معنى هذا اللفظ عند المفكرين من قدامى اليونان مثل أفلاطون وأرسطو ، وأصبح يدل على الشعوب التي لا تفقه اللغة اليونانية ، وعلى ذلك أصبح مدلول لفظ البربري عند اليونان مرادفا لكلمة غير مثقف أو فظ . وقد أخذ الرومان هذا اللفظ وأدخلوه في لغتهم واستعملوه للدلالة على هذه المعاني ، بل لقد أصبح يستعمل للدلالة ايضا على القوى الاجنبية المعادية التي كانت تهدد الحضارتين اليونانية والرومانية . ونحن عندما نستعمل لفظ البربرية فيجب الا يتبادر إلى أذهاننا أنها تعني بالضرورة الهمجية او الوحشية ، فإنها في غالبية الأمر تعني مرحلة من مراحل التنظيم السياسي الاجتماعي القبلي في مرحلته البدائية القائم فيها على أساس رابطة الدم .

والواقع أن هؤلاء البرابرة لم يعرفوا الحدود الثابتة بالمعنى المفهوم في تاريخ الدول المتحضرة المستقرة ، وقد كانت الامبراطورية الرومانية محاطة بهم من جميع جهاتها سواء كان ذلك بشكل مباشر أو غير مباشر ، كما كان هؤلاء البرابرة متعددين في أنواعهم كما ذكرنا ولم تقتصر عناصرهم على الجرمان ، فمن العناصر التي اثرت في تاريخ الامبراطورية في مرحلة الإنتقال من العصور القديمة الى العصور الوسطى كانت مجموعة الشعوب الاسيوية الرعوية . وهذه المجموعة بدت في أول الأمر بعيدة إلى حد ما إلى الشرق من الامبراطورية،ولكنها ما لبثت ان اتجهت غربا لتضغط على الشعوب التي أمامها الواقعة إلى الغرب منها . ويلاحظ أن هذا التحرك إلى الغرب كان نتيجة تزايد أعدادهم وقلة المؤن الغذائية في موطنها الأول ، ومن أبرز هذه الشعوب الهون والبلغار والمغول والأتراك بأنواعهم .

كما أحاطت مجموعات من الشعوب الكلتية والصقلبية والجرمانية بالامبراطورية . ولكن يجب أن نأخذ في اعتبارنا أن كل هذه الشعوب من كلتية وصقلبية وجرمانية ما هي إلا فروع لأصل واحد هو الجنس الأوروبي الهندي الذي تفرعت منه الشعوب الابطالية والأرمينية والايرانية والهندية . والراجح أن العناصر الأوروبية الهندية على اختلاف فروعها قد وصلت إلى

أوروبا عن طريق هجرة من الشرق صوب الغرب منذ زمن بعيد . فنزل الكلتيون Celts في شمال أوروبا ثم قاموا بحركات توسعية في الخمسة قرون السابقة للميلاد . وقد نتج عن تحرك الجرمان صوب الجنوب والغرب أن لجأ الكلتيون إلى غالة وما يعرف بالجزر البريطانية وإيطاليا وبلاد اليونان وآسيا الصغرى، وتناثروا فيما بين البحر الأسود والمحيط الاطلنطي ، غير أن مواطنهم سرعان ما أصبحت في نطاق الامبراطورية الرومانية، واصطبغوا بالطابع الروماني بل اتخذوا المسيحية دينا لهم . وبالرغم من تقدم الجرمان في فترة تالية، فإن الصفات الكلتية ظلت باقية في بريطانيا وويلز وايرلندا واسكتلندا ولم تتأثر الا قليلا بالمؤثرات الرومانية والجرمانية .

أما فيما يتعلق بالشعوب السلافية Slavs فقد كانت مستقرة أول الأمر في أواسط آسيا ، ثم تعرضت لضغط الـ ـر الاسيوية ومن بعدها للعناصر الجرمانية الأمر الذي أدى بكثير من الـ ـر الصقلبية إلى الوقوع في الاسر والتحول إلى العبودية ، ومن هنا جاء تسميتهم باسم السلاف Slave أي العبد ، ولكن الصقالبة أو السلاف ما لبثوا أن نهضوا من كبوتهم نهضة ملحوظة ، وانتشروا وتحدوا العناصر المجاورة لهم .

وكانت أكثر المجموعات البربرية تأثيرا بشكل فعال ومباشر في تطور تاريخ غرب أوروبا هي مجموعة الشعوب الجرمانية . ومعلوماتنا عن الجرمان في حياتهم الأولى أي قبل انتقالهم إلى داخل حدود الامبراطورية الرومانية محدودة نسبيا لقلة ما جاء ذكره في المصادر التاريخية المتعلقة بهم ، ولكننا نستطيع ان نستقي بعض المعلومات الهامة في مرحلتهم الأولى مما جاء في كتاب المؤرخ قيصر والمؤرخ تاكيتوس Tactius (٥٦-١١٧م)، والأخير كان من كبار موظفي الامبراطورية الرومانية كما كان على اتصال بالجرمان الأمر الذي مكنه من التعرف على بعض مظاهر حياتهم. والمهم أن هذه الشعوب قد تحركت صوب الامبراطورية الرومانية، واتخذت هذه التحركات مراحل متعددة يمكن أن نجملها في مرحلتين رئيسيتين.

والمرحلة الأولى التي استمرت حتى عام ٣٧٥م شهدت تغييرا كبيرا في طابع العلاقات بين الطرفين ، وهذا التغيير كان نتاج عدة عوامل هامة ، منهـا ما كان من تحركات العناصر السلافية وغيرها ، وضغطها على الجرمان . ومنها أيضاً إزدياد أعداد الجرمان ونقص موارد سبل المعيشة عندهم ثم تطلعهم إلى الامبراطورية الرومانية بعدما عرفوا خيراتها وبعدما عرفوا أيضاً بأنها دخلت في مرحلة الاضمحلال الأمر الذي أغرى الجرمان وغيرهم من جيران الامبراطورية على مهاجمتها والنيل منها . وهكذا بدأت هجمات الجرمان على أطراف الامبراطورية . حقيقة أن الرومان نجحوا في التغلب على الهجوم الجرماني الأول ، إلا أن هجمات الجرمان ما لبثت أن تجددت في القرن الثالث الميلادي في عهد الامبراطور كاراكلا Caracalla ٢١١ - ٢١٧م،وقد هاجم الجرمان حينئذ اقليم داكيا وظهر في هذا الاقليم القوط في النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي .

وبتواجد القوط في داكيا بدأ تأثرهم بالمسيحية وبغيرها من مؤثرات الحضارة الرومانية ، هذا ويمكن اعتبار نزول القوط في داكيا إنه إساس يحدد قيام أول مملكة جرمانية داخل حدود الامبراطورية وإن كان على مستوى محدود إلى حد ما ، هذا ويجب أن نلاحظ في هذا المقام تلك العملية الهامة التي صاحبت هذه المرحلة من العلاقات مع الجرمان وتلك هي عملية التغلغل البطيء ، فقد بدأ استقرار الجرمان بأعداد كبيرة داخل حدود الامبراطورية كمزارعين للأرض وكجند مرتزقة يخدمون تحت راية الامبراطورية بل وكقواد ووزراء لهؤلاء الأباطرة الرومان . يضاف إلى ذلك كله ما تم بين الجرمان والرومان من زواج وتفاعل اجتماعي .

أما المرحلة الثانية فقد امتدت من عام ٣٧٦م حتى عام ٥٦٨م، فقد بدأ القوط في عام ٣٧٦م يتفذون إلى داخل الامبراطورية بأعداد كبيرة ، وفي سنة ٥٦٨م دخل اللمبارديون ايطاليا . وفي هذه المرحلة التي استمرت حوالي قرنين من الزمان تجددت الهجمات الجرمانية واتخذت طابعا جديدا يتمثل في ضخامة هجماتها التي كانت تهدف من ورائها إلى الاستقرار

داخل أراضي الامبراطورية . حقيقة أنه تخلل هذه الحقبة الزمنية بعض الغزوات المحدودة التي جاءت بغرض السلب والنهب ثم العودة مرة اخرى الى مواطنها الأصلية ، ولكن مثل هذه الهجمات لا تهمنا بالقدر الذي نهتم به بالغزوات الضخمة التي كانت من خصائص هذه الفترة . ومن الطبيعي ان تثير الغزوات الكبرى المخاوف والرعب في المجتمع الأوروبي ، الأمر الذي سجلته لنا كتابات عدد من المؤرخين والكتاب الأوروبيين المعاصرين. فقد تجلى في هذه الكتابات رعب وفزع سكان الريف والمدن. ومن ذلك كتابات القديس جيروم St. Gerome (٣٤٢ - ٤٢٠م) حيث قال، كان المسيحيون يجري قتلهم في الكنائس ، كما أصبحت الأرامل والعذارى ممن وهبن انفسهن للسيد المسيح في جملة الغنائم التي سلبتها هذه الوحوش المفترسة . لقد اسروا الاساقفة وقتلوهم وهدموا المذابح وعم الشقاء في كافة البلاد التي مر فيها البرابرة. أما القديس أمبروز St. Ambrose (ت ٣٩٧م) فكان يرى في البرابرة - حيوانات مجردة من كل عاطفة، ولا تعرف سوى الفجور والسلب والنهب . ولكن يجب الا تجعلنا امثال هذه الكتابات نحكم بأن البرابرة كانوا مجرد غزاة هدامين ومخربين ، فالكثير من المدن الرومانية القديمة بقيت سالمة على حالها الى ما بعد غزوات البرابرة الجرمان . ونضيف أن هذه المرحلة من غزواتهم اصطبغت بحرص شديد من الجرمان على الاستفادة من الحضارة الرومانية واقتباس مقوماتها . وسنعرض فيما يلي الدور الذي قامت به الجماعات الجرمانية الرئيسية في هذه المرحلة وما كان لها من نتائج وآثار .

القوط الغربيون

في نهاية القرن الرابع جاءت من أعماق الإستبس التي تمتد حتى تخوم أوروبا وآسيا موجة من التحركات البشرية هزت كل عالم البرابرة وتسببت في حركة عظمى للشعوب التي اسقطت الامبراطورية الرومانية الغربية فعناصر الهون التي استقرت منذ القرن الثالث قبل الميلاد في السهول الكبرى لآسيا الوسطى وراء بحر قزوين اخذت تتقدم بالتدريج نحو

الغرب. ونتيجة للانقسام الداخلي بين هذه العناصر انقسم الهون الى قسمين ؛ الأول هو قبائل الهون البيض التي بثت الرعب في فارس ، بينما اندفع القسم الثاني نحو اوروبا عابرا نهر الفولجا دائماً في طريقه الشعب الآلاني Alani الذي اقام بين البحر الاسود وبحر قزوين ، وعبر الهون والآلاني نهر الدون وانقضوا على أمة القوط الكبرى التي وحدها هرمانريك Hermanric ،ونتيجة لذلك تحرك القوط الغربيون إلى ضفاف نهر الدانوب وهي الحد الفاصل بين هؤلاء البرابرة والامبراطورية الرومانية.

وعند هذه المرحلة حصلوا على إذن من الامبراطور فالنز Valens (٣٦٤ ـ ٣٧٨ م) بعبور الدانوب، ووافق الامبراطور في عام ٣٧٦ م على عبورهم إلى منطقة مواشيا،وانتهى بهم الأمر الى الاستقرار داخل الامبراطورية كوحدة قومية . وإزاء تعسف الموظفين الرومان واساءة معاملة القوط ، قابل القوط هذه الاستضافة بالثورة والتطلع إلى الاستقلال . وقد أدى ذلك إلى اصطدام القوط الغربيين بقوات الامبراطورية ،وخاض الطرفان معركة كبيرة وهامة للغاية في تاريخ العصور الوسطى هي معركة ادرنه عام ٣٧٨م، قتل فيها الامبراطور نفسه.

وقد استطاع ثيودوسيوس الأول (٣٧٩ ـ ٣٩٥م) الذي تولى حكم الامبراطورية بعد الامبراطور فالنز معالجة الخطر القوطي بعدما لجأ الى الحكمة والدبلوماسية بدلا من الحرب ، فقد عقد معهم إتفاقاً في عام ٣٨٢م أصبحوا بموجبه معاهدين له واعفاهم من الضرائب المفروضة عليهم مقابل الخدمة العسكرية في صفوف الجيش الامبراطوري ، كما نجح بالدهاء في نقل بعضهم الى آسيا الصغرى وتراقيا.

ويبدو ظاهريا أن الامبراطورية الرومانية قد قبلت استضافة القوط على هذه الصورة كان من باب التفضل،ولكن واقع الأمر أن الامبراطورية لم تكن تجرؤ على غير ذلك . فقد كانت الامبراطورية في سابق عهدها تؤلف البرابرة في مستعمرات بعد اخضاعهم ، أما في هذه المرحلة فقد أخذت تستقبلهم لتفادي أخطارهم وليس بدافع الكرم . ومع تغلغل البرابرة زاد

نفوذهم داخل الامبراطورية وصرنا نجد منهم الوزراء والقادة العسكريين في الحكومة الامبراطورية مثل ستيلكو Stilicho الوندالي الأصل ، وروفينوس Rufinus القوطي ، وأربوجاست Arbugast القائد الفرنجي .

وزادت جرأة البرابرة في هذه المرحلة خاصة أن الامبراطورية كانت تمر بمرحلة من الضعف ، فأخذوا يقتحمون حدودها بالقوة واصبحوا سادة الأرض الرومانية . ولقد وصل الغزو هذه المرحلة عندما آل أمر الامبراطورية إلى ولدي ثيودوسيوس وقسمت بينهما عام ٣٩٥م، وهنا ضاعت وحدة الامبراطورية إلى الأبد . وبموجب هذا التقسيم حصل هونوريوس Honorius على القسم الغربي وعاصمته روما ، بينما كان الجزء الشرقي من نصيب أركاديوس ٣٩٥ - ٤٠٨ م وعاصمته القسطنطينية ، واستمر هذا الجزء ألف وثمانية وخمسون عاماً بعد هذا التقسيم أي حتى عام ١٤٥٣ م حتى سقطت القسطنطينية في يد الأتراك العثمانيين ، في حين لم يستمر الجزء الغربي سوى واحد وثمانين عاماً أي حتى عام ٤٧٦م عندما سقطت روما في يد القائد الجرماني اودواكر Odoacer. ومنذ عام ٣٩٥م حتى سقوط اوروبا عام ٤٧٦م كانت الإمبراطوريتان رغم استقلال كل منهما عن الأخرى توحدان قواتهما للدفاع المشترك .

وخلال هذه المرحلة وما بعدها توفرت للامبراطورية الشرقية الحماية نتيجة الحواجز الطبيعية لنهر الدانوب وجبال البلقان، يضاف إلى ذلك أن الاتجاه الدائم لتقدم البرابرة كان ضد الغرب أكثر من الشرق بفضل ما اتخذته الامبراطورية الشرقية من احتياطات للدفاع عن أراضيها وحصانة القسطنطينية التي أصبحت العاصمة الجديدة للعالم الروماني ، في حين ظلت روما مجرد ظل لعاصمة .

ولما كانت الامبراطورية الغربية هدفا لكل الهجمات الكاسحة، لذلك نجد في غضون نصف قرن فقط هجمات للقوط الغربيين والسويفي Suevi والوندال والآلانيين واخيرا اتيلا Attila على رأس قبائل الهون . وكان

يتعين على الامبراطورية الغربية أن تكون على درجة من القوة تفوق ما كانت تملكه في هذه المرحلة .

ولعل أهم الاحداث في تاريخ القوط هو اختيارهم الاريك Alaric زعيم أحد الأسر القوطية اللامعة قائدا وزعيما لهم عقب وفاة الامبراطور ثيودوسيوس عام ٣٩٥م. وكانت بداية الاحداث عندما رفضت الامبراطورية دفع الجزية السنوية المقررة لهم ، فاندفعوا إلى إقليم تراقيا ومقدونيا يسلبون وينهبون دون مقاومة تذكر .

وعلى أية حال فقد كان للامبراطورية من يدافع عنها ممثلاً في شخص القائد ستيلكو الواندلي الأصل الذي عهد إليه ثيودوسيوس برعاية ولديه وهو على فراش الموت . وأسرع ستيلكو للتصدي للقوط الغربيين وحاصرهم على جبل فولي Pholoe في أركاديا ، ولكنه إما نتيجة الإهمال أو من باب السياسة تركهم ينجون بأنفسهم عبر مضيق نوباكتوس Naupactus ، وللحيلولة دون أعمال نهب أخرى قام الامبراطور الشرقي اركاديوس بتعيين الاريك رئيساً للجند في منطقة الليريا.

وما كان مثل هذا التشريف السلمي يرضي زعيما بربريا مرفوعا على دروع مواطنيه . لذلك قاد الاريك قومه وغزا ايطاليا ودخل ميلانو ، ويحتمل أنه استطاع أن يحاصر الامبراطور هونوريوس في آستي Asti ، ولكن الامبراطور نجح في الفرار ، ولحسن الحظ أسرع ستيلكو إلى ميدان المعركة وانقذ الامبراطور ودحر القوط الغربيين في بولنتيا Pollentia عام ٤٠٢م .

ويقال أن الاريك كرم مرة أخرى بعد هزيمته في إيطاليا كما حدث له عند هزيمته في اليونان ، فقد عينه هونوريوس قائدا وعهد إليه سرا بمهمة غزو الليريا لحساب الامبراطورية الغربية ، وربما قصد بذلك إبعاده عن طريق الامبراطورية في الغرب ، ويرى البعض أن في ذلك عملاً مخجلا ووضيعاً.

وعلى أية حال فقد اعتبر هونوريوس نفسه منتصرا على قوط الغرب

واحتفل بانتصاره في مدينة روما ، ثم عاد إلى مدينة رافنا حيث تطيب له الاقامة بها بعيدا عن روما وما يحاق بها من أخطار ، وعن ميلانو التي سبق أن حاصرها الاريك من قبل .

وقف الاريك في تراجعه عند قمة البحر الادرياتي ، وسمح له موقعه بين الامبراطوريتين أن ينقض على أي منهما حسبما تواتيه الفرصة . وانجذب للمرة الثانية نحو الامبراطورية الغربية ،ومع أن ستيلكو كان قد هزم القوط فإنه استمر في إقامة علاقات المودة مع رئيسهم الاريك، كما احتفظ بقوة تقدر بثلاثين الف بربري في ايطاليا على نفقـه الامبراطورية إما لإعجابه بإقدامهم وشجاعتهم أو لأنه رغب في الاعتماد على مساعدتهم لينصب ابنه امبراطورا على الغرب . وانزعج الامبراطور هونوريوس لهذا الأمر فقتل ستيلكو عام ٤٠٨م وأمر بقتل كل معاونيه من البرابرة في إيطاليا ، وهرب بعضهم إلى الاريك فعاد معهم للانتقام لهم في العام نفسه .

عبر الاريك جبال الالب واتجه الى اسوار مدينة روما التي ارسلت نوابها إلى معسكره طالبين السلام، واغتر الاريك فقال للنواب «كلما كانت الحشائش كثيفة ، كلما كان الرعي أفضـل»،مشيرا بذلك إلى خيرات المدينة وإلى الغنائم والاسلاب التي يمكن الاستيلاء عليها . ورغم ذلك فضل الاريك السلم على الحرب ووافق على عقد معاهدة جعلت العاصمة القديمة للعالم الروماني رهنا بدفع خمسة آلاف قطعة من الذهب وثلاثة آلاف قطعة من الفضة . واتجه الاريك بعد ذلك إلى توسكانيا حيث قضى الشتاء .

سرعان ما أدرك الاريك أنه أهين واستهين بقدره فعاد إلى روما والقى عليها الحصار ، فانقطعت عنها الامدادات التي كانت تصلها من صقلية واجتاحتها مجاعة مريعة . واذعن مجلس شيوخ المدينة للغزاة ، فخلعوا القائد الروماني أطالوس Attalus وعينوا الاريك بدلا منه

وتحرك الامبراطور هونوريوس واستمال احد القواد القوط ويدعى

ساروس Sarus واغراه بأن يباعت معسكر مراطيه . وعلم الاريك بهذه التحركات فاستدار للمرة الثالثة تجاه روما عام ٤١٠م وسقطت المدينة في الرابع والعشرين من اغسطس في العام نفسه ونهبت منازل النبلاء واحرقت ، ولكن الخسائر في الأرواح كانت قليلة ، كما نجت الكنائس من كل ضرر ولم يلحق بالآثار القديمة ضرربليغ،رغم ان الاريك كان أريوسي المذهب . وروع العالم المسيحي لاخبار سقوط المدينة واعتبروها نهاية العالم .

وبعد ما سقطت روما في يد القوط الغربيون اقترح الاريك عبور البحر المتوسط إلى الساحل الافريقي ، ولعله كان يقصد من وراء ذلك إلى إسكان القوط الغربيون بصفة دائمة في الساحل الأفريقي أو في صقلية، ولكن سفن النقل تحطمت بعاصفة مفاجئة . ومات الاريك نفسه في اواخر عام ٤١٠ م بمدينة كوسنزا Cosenza ،واحتفل البرابرة بتشييع ودفن جثمان قائدهم المظفر بطريقة اسطورية ، ولكي يمنعوا احتمال تدنيس الرومان لجثمانه كلفوا أسراهم بتحويل مجرى نهر بوسنتو Busento الذي كان يجري داخل مدينة كوسنزا وان يحفروا قبرا في قاع النهر ودفنوا الاريك محاطا بالغنائم والأسلاب النفيسة التي حصل عليها في انتصاراته ، ثم اعيد النهر إلى مجراه القديم وقتل الاسرى الذين قاموا بالعمل على المقبرة حتى لا يذاع هذا السر.

وخلف الاريك شقيقه أتولف Athaulf (٤١١ - ٤١٥ م) وكان اتولف معجباً بالامبراطورية ويرغب في إفاقتها من عثرتها على يد شعبه ولمصلحته . فبدأ بعرض خدماته على الامبراطور الغربي هونوريوس،وفي يناير من عام ٤١١ م تزوج شقيقه الامبراطور الأميرة بلاسيديا Placidia التي كان القوط قد احتفظوا بها أسيرة عندهم أو رهينة ، ووعد أتولف بأن يطرد من بلاد الغال واسبانيا الغاصبين اللذين كانوا يتآمرون هناك للاستيلاء على العرش الامبراطوري .

فقد ادعى ثلاثة أنهم أباطرة ولبسوا العباءة الارجوانية في كل من

اسبانيا وعنالة ، أولهم يدعى قسطنطين وثانيهم يدعى مكسيموس Maximus وثالثهم هو جيرنتيوس Gerontius، ونجح أتولف في حل هؤلاء الثلاثة دون صعوبة ، ولكنه سرعان ما ظهر اثنان آخران هما جوفينوس Jovinus وسباستيان Sebastian، ونجح اتولف في الانتصار عليهما ثم دخل اسبانيا لطرد البرابرة الذين كانوا قد اجتاحوها . وانتهت حياة اتولف عندما اغتيل في برشلونة عام ٤١٥ م.

وتولى أمر القوط بعد ذلك سنجريك Singeric الذي حكم لمدة سبعة ايام فقط ثم لقي مصرعه ، ولم يقم بعمل ما في هذه الفترة سوى قتل أولاد اتولف، ثم تولى واليا Walia حكم القوط ٤١٥ - ٤٢٠م بعد ذلك. وحاول واليا الإبحار إلى افريقيا ولكنه عجز عن عبور مضيق عمودي هرقل (جبل طارق) مما يدل على ضآلة خبرة القوط بالملاحة البحرية . وبعد أن عاد إلى قلب اسبانيا أخذ ينازع الآلان والسويفي والوندال ملكية ذلك الاقليم لمصلحة الامبراطور الروماني الغربي .

وبداية احتكاك هذه القبائل بالامبراطورية يرجع إلى أن هذه القبائل تركت شواطىء البلطيق تحت قيادة راداجياسوس Radagaisusواتجهت نحو الجنوب دافعة معها لشعوب التي قابلتها في الطريق وهي القبائل البرجندية والآلانية والوندالية. وقد انضمت إليها هذه القبائل بكل سهولة في نهب الامبراطورية لأنها شهدت وراءها الجزء الأكبر من جحافل الهون تتجمع منذرة بالزحف . وعبر جبال الألب مائتا ألف من عناصر السويفي وما انضم إليها تاركين وراءهم جزءا كبيرا على ضفاف نهر الراين .

وهبطت هذه العناصر ايطاليا متغلغلين فيها حتى وصلوا فلورنسا Florence . واسرع ستيليكو مرة اخرى إلى انقاذ روما والامبراطورية فحاصر البرابرة على صخور فيسول Fiesole حتى هلك عدد كبير وأسر الباقي وبيعوا عبيدا . ولقي قائدهم راداجياسوس نفسه مصرعه . ولما علم البرابرة الذين بقوا في ألمانيا بأنباء الكارثة غيروا وجهتهم وهاجموا بلاد الغال Gaul، وعبروا الراين عام ٤٠٦ م على الرغم من مقاومة الفرنجة

البريـون Ripuarian Franks الذين كانت روما قد عهدت اليهم بالدفاع عن نهر الراين .

ومنذ ذلك التاريخ ولعامين كاملين كانت بلاد الغال فريسة عمليات النهب والسلب المريعة التي لم تنقطع الى أن استدارت قبائل السويفي والآلان والوندال تبحث في جنوب جبال البرانس عن مستقرات لها بعدما فشلوا في الحصول عليها في الشمال .

وواكب هذه الاحداث ما كان يقوم به واليا من تطهير اسبانيا من هذه القبائل لمصلحة الامبراطور هونوريوس، وعلى الرغم من هزيمة قبائل السويفي أمام قوات واليا فإن زعيم قبائل السويفي انقض على جبال البرانس وجاليسيا حيث اسس في عام ٤١٩ م مملكة قامت في ظل مليكها رشيلا Rechila وريشياريوس Rechoarius . ونجحت عناصر السويفي في الفترة من ٤٣٨ حتى عام ٤٥٥ م في أن تغزو كل اسبانيا لولا تدخل القوط الغربيون لوقف تقدمها، وكان ثمن ذلك أن أعاد الامبراطور هونوريوس مقاطعة أكويتين Aquitaine مع عاصمتها تولوز Toulouse للقوط مكافأة على خدماتهم. وانتشر القوط الغربيون في بلاد الغال حتى نهر الرون واللوار ، ثم عادوا إلى اسبانيا مرة أخرى ليعملون لحسابهم . وقد نجح القوط في هزيمة قبائل السويفي في اسبانيا عام ٤٥٦ م وتمكن ليوفيجلد Leovigild (٥٧٠ ـ ٥٨٦ م) في عام ٥٨٥ م من إخضاعهم ، وبذلك آلت اسبانيا كلها إلى القوط .

وهكذا قامت في العشرين سنة الأولى من القرن الخامس الميلادي عدة ممالك بربرية استمرت لفترات متفاوتة ولكنها سرعان ما زالت . فقد زالت السويفي عام ٥٨٥ م واتجهت مملكة القوط الغربيين إلى اسبانيا عام ٥٠٧ بعد هزيمتها على يد الفرنجة، ثم زالت دولة القوط من اسبانيا على يد العرب عندما فتحوا اسبانيا عام ٧١١م.

وعلى أية حال فقد مات ملك القوط واليا عام ٤٢٠ م ومات

الامبراطور الروماني الغربي هونوريوس بعده بثلاثة أعوام (٤٢٣م) بعد ما عجز عن الدفاع عن ممتلكاته أمام أخطار العناصر الجرمانية، ولم يخلف وراءه سوى حمايته للكنيسة وكثيرا من القرارات التي قضت بتدمير الاصنام والمعابد، وبحظر توظيف الوثنيين والمهرطقين في الوظائف العامة . وخلف هونوريوس ابن اخته فالنتيان الثالث Valentinian III (٤٢٤ - ٤٥٥م) ابن بلاسديا ، والكونت قونسطانتوالذي تزوجته بعد وفاة اتولف القوطي . وكان فالنتيان يبلغ من العمر ست سنوات لذلك ظل تحت وصاية والدته . وخلال هذه المرحلة كانت بلاخريا Pulcheria تحكم الامبراطورية الشرقية وصية على شقيقها الامبراطور ثيودسيوس الثاني (٤٠٨ - ٤٥٠ م) الذي خلف والده اركاديوس . وانهالت كوارث جديدة على الامبراطوريتين تحت حكم هذين الامبراطورين القاصرين اللذين تسيطر على كل منهما امرأة ، ويستعين وزراؤها وقادتها بالبرابرة في التنافس ودسائس القصر . وكان لهذا كله اسوأ النتائج على الامبراطوريتين في المراحل اللاحقة ، ونجحت العناصر الجرمانية في التوغل في جوف اوروبا خاصة البرجنديون والوندال وغيرهم .

البرجنديون Burgundians

والبرجنديون من الجرمان الشرقيين الذين نفذوا إلى اقليم سيليزيا Silesia قرابة عام ١٥٠ م، ثم دخلوا وادي الـمين بعد ذلك بقرن من الزمان ، ثم شقوا طريقهم إلى نهر الراين فبلغوه في نهاية القرن الرابع الميلادي . وقد سمح لهم الرومان بامتلاك الأراضي الواقعة على جانبي نهر الراين بقصد حماية الحدود من غارات الألمان ، واتخذوا من مدينة ورمز Worms عاصمة لهم. وقد استخدمتهم الامبراطورية في إداراتها المدنية للعمل كموظفين شأنهم في ذلك شأن العناصر الجرمانية الأخرى . ومن الملاحظ أن البرجنديين كانوا قد اعتنقوا المسيحية على المذهب الأريوسي في بداية عهدهم بالمسيحية مما سبب الكثير من المعاناة للكنيسة الأثناسيوسية في اوروبا ، كما أنهم كانوا قوماً مسالمين بطبيعتهم ، ولكنه

تحت ضغط هجمات الهون اضطروا لاستخدام العنف في شق طريقهم حتى سمح لهم القائد الروماني ايتيوس Aetius بالاقامة في الجزء الشرقي من فرنسا في عهد زعيمهم جنديكار Gundicar عام ٤١٣ م. وقد استغلوا فرصة اشتراكهم مع الرومان والقوط الغربيين في صد الهون والانتصار عليهم في موقعة شالون Chalons عام ٤٥١ م ليتوسعوا سلميا في المنطقة الواقعة بين الالب والرون وهي المنطقة التي عرفت باسمهم.

وعن علاقة البرجنديين بالامبراطورية الشرقية، فيبدو أن العلاقات بينهما كانت طيبة وتميزت بولاء الملوك البرجنديين للاباطرة الشرقيين الذين اضفوا عليهم القاب التشريف، وهي الألقاب التي اعتبرها البرجنديون أنها أضافت إليهم العظمة والمجد. أما فيما يتعلق بعلاقة البرجنديين بالفرنجة فلم تكن علاقة سلمية خاصة في عهد كلوفس الذي دامت حروبه معهم أكثر من عشرة سنوات رغم أن زوجة كلوفس كانت برجندية. ولم تستمر مملكة البرجنديين طويلا فقد انتهى أجلها في الربع الأول من القرن السادس الميلادي لأنها لم تكن مملكة قوية ولم تستطع الصمود امام أحداث العصر واخطاره.

الوندال Vandals

الوندال من الشعوب الجرمانية الشرقية شأنها في ذلك شأن البرجنديين، وقد غادروا ساحل بحر البلطيق في وقت سابق لتحرك القوط. ومع حلول القرن الاول الميلادي تجدهم وقد نزلوا في سيليزيا وبوهيميا، وعلى أثر الاضطرابات التي أثارتها حرب الماركوماني Marcomani (بوهيميا) حوالي ١٦٦ م، تعرضت هذه الأقوام للتفرق والتشتت، فتحرك إلى هنغاريا شعب الوندال الأسدنجيين Asdings الذي اشتق اسمه على ما يبدو من اسم البيت المالك فيه، أما الوندال السلينجيون Silings فقد بقوا في سيليزيا الذي يبدو أن إسمها جاء تحريفاً للاسم سيلينجيا Silingia. وبعدما يقرب من مائة عام هاجر عدد منهم إلى الحوض الأوسط لنهر المين، واصاب الوندال الاسدنجيين الضعف فترة من

الزمان بسبب صراعهم مع القوط . وفي نهاية القرن الرابع الميلادي أدركوا أن الأرض التي يعيشون عليها عند نهر ثيس Theiss لا تفي باحتياجاتهم ، لذلك غادرها عدد كبير منهم تحت قيادة ملكهم جوديجسيل Godigisel وانضموا إلى الآلان الذين فروا من أمام الهون وعبروا نهر الدانوب الأعلى حيث توقفوا هناك . وظلوا مدة خمسة سنوات داخل الامبراطورية بوصفهم معاهدين . وحدث في عام ٤٠٦ م أن تغيرت الأوضاع حين اضطرت الامبراطورية لسحب قواتها من حدود نهر الراين لتواجه خطر القوط الغربيين ، وكان في ذلك فرصة للوندال الاسدنجيين والآلان الذين عبروا الراين، وازدادوا عددا بفضل ما انضم اليهم من السويفي والوندال السيلينجيين في اواخر العام نفسه (٤٠٦ م).

وعاثت جموعهم المتناثرة من الفرسان في الجانب الاكبر من فرنسا فسادا وتدميرا طوال السنتين التاليتين دون أن تواجه أية مقاومة منظمة ، باستثناء مدينة ترلوز Toulouse التي قاومت هجماتهم بفضل أسقف المدينة الذي استبسل في الدفاع عنها . ولكن هذا التخريب ما لبث أن توقف عندما عبر الوندال وحلفاؤهم جبال البرانس ونزلوا باسبانيا حيث عاثوا في الأرض فسادا لمدة سنتين أخريين. ولم يتوقف هذا الفساد إلّا عندما تدخلت روما وعقدت في عام ٤١٠ تسوية مؤقتة، نزل بموجبها الوندال الاسدنجيون والسويفي في جاليسيا Galicia والوندال السيلينجيون في اندلوسيا Andalusia ، على حين استقر الآلان في البرتغال وشمال شرق اسبانيا . ورغم ذلك فإن روما لم تنس سياستها القديمة وهي سياسة (فرق تسد) وعهدت إلى واليا ملك القوط في عام ٤١٦ م بمهاجمة الوندال في اسبانيا ، وكانت تهدف من وراء ذلك أن يهلك الطرفين. وقد نجح واليا في مهمته نجاحا باهرا وسحق الوندال السيلينجيين سحقا . واضطرت بقايا الآلان أن تندمج في الوندال الاسدنجيين . ولما احست روما بأن القوط الغربيين اصبحوا قوة اكثر مما ينبغي استدعتهم من اسبانيا ومنحتهم الاراضي في اكويتين . وفي الوقت نفسه لجأت روما إلى السويفي لضرب الوندال والآلان ،ونجحت عناصر السويفي في مهمتها ودفعوا بالوندال والآلان

إلى جنوب اسبانيا حيث اعادوا جمع شملهم مرة اخرى وصدوا جنود الرومان ، كما نجحوا ايضا في اسقاط المدن الساحلية الحصينة بفضل ضرباتهم القوية التي انهالت على المدن من البر والبحر حتى سقطت أشبيلية Seville وقرطاجنة Cartagena ونهبوها .

وفي عام ٤٢٨ م اصبح جيسريك Gaiseric ملكا على الوندال ، ويعتبر جيسريك ٤٢٨ - ٤٧٧م من اعظم شخصيات عصره ، فقد كان سياسيا بارعا فاق كل زعماء البرابرة عدا ثيودريك وكلوفس ، فضلا عن كونه محاربا شجاعا لا يجد الخوف إلى قلبه سبيلا ، فهو الذي ادار دفة غزو افريقية . فقد كان الساحل الافريقي غير مستقر الاحوال حيث كانت الثورة قائمة بين سكانه البربر Moorish ، يضاف إلى هذه الثورة ما أضافه المذهب الدوناتي المسيحي من انشقاق ، هذا في الوقت الذي لم يكن لدى القائد الروماني بونيفاس Boniface القوات الكافية لصد أي غزو عليه .

أما عن أسباب غزو الوندال للساحل الافريقي فيرى البعض أن القائد الروماني بونيفاس استدعى الوندال بعد ما استبدت به الغيرة من ايتيوس وهو قائد روماني أيضاً قربته الامبراطورة جالا بلاصديا إليها، ولكن بونيفاس ندم على استدعاء الوندال وحاربهم.

وعلى أية حال قاد جيسريك في عام ٤٢٩م الوندال وكان عددهم حوالي ثمانين ألفاً وعبر مضيق عمودي هرقل (جبل طارق) ونزلوا بالساحل الشمالي الأفريقي وتحالفوا مع قبائل البربر وهزموا القائد الروماني بونيفاس في معركة ضارية وحاصروه في مدينة هيبو Hippo الساحلية أربعة عشر شهراً، ورفض القديس أوغسطين الذي كان اسقفا لتلك المدينة أن يغادرها والهب شجاعة سكانها بعظاته ، وانقذته وفاته في عام ٤٣٠ م من أن يكون شاهد عيان لهزيمة جديدة تلحق بالقائد الروماني بونيفاس. واخيرا سقطت مدينة هيبو واضطر الرومان إلى التخلي عن الساحل الافريقي عام ٤٣١ م. وبعد أربع سنوات (٤٣٥ م)

اعترف الامبراطور فالنتينيان بموجب معاهدة بقيام مملكة الوندال . وكانت هذه هي الدولة الثالثة التي يؤسسها البرابرة ولم يقدر لها أن تعمر طويلاً .

وعلى أية حال فقد كان لمؤسسها بعض الأفكار الجيدة وظهرت عبقريته في الافادة من مميزات وضعه الجديد ، فاستولى على قرطاج في عام ٤٣٩ م ، وحاول بعث القوة البحرية التي كانت هذه المدن قاعدتها . وبنى الوندال السفن وشيدوا قوة بحرية واستولوا على جزر كورسيكا وسردينيا وجزر البليار ، وأخذوا يغيرون على سواحل تسكانيا وبحر ايجة ، وبعبارة اخرى اخذ جيسريك يتحدى القسطنطينية كما فعل مع روما وأصبح سيد البحر المتوسط .

ونتيجة الغزو الوندالي للساحل الافريقي فقدت الامبراطورية الرومانية جزءا هاما من اراضيها كان يمدها بالغلال فضلا عن ضياع الجزية . والمهم أن دولة الوندال قد نمت وزادت قوتها خاصة بعد بناء البحرية الوندالية . ولكن الوندال عاشوا اغرابا في هذه المنطقة لاعتناقهم المذهب الاريوسي المخالف لمذهب أهل المنطقة الذين دانوا بالمذهب الاثناسيوسي الذي دانت به روما والمذهب الدوناتي الذي دان به جانب من سكان الشمال الافريقي .

وجاءت الفرصة للوندال لضرب روما عام ٤٥٥ م وترجع هذه الأحداث إلى مصرع الامبراطور فالنتيان الثالث على يد احد اعضاء مجلس الشيوخ ويدعى بترونيوس Petronius الذي أجبر الامبراطورة الأرملة يودوكسيا Eudoxia على الزواج منه ، فسرعان ما طلبت يودوكسيا مساعدة الوندال ، فتحرك الوندال عبر البحر لمساعدتها وحاصروا روما ، ولم تنجح محاولات البابا ليو الأول Leo I (٤٤٠ - ٤٦١ م) في انقاذ المدينة وابيحت روما للنهب لمدة اربعة عشر يوما بطريقة بربرية أصبح معها اسم الوندالية Vandilism يطلق على كل تخريب يتم فيه التدمير لاشباع رغبة التدمير فقط . وقد حكم جيسريك البحر المتوسط بعد ذلك عشرين عاماً متحدياً الامبراطوريتين ومات في عام ٤٧٧ م وماتت معه عظمة شعبه ، لأن مملكة

الوندال قد مزقتها الخلافات الدينية وثورات البربر وأخيراً سقطت على يد القائد البيزنطي بلزاريوس Belisarius في عهد الامبراطور جستنيان الأول عام ٥٣٤ م.

قبائل الهون

كان من سياسة جيسريك ملك الوندال تحريض شعوب البرابرة للانقضاض من كل جانب على الامبراطورية التي كان القائد الروماني ايتيوس يحاول أن يستعيد فيها بعض السلطة والنظام. وكان من الذين لبوا هذه الدعوة في هذه المرحلة قبائل الهون تدفعهم بعض العوامل الأخرى.

والهون من القبائل البربرية الذين فاقوا في الارهاب وبث الرعب جميع العناصر التي تعاملت مع الامبراطورية وأثارت الخوف والاضطراب في المناطق التي مرت بها. وأثناء تحركات الهون توقفوا في وسط اوروبا زهاء نصف قرن من الزمان واضعين تحت نيرهم القوط الشرقيين والجبيدي Gepide وقبائل الماركوماني Marcomanni وسلاف الجنوب. وكان يحكمهم أتيلا Attila ابن مونذزوك Mundzuk،وكان الرمز الديني للهون خنجر مغروس في الأرض. وتقول الاسطورة أن أحد الرعاة عثر على خنجر كثير الصدأ في حقل كانت ترعى فيه ماشيته فحمله إلى أتيلا الذي اعتقد أنه خنجر اله الحرب، وأن العثور على هذا الخنجر بهذه الصورة يشير بأن أتيلا سوف يغزو العالم. وتضيف الاسطورة أنه منذ ذلك الوقت رغب أتيلا (٤٣٣ ـ ٤٥٣ م) أن يحكم الهون بمفرده فأمر بقتل شقيقه بلدا Bleda وقد بدا اتيلا في أعين شعبه الهاً مقدسا وسمى نفسه « سوط الاله » مضيفا إلى ذلك أن الحشائش لا تنمو في الأرض التي تطؤها فرسه، ولعل ذلك يشير إلى كثرة الدمار والخراب الذي تحدثه تحركات قواته.

وعلى أية حال فقد بدأت تحركات الهون ضد الامبراطورية عندما قام اتيلا بهجوم مضلل ضد الجانب الشرقي من الامبراطورية لجبر الامبراطور

ثيودوسيوس الثاني على سحب قواته التي أرسلها لمحاربة جيسريك الوندالي الذي حرضه على مثل هذا العمل . وعبر أتيلا الدانوب بالقرب من مارجوس Margus ودمر العديد من المدن ذكر البعض أنها سبعون مدينة ، ولم يجبر الإمبراطور على سحب قواته من الجبهة الوندالية فحسب، بل على زيادة قيمة الجزية التي تدفعها الامبراطورية للهون وأن تتخلى الامبراطورية للهون عن الضفة اليمنى لنهر الدانوب .

بعد هذه الاحداث لجأ الامبراطور الشرقي ثيودوسيوس إلى التآمر على اغتيال اتيلا واعتقد أنه نجح في ضم وزيره إدكون Edecon إلى جانبه . وعلم اتيلا بهذه المؤامرة في الوقت الذي كان لديه بعض سفراء الرومان في قصره الخشبي في بانونيا Pannonia ، ولكنه تصرف على عكس ما كان متوقع ،واكتفى بتوجيه اللوم للامبراطور على تآمره ضد سيده كعبد سيء . وعقب وفاة ثيودوسيوس الثاني عام ٤٥٠ م، وجد اتيلا في خلفه مارقيان Marcian ٤٥٠ - ٤٥٧ م عدوا جسورا فقد أعلن أن لديه ذهبا لاصدقائه وسيفا لأعدائه .

ولم يكن أتيلا بالرجل الذي توقفه كلمات التهديد، ولما كانت القسطنطينية مدينة منيعة وحصينة قرر أن يوجه الضربة إلى مكان آخر، واتجه إلى بلاد الغال على رأس قواته التي قدرها البعض بحوالي ستمائة ألف وعبر نهر الراين وسلب ونهب ثم عبر نهر الموزل Moselle والسين وسار إلى مدينة أورليانز Orleans ، ولاذ الناس بالفرار أمامه في رعب وذعر لا يوصفان ، لأن أتيلا لم يترك حيثما مر لبنة على أخرى أو حجرا على حجر . ولم ينج من مدن هذه المنطقة سوى مدينة تروي Troyes بفضل مساعي أسقفها القديس أنيانوس Anainus ، الذي رفع الروح المعنوية للسكان .

وعندما كان اتيلا في أورليانز شوهدت سحابة ترابية في الأفق فظن الناس أن الله قد استجاب لدعواتهم وأنها مساعدة الله ، والحقيقة أن الذي أتى هو القائد الروماني ايتيوس الجرماني الاصل ومعه القوات الرومانية

وحلفاؤه من القوط الغربيين بقيادة ثيودريك والسكون والبرجنديون والفرنجة .

تراجع اتيلا في البداية أملا في أن يختار ميدانا للقتال أكثر ملاءمة لفرسانه وتوقف بالقرب من شالون Chalons حيث دارت معركة عام ٤٥١ م انتهت بهزيمة الهون ، هذه الهزيمة التي انقذت الغرب من سيطرة قبائل الهون . وكانت معركة رهيبة انتشر في ارضها جثث مائة وستين ألف رجل على حد تقدير بعض المؤرخين .

بعد هذه الهزيمة انسحب اتيلا وعاد إلى معسكره الذي احاطه بسور من المركبات . ويقول جوردانس Jordanes (عاش في القرن السادس الميلادي) القوطي ومؤرخ هذه المعركة، « ورأى المنتصرون وسط هذا المعسكر كومة هائلة مصنوعة من سروج الخيول ، وفوقها وقف اتيلا وتحته الهون والمشاعل في ايديهم مستعلون لاشعال النار فيها اذا اقتحم الاعداء حصونهم ، وهكذا فإن أسدا يتعقبه الصيادون حتى مدخل عرينه يقف مرة اخرى ويخيفهم بزئيره » ولم يجرؤ ايتيوس وحلفاؤه على التقدم. وعاد اتيلا وقواته إلى المانيا في العام نفسه ٤٥١ م.

وفي العام التالي ٤٥٢ م عوض اتيلا نفسه عن الهزيمة بغزو ايطاليا العليا فدمر وخرب اكويليا التي التجأ سكانها إلى البرك المجاورة حيث أنشأ ابناؤهم مدينة البندقية ، وتحولت بادوا Padua إلى رماد وخضعت له بعض المدن مثل فيرونا وبافيا وميلانو . وفي قصر ميلانو شاهد اتيلا صورة تمثل الامبراطور جالسا على العرش ورئيس الهون ساجدا أمام قدميه ، فأمر الرسام أن يضع ملك الهون على العرش والامبراطور ساجدا تحت قدميه حتى تكون الصورة أقرب إلى الحقيقة .

وفي الوقت نفسه لم يكن لدى الايطاليين جنوداً يدافعون عنهم فخاطر البابا ليو الأول بحياته في سبيل انقاذهم ، وذهب إلى معسكر اتيلا مع مندوبي الامبراطور وسلم إليه كل ما طلبه من الهدايا ووعد بدفع الجزية ،

وعندما سمع بيلا ماقرات ايتيوس براجع إلى بلاده ، في الوقت الذي انتشر وباء الطاعون في جيشه فأفنى منه الكثير .

وبعد بضعة اشهر مات اتيلا في قريته الملكية بالقرب من الدانوب عام ٤٥٣ م ، والتت الشعوب التي اخضعها النير عن نفسها ، ودخل زعماء الهون في صراع دموي من أجل الحصول على التاج مما قلل من أعدادهم وتبددت قوتهم مثل تلك الاعاصير الهوجاء التي تزول ولا تترك وراءها سوى آثار الدمار والخراب .

نهاية الامبراطورية الغربية

بعد وفاة بتروتيوس عام ٤٥٥ م تولى عرش الامبراطورية في روما افيتوس Avitus ٤٥٥ - ٤٥٦ م بتدخل من القوط الغربيين ثم تدخلت عناصر السويفي وعينت ماجوريان Majorian خلفا له ٤٥٧ - ٤٦١ م، واخذ البرابرة يتصرفون في الامبراطورية الغربية كما يشاءون ولكنه خجلوا من تولى منصب الامبراطور .

وبدأ ماجوريان النبيل الخلق وسط هذا الفساد الذي يحيط بالامبراطورية داخلياً وخارجياً، ورأى أن يبدأ بضرب الوندال في الساحل الافريقي فجمع اسطولا لهذا الغرض ولكن هذه الاستعدادات لم تصل إلى نهايتها فدمرت ، ولعل ذلك مرجعه إلى تواطؤ بعض قواده مع الوندال . فعاد ماجوريان من أسبانيا إلى ايطاليا كسير القلب ثم ما لبث أن اغتيل .

تولى بعد ماجوريان ثلاثة اباطرة هم سفريوس Severus ٤٦١- ٤٦٥ م، وأنثيموس Anthemius ٤٦٧ - ٤٧٢ م واوليبريوس Olybrius ٤٧٢ م . ولكنهم كانوا اشباح اباطرة ، ونلاحظ أن العرش الروماني في روما ظل خاليا لبعض الوقت في هذه المرحلة كما حكم جليسريوس Glycerius لمدة عام ٤٧٣ م وجوليوس نبوس Julius Nepos لمدة عام ايضا ٤٧٤ ، وأخيرا أعطى اورستس البانوني The Pannonian Orestes

صولجان الامبراطورية لولده رومولوس أوجستولوس Romulus Augustulus وهو طفل لم يناهز السادسة من عمره وقد جمع في اسمه ما بين مؤسس روما ومؤسس الامبراطورية .

وإذا القينا نظرة عامة على الامبراطورية الرومانية الغربية في هذه المرحلة نلاحظ أنه قد تم ضياع الكثير من أجزائها، فقد تراجع الرومان من انجلترا وتغلب الوندال على الساحل الافريقي وسيطر القوط الغربيون على أجزاء من غرب اوروبا كما استقر البرجنديون في جانب من غالة . أما الألمان فقد اتخذوا من الراين الأعلى مستقرا لهم ، واتخذ الفرنجة من الراين الادنى موطنا . وآذنت كل هذه التطورات بنهاية الامبراطورية في الغرب . والحقيقة أن مظاهر الانحلال تفاقمت تفاقما ملحوظا في هذه المرحلة وشمل الاضطراب كافة ارجاء الامبراطورية الغربية .

وفي هذه الاثناء ظهر أودواكر احد زعماء قبائل الهيرول الذي منحته الامبراطورية مستقرات في الأراضي الايطالية . ودخل اودواكر في عام ٤٧٦ م العاصمة رافنا وعزل الامبراطور رومولوس ونفاه خارج ايطاليا . وبعزل امبراطور الغرب اصبح امبراطور الشرق - الامبراطور البيزنطي - زينو Zeno ، ٤٧٤ - ٤٩١ م الامبراطور الأوحد الممثل للسلطة الرومانية التقليدية . وقد اعترفت الجماعات الجرمانية التي نزلت في الغرب الاوروبي وأسست لنفسها دولا وممالك بسلطان الامبراطور البيزنطي وان كان سلطة اسمية . والمهم ان الغرب الاوروبي ظل منذ عام ٤٧٦ م والكرسي الامبراطوري شاغرا حتى عام ٨٠٠ م عندما نصب شارلمان امبراطورا على الغرب الأوروبي .

الفصل الخامس

الموجة الثانية من غزوات البرابرة

- الفرنجة
- القوط الشرقيون
- الانجلوسكسون
- أهم نتائج الغزوات الجرمانية

لقد رأينا أن البرابرة الجرمان دمروا في موجة الغزو الأولى أكثر مما شيدوا ، فالبعض منهم امثال الاريك واتيلا لم يخلفوا وراءهم شيئاً سوى الخرائب والدمار ، وآخرون أمثال واليا وجيسريك نجحوا في اقامة ممالك لم يقدر لها البقاء طويلاً ، والآن ندخل في عصر آخر للغزوات الجرمانية استطاع بعضها أن يقيم دولا أكثر ثباتاً ودواما على أنقاض الامبراطورية الممزقة .

الفرنجة Franks

يبدأ التاريخ يحدثنا عن الفرنجة في منتصف القرن الثالث الميلادي عندما هزمتهم جيوش الامبراطورية بالقرب من مدينة ميتز Mains واستقرار الفرنجة البريون على منحدرات الراين الغربية بعد ذلك بنحو مائة وخمسين عاماً بعدما استولوا على مدينة كلوني Cologne عام ٤٦٣م ، واتخاذها عاصمة لهم ، كما نجحوا أيضاً في مد نفوذهم على وادي الراين من مدينة اكس لاشابل (آخن) Aachen حتى مدينة متز Metz . كما بقيت بعض قبائل الفرنجة على ضفة نهر الراين الشرقية واطلقوا إسمهم على هذه المنطقة فعرفت باسم فرانكونيا Franconia . ولعل الفرنجة البحريون (الساليون) The Salic,Franks قد اشتقوا اسمهم من نهر سالا Sala الذي يحمل الآن

إسم إجسيل Ijssel في الأراضي المنخفضة . وانتشروا من هذا الاقليم جنوبا وغربا . وفي عام ٣٥٦ م سيطروا على الاقليم الممتد من نهر السوم Somme ونهر الميز Meuse . وكان انتشارهم سلمياً بطريق الهجرة . كما ان الامبراطورية الرومانية كانت تدعوهم لتعمير الارض القليلة السكان . وهكذا بالهجرة والإستدعاء استقر الفرنجة في الجزء الشمالي من غالة قبل حلول عام ٤٣٠ م .

ويصف الفرنجة الساليون أنفسهم في مقدمة القانون السالي بأنهم الشعب المجيد الحكيم النبيل القوي الجسم الجميل الجريء ، كما أنهم لم يعتبروا أنفسهم برابرة بل كانوا يقولون أنهم احرار حصلوا على حريتهم بقوة السلاح . وان كلمة Franks تعني الحر الذي نال حقوقه السياسية . وكانوا طوال القامة شقر الوجوه ، يلفون شعرهم الطويل ويتركونه يسقط من رؤوسهم بطريقة تشبه ذيل الحصان ، يحلقون لحاهم ويطلقون شواربهم ويلتف حول وسطهم احزمة من الجلد يلقون فيها بسيوفهم وبلطهم الحربية . وكان جميع الرجال جنودا محاربين تعلموا فنون الحرب منذ صباهم .

ويمثل الفرنجة حلقة هامة في تاريخ الغزوات الجرمانية للغرب الأوروبي فإن دولتهم حققت بقاء طويلاً ، كما أنهم نجحوا في مزج مقومات الحضارة الرومانية مع خصائص وتقاليد الفرنجة الاصيلة على نطاق واسع . ويمكن تحديد تاريخ دولة الفرنجة بسنة ٤٣١ م كبداية لها وهي السنة التي هاجم فيها ملكهم كلوديو Chlodio مدينة كلوني، وان كان البعض يحددها بعام ٤٨٢ م ، وهي السنة التي بدأ فيها حكم الملك كلوفس Clovis ، وسنة ٩١١ كنهاية لها ، وهي السنة التي بطل فيها استخدام لقب امبراطور بين حكام الفرنجة . ويمكننا من باب التيسير على دراسة تاريخ الفرنجة أن نقسم تاريخهم الى قسمين :

أولاً : الدولة الميروفنجية نسبة إلى مروفك Merovech الجد الأكبر للفرنجة وتمتد من عام ٤٣١ م أو ٤٨٢ إلى عام ٧٥١ م .

ثانياً : الدولة الكارولنجية ، ويلمع من بين حكامها الامبراطور شارلمان ويمتد عصرها من سنة ٧٥١ م حتى سنة ٩١١ م .

وفيما يتعلق بالدولة الميروفنجية ، فأول ما يطالعنا من ملوكهم المعروفين هو كلوديو الذي هاجم مدينة كلوني عام ٤٣١ م وانهزم على ايدي القوات الرومانية بقيادة ايتيوس . وان كان كلوديو فشل في الاستيلاء على كلوني فإنه نجح في السيطرة على الجانب الشرقي من غالة حتى نهر السوم غربا واتخذ مدينة توروناي Tournai عاصمة له . وخلف كلوديو على العرش ملك اخر يدعى مروفك (ابن البحر) ، ولعل ذلك مجرد خرافة ولكن اسمه التصق بالدولة فعرفت بإسم الدولة الميروفنجية. وقد أغوى مورفك هذا ابنة شيلدريك Childeric وتدعى باسينا Basinaالتي كانت زوجة احد الملوك الثورنجيين Thuringian ، فجاءت إليه لتصبح ملكة بعدما فتنت به ووصفته بأنها لا تعرف رجلا احصف منه عقلا ، أو اقوى منه جسما أو أدمث منه خلقا . وأنجبت باسينا من زوجها مروفك كلوفس الذي حكم الفرنجة من عام ٤٨٢ حتى عام ٥١١ م والذي يعتبر أقوى شخصيات عصره والمؤسس الحقيقي لدولة الفرنجة .

كلوفس Clovis ٤٨٢ - ٥١١ م :

ورث كلوفس عرش الميروفنجيين في عام ٤٨٢ م وكان وقتئذ في الخامسة عشر من عمره . ولم تكن مملكته تشغل إلا ركنا من أركان غالة ، فقد كان هناك قبائل أخرى من الفرنجة تحكم أرض الراين ، كما كانت مملكتا القوط الغربيين والبرجنديين القائمتين في جنوب غالة قد استقلتا تماما بعد سقوط روما ٤٧٦ م . أما الطرف الشمالي من غالة فكان خاضعاً للامبراطورية الرومانية وكان ضعيفاً لا يجد من يدافع عنه ، ويتولى قيادة القوات الرومانية فيه سياجريوس Syagrius.وقد استهل كلوفس حكمه بغزو هذا الاقليم واستولى على كثير من مدنه وأسر عدداً من أكابر رجاله ، ثم أطلق سراحهم مقابل الفدية وباع الغنائم والجند والمؤن والاسلحة . وفي عام ٤٨٦ م زحف على مدينة سواسون Soissons وهزم القوات الرومانية وقائدها سياجريوس الذي فر بعد الهزيمة إلى الاريك الثاني ملك القوط

القربيين (٤٨٥ - ٥٠٧ م) في مدينة تولوز . وقد طلب كلوفس من الاريك أن يسلمه سياجروس وإلا زحف بقواته عليه، وأذعن الاريك للامر وسلم سياجروس إلى كلوفس الذي سجنه في أول الأمر حتى سيطر على كل ممتلكاته، ثم أمر بقتله سراً في نهاية الأمر . وبسقوط مدينة سواسون يسقط آخر ظل للامبراطورية في الغرب الاوروبي .

استولت قوات كلوفس بعد هزيمة القوات الرومانية على كل ما وقع تحت ايديها ونهبت ما وقع عليه بصرها حتى دور العبادة والكنائس لم تسلم منهم، لأن كلوفس وقواته كانوا لا يزالون يدينون بالديانة الوثنية . ويروي المؤرخ جريجوري التوري Gregory Of Tours في كتابه تاريخ الفرنجة The History of the Franks أن جنود الفرنجة نهبوا من بين ما نهبوا إبريقاً كبير الحجم دقيق الصنع مع بعض الاشياء الاخرى النفيسة التى كانت تستعمل في احدى الكنائس . واستاء أسقف الكنيسة لذلك وأرسل إلى كلوفس الرسل يطلب منه إعادة المنهوبات، وإن لم يتمكن فعليه أن يعيد الابريق على الأقل . ووافق كلوفس على طلبهم وطلب منهم أن يتبعوه إلى مدينة سواسون حيث يتم توزيع الغنائم ووعدهم برد الابريق اذا كان ضمن نصيبه الشخصي من الغنائم . وفي سواسون طلب كلوفس من رجاله أن يدلوه على الابريق فوجدوه ضمن نصيب كلوفس .ولكن كلوفس طلب استبعاد الابريق من الانصبة ليحصل على نصيبه كاملاً فوافق رجاله . ولكن أحد الجنود الثائرين لم يرض عن هذا التصرف فرفع بلطته الحربية وحطم الابريق، واغتاظ كلوفس ولكنه كتم غيظه وسلم الابريق على حالته لمبعوث الاسقف . ولكنه لم يغفر للجندي فعلته، ففي نهاية عام ٤٨٦ م دعا كلوفس قواته في استعراض كبير وطاف حول الجنود للتفتيش عليهم وعندما وصل للجندي الذي حطم الابريق قال له « لا يوجد جندي غيرك أرى معداته في حالة سيئة مثلك ، فإن رمحك غير مثبت وكذلك سيفك وبلطتك » وأمسك كلوفس ببلطة الجندي والقى بها على الأرض وعندما انحنى الجندي ليلتقط بلطته من على الأرض رفع كلوفس بلطته الحربية

وطوح بها في الهواء ونزل بها على رأس الجندي فهشمها وقال « هذا ما فعلته بإبريقي في سواسون»، فمات الرجل على الفور. أما الجنود الذين شاهدوا ذلك وتملكهم الفزع، فقد أمر كلوفس بطردهم من الخدمة العسكرية . والمهم أن ما نستخلصه من ذلك هو حسن معاملة كلوفس لرجال الدين رغم وثنيته،وسيكون لذلك أحسن النتائج في تاريخ الفرنجة بعد ذلك .

اعتناق كلوفس للديانة المسيحية :

يرجع الفضل الأكبر لاعتناق كلوفس الديانة المسيحية إلى زوجته كلوتلدا Clotilda. ومؤرخنا حول هذه الوقائع هو جريجوري التوري أيضاً. فقد كانت كلوتلدا ابنة الملك البرجندي شلبريك Chilperic، وقد أخبر كلوفس عنها مبعوثوه الذين كانوا يترددون على البلاط البرجندي . وقد لاحظ هؤلاء المبعوثين أن كلوتلدا فتاة لطيفة صغيرة السن وانها ذكية لدرجة كبيرة وانها ناضجة عقليا بدرجة تفوق سنها . وقد أرسل كلوفس الذي لم يكن شاهدها حتى ذلك الوقت إلى أبيها يطلب منه زواجها ، ولم يكن أمام ابيها سوى الموافقة خشية ما ينزل به من جراء الرفض، فسلمها إلى المبعوثين الذين قدموها بدورهم إلى ملكهم كلوفس الذي بهر بها . وتزوجها رغم أنه كان لا يزال وثنيا وهي مسيحية الديانة .

وقد وضعت كلوتلدا طفلها الأول وكان ولدا ، وكانت ترغب أن يشب الطفل مسيحيا وأن يتم تعميده ، وظلت تلح على كلوفس مقنعة إياه بالديانة المسيحية مسفهة من الديانة الوثنية. واستعملت شتى سبل الاقناع وقرأت لزوجها بعض آيات الانجيل حتى يلين قلبه ، وفي نهاية الأمر وافق كلوفس على تعميد ابنه وأن يظل هو على وثنيته . وتعمدت الملكة الام أن تقيم حفلاً كبيراً في الكنيسة يوم تعميد ابنها لعل شعائر الكنيسة ووقارها وما يتجلى في مثل هذه المناسبة من إيمان يلين قلب زوجها ويعتنق المسيحية . وفي اليوم المحدد تم تعميد الطفل وسمى انجومر Angomer ولكن الطفل توفي على الفور،وكان لا يزال في رداء التعميد . وحزن

كلوفس والقى باللوم على زوجته وقال « لو أن الطفل كرس لآلهتي لظل على قيد الحياة » .

وبعد بعض الوقت وضعت كلوتلدا ولداً آخر ، وعمد تحت إسم شلودومر Chlodomer ، ولكن الطفل مرض بعد ذلك ولام كلوفس زوجته وتوقع له الموت مثل أخيه ، ولكن الملكة دوامت على الصلاة والدعاء لابنها بالشفاء . واثناء ذلك نشبت الحرب بين الفرنجة والألمان ودارت معركة رهيبة بين الطرفين كادت تهزم فيها قوات كلوفس . ويروى جريجوري التوري أن كلوفس عندما شاهد ذلك شعر بالندم ورفع عينه للسماء وهو يبكي وقال كما لو كان يخاطب السيد المسيح « انت الذي عانيت لتقدم المساعدة للمحتاجين والنصر لمن يثقون فيك ، أسألك المجد بمساعدتك ، واذا اعطيتني النصر على اعدائي . . . فإني اصدقك وسأعمد باسمك واتخلى عن آلهتي . . . . اني اناديك وأريد أن أؤمن بك فنجني من اعدائي أولا . . . . » ويضيف جريجوري انه عندما نطق كلوفس بهذه الكلمات استدار الالمان وبدأوا في الفرار بعدما لقى ملكهم مصرعه . فخضع الألمان لكلوفس وتوسلوا اليه لايقاف المذبحة وانهم على استعداد للدخول في طاعته ، فوافق كلوفس وتوقفت الحرب وعاد الى منزله ليخبر زوجته بالنصر الذي احرزه باسم المسيح .

وأمرت كلوتلدا باستدعاء رميجيوس Remigius اسقف مدينة ريمس Rheims ليحضر سرا ليلقن الملك كلمات الخلاص، وتم بين الاسقف والملك مقابلة خاصة استمع فيها كلوفس لكلمات الاسقف وكان الملك ينصت اليه بكل اهتمام . وفي النهاية قال كلوفس للاسقف : إن شعبي سوف لا يوافق على تركي عبادة الاوثان ، فدعني أنظم لك لقاء مع رجالي لتقول لهم ما قلته لي . وقد تم اللقاء، ويتضح من النصوص التاريخية التي تركها لنا جريجوري التوري أن رميجيوس قد بشر بالديانة المسيحية بين رجال كلوفس دون علمه وانهم على استعداد لاعتناق المسيحية ، فما أن تم اللقاء حتى صاح جميع رجال كلوفس صيحة واحدة ، قائلين « سنقلع

عن عبادة الالهة الفانية يا ملكنا التقي ، ونحن على استعداد لاتباع الاله الخالد الذي بشر به رميجيوس » . وعلى ذلك اعدت حفلات التعميد وعمد كلوفس في عام ٤٩٦م، وعمد في اليوم نفسه الذي عمد فيه كلوفس اكثر من ثلاثة آلاف من رجاله ، وسيكون لاعتناق كلوفس المسيحية على المذهب الاثناسيوسي اثاره الطيبة على مملكة الفرنجة فيما بعد .

خصائص عصر كلوفس وعصر الفرنجة الأول :

ويتميز عصر كلوفس وعصر الفرنجة الاول بأكمله بعدة خصائص رئيسية يمكن حصرها في النقاط التالية :

أ ـ عدم مبالغة الفرنجة في العنف أو الاساءة إلى أهالي البلاد الاصليين ، وقد ساعد ذلك على التقارب والمزج بين الفرنجة وسكان البلاد الاصليين للاراضي التي فتحوها .

ب ـ كان لاعتناق كلوفس المسيحية على المذهب الاثناسيوسي من أهم العوامل التي ساعدت على التقارب بين الفرنجة واهل البلاد الأصليين، كما اكسب الفرنجة أيضا عطف الاهالي الاصليين وتآلفهم في البلاد التي حكموها ، كما مهد ذلك أيضاً للتحالف والتقارب الذي قام بين الفرنجة والبابوية في الفترة التالية من حكم الفرنجة ، هذا التحالف الذي كان من أهم مظاهره تتويج البابا لشرلمان الفرنجي الاصلي وجعله امبراطوراً للغرب الاوروبي عام ٨٠٠ م .

جـ ـ تتميز أيضاً هذه الفترة التي نحن بصددها بحركة توسعية خارجية للفرنجة ، ففي الواقع أن هذه العناصر لم تعمد إلى الهجرة من مكان إلى آخر على النحو الذي فعلته العناصر الجرمانية الاخرى كالقوط على سبيل المثال ، بل انهم تمركزا في موطنهم الاصلي عند الراين الادنى ، وتوسعوا أو بمعنى آخر تمددوا من هذا المكان الى الاقاليم المجاورة . وقد ترتب على ذلك احتفاظ الفرنجة بأصولهم الحضارية الجرمانية الاصلية فصلا عن حيويتهم . ومن الملاحظ أنه اثناء توسعاتهم قام الخلاف الديني بين

الفرنجة الاثناسيوسيين والعناصر الجرمانيه الاخرى الاريوسيه المذهب في غالة ، ومنها البرجنديون والقوط الغربيون وقد انتصر كلوفس في هذا الصراع الديني . والواقع أن كلوفس كان رجلا عظيما وتتجلى عظمته الكاملة فيما انجز من أعمال جليلة غيرت وجهة بلاد غالة في أقل من ثلاثين عاما .

حروب كلوفس :

بدأ كلوفس حكمه للفرنجة وعمره خمسة عشر عاما ومات وهو في الخامسة والاربعين اي ان حكمه امتد قرابة ثلاثين سنة . والتاريخ شاهد على أن كلوفس عاش هذه الفترة في حرب دائمة مع جيرانه من أجل اعلاء شأن دولة الفرنجة .

أ- حروبه مع الثورنجيين Thuringians

بعدما كان لكلوفس من حرب مع الالمان وانتصاره عليهم في عام ٤٨٦ م واعتناقه المسيحية على اثر هذا النصر الذي اعتقد انه يرجع الى فضل السيد المسيح، فإنه في عام ٥٩٢ م خاض حربا لا تشير النصوص التي تحت أيدينا إلى تفاصيلها وانما أشارت تلك النصوص إلى أن كلوفس نجح في إخضاع ثورنجيا لحكمه .

ب- حروبه ضد برجانديا :

كان يحكم برجنديا جندوبادGundobad (٤٨٠ - ٥١٦ م) وكانت المملكة تقع في المنطقة الواقعة حول نهر الرون والساؤن ومقاطعة مرسيليا . وكان جندوباد مسيحياً على المذهب الايوسي . وفي عام ٥٠٠ م كان الصراع بين جندوباد وأخيه جوديجيزلGodigisel على اشده مما هدد المملكة بخطر كبير . يضاف إلى ذلك أن جندوباد هذا قد قتل شلبريك والد كلوتلدا زوجة كلوفس واغرق أمها ونفى اختها الكبرى الأمر الذي جعل كلوتلدا تكن حقداً شديداً لجندوباد . وقد تهيأت الفرصة للملك كلوفس لقتال جندوباد عندما لجأ جوديجيزل إلى كلوفس- بعدما سمع عن

انتصاراته ـ يطلب منه المساعدة للقضاء على أخيه جندوباد سواء بالقتل أو بالطرد من المملكة ، وذلك نظير الجزية التي يحددها كلوفس . واختار كلوفس الوقت المناسب وسير جنده لقتال جندوباد الذي لم يكن يعلم شيئاً عن خيانة أخيه . وعندما أحس جندوباد بالخطر أرسل إلى أخيه جوديجيزل يطلب منه المساعدة ضد غزو كلوفس ويطالبه بتكوين جبهة واحدة ضد الغزو الأجنبي . وخدعه جوديجيزل ووعده بالقدوم لمساعدته ، ولكنه أعد جيشاً وانضم إلى كلوفس . والتقى الجميع عند مدينة ديجونDijon الواقعة غرب السلؤون بحوالي عشرة أميال ، وثلاثين ميلاً إلى الشمال من مدينة شالون . وفي هذه المعركة هزم جندوباد الذي لاذ بالفرار عندما علم بخيانة أخيه واتخذ من مدينة افنيونAvignon ملجأ له . وبعد هذه المعركة دخل جوديجيزل مدينة فيينا عاصمة البرجنديين آنذاك ليحكم بدلاً من جندوباد ، أما كلوفس فقد عزز قواته وسار بها في أثر جندوباد . فخاف جندوباد وشعر أنه هالك لا محالة .

كان جندوباد رجلاً واسع الحيلة ، فسبل طريقاً آخر غير طريق الحرب عندما أحس بعجز قواته عن الصمود أمام قوات الفرنجة، بعد ما تخلى عنه أخيه . وقد كان يرافق جندوباد أحد خواصه المقربين يدعى أريديوس Aridius الذي يمتاز بقوة الحيلة والدهاء . فاستدعاه جندوباد وطلب منه معالجة الموقف باستعطاف كلوفس . ولكن أريديوس عرض عليه فكرة أخرى تتلخص في أن يهرب اريديوس إلى كلوفس وينحاز إلى جانبه، وهناك يستطيع تقدير الموقف ويتصرف طبقا لذلك فوافق جندوباد . واتجه أريديوس إلى كلوفس وعرض عليه خدماته فرحب كلوفس به واطمأن اليه . وفي الوقت الذي كان كلوفس يحاصر جندوباد في مدينة افنيون عرض أريديوس نصيحة على كلوفس ملخصها انه لا فائدة من الحصار طالما أن جندوباد في مكان حصين كما أنه لا فائدة أيضاً من أن تقوم القوات بتخريب الحقول واتلاف المروج وتقطيع الكروم واهلاك اشجار الزيتون فإن ذلك كله لا يضر جندوباد، واقترح أن يرسل إلى جندوباد إنذاراً نهائيا يطالبه بدفع

الجزية وبذلك يتم إخضاع الإقليم والحصول على الجزية . ووافق كلوفس وأرسل إلى جندوباد باقتراح الجزية الامر الذي وافق عليه على الفور ودفع جزية عام ٥٠٠ م ووعد بدفع جزية الاعوام التالية . وبعدما سوى جندوباد مشكلته مع كلوفس استدار إلى اخيه جودجيزل ونجح في القضاء على قواته وعاد إلى ملكه . ثم ما لبث جندوباد أن اعتنق المسيحية ، فساعد ذلك على تدعيم السلام مع كلوفس،هذا فضلا عن اكتساب محبة الاهالي والكنيسة الغربية ، ولعل هذه الخطوة هي التي مهدت للتحالف بين كلوفس وجندوباد لضرب مملكة القوط الغربيين الاريوسية المذهب .

جـ - حروب كلوفس ضد القوط الغربيين :

كان يحكم القوط في ذلك الوقت الاريك الثاني (٤٨٥ - ٥٠٧ م) وكانت مدينة تولوز عاصمة لهم ، والاريك هذا هو الذي سلم سياجريوس إلى كلوفس بعد هزيمته الأولى في معركة سواسون عام ٤٨٦ م. وكان كلوفس يرغب في توحيد غالة بأكملها تحت سلطانه ولا يرضى ببقاء القوط يستقرون في جانب منها ، كما ضايقه أيضاً اعتناقهم المذهب الأريوسي. وبعد أن سوى مشاكله مع برجانديا ودانت بالولاء ودفع الجزية استدار كلوفس إلى القوط الغربيين . ويروي لنا المؤرخ جريجوري التورى أخبار هذه الحرب وإن كانت مليئة بالتمجيد في الملك الفرنجي كلوفس الذي راعى الديانة المسيحية الاثناسيوسية ورجال الكنيسة. ولكنه يمكن أن نستخلص منها أن وزراء كلوفس وافقوا على غزو القوط ، فاجتمع جيش كبير لهذا الغرض في عام ٥٠٧ م واتجه به إلى مدينة بواتيه في طريقه إلى تولوز عاصمة القوط . وتشير النصوص التاريخية أن اللقاء تم عند مدينة فوييه Vouille التي تبعد حوالي عشرة أميال من مدينة بواتيه ، مما يشير أيضاً أن القوط كانوا على علم بتحركات جيش كلوفس فأسرعوا للقائها . وفي مدينة فوييه التحم الجيشان وانزلت الفرنجة هزيمة ساحقة بالقوط الغربيين وقتل كلوفس الاريك في المعركة ، ولم يكن أمام القوط إلا الفرار . ويشير المؤرخ جريجوري التوري أن كلوفس كان على وشك الهلاك من جراء

رمح طائش قذفه أحد القوط ليقتل به زميلاً له كان يتلاحى معه . والمهم أن هزيمة كلوفس للقوط جعلتهم يندفعون عبر البرانس مخلفين وراءهم غالة تحت رحمة كلوفس ليصفي ما بقي فيها من الاملاك الرومانية ويخضعها لحكمه .

د ـ توحيد الفرنجة البحريون والبريون :

لم يكن كلوفس ملكاً على كافة الفرنجة ، بل كان ملكاً للفرع الأكبر من الفرنجة البحريون . وبعد انتصاره على كل من البرجنديين والقوط وتصفية أملاك الامبراطورية في غالة عمل على توحيد فرعي الفرنجة تحت سلطانه ، كما أنه نجح أيضاً في القضاء على الاسرات الفرنجية المنافسة له . ولم يدخر كلوفس وسعاً في تنفيذ ذلك واسهب المؤرخ جريجوري التوري في السبل التي لجأ إليها كلوفس، وأنه لجأ إلى قتل الكثير من أقاربه لتنفيذ ذلك ، وكان قتل كلوفس لاقاربه أمراً يثير في نفسه الحزن في أواخر أيام حياته .

علاقة كلوفس بالامبراطورية الشرقية :

بعد ما وصل كلوفس إلى هذه المنزلة في أوروبا الغربية لم يكن أمام امبراطور الشرق البيزنطي أناستاس الأول Anastasius I (٤٩١ ـ ٥١٨ م) سوى الاعتراف بكلوفس وأنابه عنه في الحكم ومنحه لقب « قنصل ». وفي مدينة تور عاصمة الفرنجة وفي كنيسة القديس مارتين وقف كلوفس برادئه الأرجواني وعباءته العسكرية ووضع التاج على رأسه ، ثم امتطى فرسه ونثر العملة الفضية والذهبية على الحاضرين وعلى من كانوا في الطريق من بوابة الكنيسة حتى كاتدرائية المدينة . ومنذ ذلك اليوم أصبح يدعى « القنصل »، ونقل مقر حكمه من مدينة تور إلى مدينة باريس ، وعلى ما يبدو أن هذا التشريف قد حدث في عام ٥٠٨ م على أثر انتصاره على القوط .

خلفاء كلوفس :

انتهت حياة كلوفس عام ٥١١ وعلى أثر ذلك قسمت مملكة الفرنجة بين أولاده الأربعة ثيودوريك Theuderic ، شلودومر Chlodomer ، شلدبرت Childebert ، لوثر Lothar ، وذلك جريا على عادة الجرمان في تقسيم ملوكهم لممالكهم بين أولادهم وكأنها أرث خاص بهم ، ومع ذلك فإن هذا التقسيم لم يوقف توسعات الفرنجة الخارجية . وأهم شخصية فى أولاد كلوفس هو لوثر الذي استمر حكمه حتى ٥٦١ م. وقسمت المملكة مرة أخرى بعد وفاته . ولكن في هذه المرة ظهرت الخلافات واضحة بين اقسام الدولة الأربعة، وهي، استراسيا ونوستريا اللتين تغلبا عليهما الطابع الجرماني، وبرجنديا واكوتين اللتين تغلبا عليهما الطابع اللاتيني . ومع هذا التقسيم الثاني ينتهي العصر الأول لتاريخ الفرنجة بما فيه من توسعات ، ليبدأ بعد ذلك عصر آخر يرتبط بحكم من يعرفون بنظار القصور Mayors of the Palace، وتأتي مرحلة أخرى بعد ذلك من تاريخ الفرنجة وهي الدولة الكارولنجية وسنتابع أحداثها في موضع آخر.

القوط الشرقيون :

وإذا كان كلوفس يعتبر المؤسس الحقيقي لدولة الفرنجة فهناك مؤسس آخر لدولة عظمى وهو الملك ثيودريك ٤٩٣ - ٥٢٦ م الذي كان من المع حكام عصره وفاق الملك الفرنجي كلوفس في الجانب الحضاري . وليس من الغريب أن يكون القوط الشرقيون متميزين عن البرابرة الآخرين باستعداد فريد لاعتناق الحضارة الرومانية . ولعل ذلك مرجعه إلى أن القوط عاشوا فترة طويلة من الزمن في إتصال مباشر بالامبراطورية .

وفيما يتعلق بالملك ثيودريك الذي بدا مختلفاً للغاية في عبقريته المتحضرة وفي سياسته ، فلا غرابة لأنه تربى في القسطنطينية حيث أخذ رهينة وهو في الثامنة من عمره .

وعندما تحررت كل الشعوب الخاضعة للهون على إثر وفاة اتيلا عام ٤٥٣ م تحرر القوط الشرقيون أيضاً ، وقد حكمهم ثلاثة امراء من أسرة الأماليين Amals وهم والامير Walamir ، ويدمير Widemir ، ثيودمير Theudemir ، وكان للأخير إبنا هو ثيودريك الذي ولد عام ٤٧٤ م. ونتيجة اقامة ثيودريك في بلاط الامبراطورية الشرقية تعلق بالامبراطور زينون الذي طالما دافع عنه ضد منافسيه .

وبعد ما عاد ثيودريك وتولى أمر القوط كان يضطر تحت تمرد واضطراب رعاياه إلى القيام ببعض الحملات الحربية، فقد كان يصرف انظارهم عن القسطنطينية التي كانوا يخططون للهجوم عليها . وقد فوضه الامبراطور زينون في الانقضاض على ايطاليا ومحاربه أودواكر بعد ما اصبحت ايطاليا تهم الامبراطورية الشرقية في هذه المرحلة .

إتجه ثيودريك إلى ايطاليا ومعه كل شعبه ، فقد سار وراء المحاربين العجائز والنساء والأطفال في المركبات مع كل الدواب وثروات القوط وقد بلغ عددهم على حد تقدير أحد المؤرخين مائتي ألف نسمة . وقد بدأت هذه الحركة في خريف عام ٤٨٨ م . وفي فبراير من العام التالي سحق القوط قبائل الجبيديين Gepidae والسارماتيين Sarmatians، ثم هزموا أودواكر في أكويليا وفيرونا عام ٤٨٩ م .

وعلى الرغم من انتصارات ثيودريك الثلاثة فقد حوصر في مدينة بافيا ووقع في مأزق حرج لم تنقذه منه سوى نجدة بعث بها القوط الغربيون من مدينة تولوز . وبفضل هذه المساعدة استطاع غزو كل منطقة كيزابلاين Cisapline ، فلجأ اودواكر إلى رافنا ، فحاصرها ثيودريك لمدة عامين نجح القوط الشرقيون خلالها في اخضاع كل ايطاليا ، كما استولوا على صقلية . وانتهى الأمر باستسلام اودواكر بشرط تقسيم المملكة ، ولكن ثيودريك أرسل من اغتاله وانفرد ثيودريك بحكم ايطاليا عام ٤٩٣ م، واعترف به الامبراطور البيزنطي أناستاس ملكاً على ايطاليا .

. وبدون حرب ضم ثيودريك كل من الليريا وبانونيا ونوريكوم Noricum ورايتيا Rhaetia إلى ايطاليا ، وبعد بعض العمليات العسكرية استولى على اقليم مرسليا من البرجنديين وخضع له البافاريون ودفعوا الجزية ، والتمس الشعب الألماني مساعدته ضد كلوفس . وأخيراً بعد وفاة الاريك الثاني عام ٥٠٦ م اعترف به القوط الغربيون ملكاً عليهم عندئذ كان أمالريك Amalric حفيد الاريك قاصراً، واستطاع أن يهزم جيشاً للفرنجة بالقرب من آرلس Arles عام ٥٠٨ ، وبذلك اعاد الى القوط الغربيين منطقة اكويتين نظير مساعدتهم له اثناء محاربته اودواكر . وتحقق اتحاد فرعي أمة القوط اللذين انفصلا لمدة طويلة ،واللذين اشتركتا حدودهما بالقرب من نهر الرون . وامتدت سيطرة ثيودريك من اعماق اسبانيا مروراً ببلاد الغال وايطاليا حتى مدينة سيرميوم Sirmium على نهر الساف.

وارتبط ثيودريك بالتحالف الأسري مع معظم الملوك البرابرة ، فقد تزوج شقيقة كلوفس ملك الفرنجة ، ومنح يد شقيقته لملك الونداك ، وابنة أخيه لملك الثورنجيين، وإحدى كريماته لملك القوط الغربيين والأخرى لملك البرجنديين ، وبدا ثيودريك كما لو كان زعيم البرابرة الذين استقروا في الامبراطورية الغربية .

كان ثيودريك أبعد من أن يكون بربرياً في أفكاره السياسية . لقد احترم الامبراطور الشرقي مما يدل على تقديره للامبراطورية العتيقة التي لا تزال جليلة رغم اضمحلالها، ولا تشن الحرب إلا إذا اجبرت على دخولها . كما كان ثيودريك ملكاً مسالماً ويستمر السلام استمراراً حسناً ، وهو الذي قال : ليجد الملوك الآخرون المسرة في نهب المدن واغراق أنفسهم بالغنائم الضخمة ، ولكن أرد أن تكون دولتي في حال تتحسر معها الشعوب المقهورة على تباطئها في التبعية لها .

وكان القوط يحتاجون للأرض ، ولما كانت كل مدينة ايطالية قد وزعت ثلث أملاكها على قبائل الهيرول التابعة للملك اودواكر ، فلم يفعل القوط أكثر من ان يحلوا محل هذه القبائل، ولم يترتب على هذا الاستبدال

أية معاناة لوجود ضياع كثيرة مهجورة . وقد وضع ثيودريك قانون عام للشعب القوطي والروماني ، ولم يستثن منه سوى التقاليد والاعراف التي احتفظ بها القوط . وكان القوط يدفعون الضرائب مثلهم مثل الرومان . وكانت المحاكم المختلطة للفصل في أي نزاع ينشب بين أي شخصين احدهما قوطي والآخر روماني .

وأنف ثيودريك أن يخص قومه بأي امتياز أمام القانون، وربما كان يفضل أن يختلطوا ويندمجوا بحرية مع السكان الأصليين. ولكن القوط استأثروا بمهنة الحرب، ومنعوا أولادهم من دراسة الأدب والفنون. أما الرومان فقد لجأوا إلى المدارس وانفردوا بشغل الوظائف المدنية، وعلى الرغم من ذلك كان ثيودريك سيداً على مملكته . ولم يكن لدى القوط جمعيات قومية مثل البرابرة الآخرين وإنما الحكم كان للملك وحده يعاونه في ذلك مجلس خاص .

وأجّل ثيودريك الحضارة الرومانية وطلب من الأمبراطور الشرقي أناستاس شارة التشريف الامبراطورية التي ردها أودواكر بازدراء إلى القسطنطينية ، وتخلى عن رداء البرابرة واستبدله بالعباءة الارجوانية رمز الرومان، ومع أنه كان يعيش في رافنا إلا أنه اعتاد على استشارة مجلس الشيوخ الروماني الذي كتب إليه يقول « إننا نتمنى أيها الآباء المجندون أن تبارك جمعكم عبقرية الحرية » .

وعندما أعاد ثيودريك تنظيم دولته عين قنصلاً للغرب وثلاثة ولاه على الأبرشيات وهي ابرشيه ايطاليا وروما وبلاد الغال . واحتفظ بالمجالس البلدية ولكنه كان يعين أعضاء المجلس بنفسه ، كما خفض الضرائب وكان قصره دائماً مفتوحاً للمتظلمين من جور القضاة، وأجبر فوستوس Faustus وهو أحد الولاه كما أجبر ثيوداهار Theadahar وهو ابن شقيق الملك على رد ما حصلا عليه . وعندما جاءته امرأة تشكو من عدم الفصل في قضيتها على الرغم من مرور سنوات ، استدعى ثيودريك القضاة وفصل في دعواها في أيام قليلة ، وعاقب القضاة لانهم لم ينجزوا القضية خلال ثلاث سنوات ، في حين انها لم تستغرق سوى ثلاثة أيام . وانتشر

رسل الملك في الأقاليم مسلحين بالتفويض الكامل حتى تتاح عدالة الملك وتصبح في متناول الجميع ، كما أقام شرطه حذرة واعية .

وهكذا أعاد زعيم بربرى إلى ايطاليا الرخاء الذي فقدته في ظل الأباطرة مؤخراً ، فرممت المباني العامة ، والقنوات المائية والمسارح والحمامات وشيدت القصور والكنائس وأصلحت الأراضي البور وأسست الشركات لتصريف مستنقعات بونتينPontine وسبوليتوSpoleto ، وتم استغلال مناجم الحديد في دالماشيا ومنجم الذهب في بروتيBruttii .

ووفرت دولة القوط الحماية للسواحل ضد هجمات القراصنة بانشاء عددا من السفن الصغيرة ، فزاد عدد السكان . ومع أن ثيودريك كان أمياً يجهل القراءة والكتابة إلا أنه جمع حوله ألمع رجال الأدب في عصره منهم بوئيثيوس Beothius والأسقف اينوديوس Ennodius وكاسيودوروس Cassiodorus ، وقد عين الأخير وزيراً للملك ثيودريك والف اثني عشر كتاباً أدبياً .

ومع أن ثيودريك كان اريوسي المذهب إلا أنه أحترم حقوق الكاثوليك منذ البداية ، وأكد الحصانة التي تمتعت بها كنائسهم وترك للشعب ورجال الدين في روما حرية انتخاب أسقفهم . كما حمى اليهود وكتب إلى رئيسهم يقول «إننا لا نستطيع أن تفرض الدين بالقوة لأنه ما من أحد يلتزم بالايمان رغم أنفه» وعندما قام الامبراطور جستين الأول Justin I (٥١٨ - ٥٢٧ م) بتعذيب الأريوسيين في الامبراطورية الشرقية هدد بالانتقام .

ورغم هذا الاتجاه الكبير في معظم المجالات فإن ما يؤخذ على ثيودريك أنه لما لاحظ حركة غير طبيعية بين رعاياه الايطاليين، اعتقد بأن مؤامرة ما تحاك ضده فحظر على الكاثوليك أن يحملوا أي نوع من السلاح واتهم عدداً من الرجال البارزين بإقامة علاقات مريبة مع بلاط القسطنطينية، وتورط كل من الوالي سيماخوس Symmachus وصهره بوئيثيوس

وحبسها ثيودريك في برج بافيا وهناك ألف بوئيثيوس كتابه العظيم (سلوان الفلسفة) Consolation of Philosophy ثم أعدمهما في عام ٥٢٥م. وأخيراً اعترف ثيودريك ببراءتهما وشعر بأسى عظيم حتى قيل بأن عقله قد إختل وأن هذا الحزن عجل بنهايته فمات في العام التالي ٥٢٦ م. ولا يزال قبره يشاهد في رافنا ، هذا القبر الذي تتكون قبته من حجر واحد عرضه اثني عشر متراً، وسمكه نصف متر. وهذا القبر هو الأثر الوحيد الذي شيده القوط ولا زال موجوداً ليشهد بأن هذا البناء لا يشترك في أي شيء مع الفن المعماري المسمى بالفن القوطي .

وبعد وفاة ثيودريك ضاعت سيادة القوط على العالم البربري ، فانفصل القوط الشرقيون عن الغربيين ، وأعلن الشرقيون اثالاريك Athalaric ـ ابن اثالاسونتا Amalasuntt ـ حفيد ثيودريك ملكاً عليهم ٥٢٦ ـ ٥٣٤ م أما القوط الشرقيون فقد نصبوا أمنا لاريك أحد ابناء الاريك الثاني ملكاً عليهم . وتدهورت مملكة القوط الشرقيين بسرعة ولم تعمر بعد مؤسسها سوى فترة قصيرة وانتهت عام ٥٥٣ م تحت ضربات الامبراطور جستنيان الأول . والمهم أن ثيودريك أظهر درجة عالية من النبوغ الحضاري بحيث لا يمكن وضعه في مصاف البرابرة الذين لم يخلفوا شيئاً وراءهم .

الممالك الانجلوسكسونية :

في الوقت الذي شهدت فيه غالة حكم كلوفس وايطاليا حكم ثيودريك تعرضت بريطانيا التي يفصلها عن أرض القارة الأوروبية للغزو من شعبين عاشا على شواطيء نهر الألب الاسفل وهم الانجليز والسكسون. واستمرت هذه الغزوات قرناً، وأسفرت عن الحكومة السباعية الانجلوسكسونية (٤٥٥ ـ ٥٨٤ م).

إن بريطانيا العظمى التي غزاها الرومان جزئياً احتفظت تحت سيطرتهم بثلاثة شعوب متميزة تماماً وهي الكالدونيون Caledonians

(البكت Picts والاسكتلنديون) وعاشوا في الشمال فيما يعرف باسكتلندا الآن التي لم يتغلغل فيها الرومان . وفي الجنوب والشرق عاش اللجريان Legrians الذين تأثروا بعض الشيء بالحضارة الرومانية . وفي الغرب إلى جانب نهر السفرن Severn عاش الكمبريانيون Cambrians أو الولش Welsh وهم شعب جبلي عنيد من الصعب هزيمته في معاقلة الجبلية .

وكان البكت ينزلون باستمرار من مرتفعات اسكتلندا ويشنون حملات رهيبة ضد الجنوب ، وطوال سيطرة الرومان على الجزر البريطانية تمكنوا من صدهم . ولكن عندما سحب الامبراطور الغربي هونوريوس القوات الرومانية من الجزر لمواجهة تهديدات الاريك ضاعت سيطرة الرومان على الجزر البريطانية فاختل التوازن العسكري داخلها .

وكان الارهاق قد حل اللجريان والكمبريين من جراء الهجمات وتناقص عددهم وعجزوا عن كسب مساعدة القوات الرومانية واضطروا للدفاع عن أنفسهم واختاروا رئيساً من عامة الشعب عاش في لندن وتولى الدفاع عن الاقطار . وكان إختيار هذا الرئيس مصدراً للشقاق لأن اللجريان والكمبريين تنازعوا حول من هو أحق بمثل هذا المنصب .

وأثناء تولي فورتيجرن Vortigem منصب الرئاسة لم يجد وسيلة للسلامة سوى استدعاء البرابرة من سكسون وجوت وانجلز من أوروبا لمحاربة البكت . وكانت هذه العناصر القادمة من أوروبا من أجرا القراصنة فسيطروا، واستمروا يبحرون من سواحل المانيا وشبه جزيرة كمبريك Cimbric وأرهبوا بحر الشمال والجزر البريطانية .

وأنزل قائدان سكسونيان وهما هنجست Henghist وهورسا Horsal الهزيمة بقبائل البكت وحصلوا على جزيرة تانت Thanet على ساحل كنت Kent مكافأة لهم على المساعدة مع الوعد بدفع جزية سنوية . ومع الزمن تحول هؤلاء الحماة والمدافعين إلى سادة، وابتلع التنين الأبيض للغرباء تنين البريطانيين الأحمر وكان هذا الشماران هما شعارا الشعبين .

وفي عام ٤٥٥ م استولى هنجست على الأراضي الواقعة بين نهر التيمز والقنال الانجليزي ، وأعلن نفسه ملك مملكة كنت واتخذ من مدينة كانتربوري Canterbury عاصمة له . ومنذ ذلك التاريخ كان جميع رؤساء القراصنة يطمعون في توطيد اقدامهم في بريطانيا كما فعل الفرنجة في بلاد الغال .

وفي عام ٤٩١ م أسس إيلا Ella مملكة سسكس Sussex (السكسونيون الجنوبيون) في تشيستر Chichester ، كما أسس كرديك Cerdic في عام ٥١٦ م مملكة وسكس Wessex (السكسونيون الغربيون) في ونشستر Winchester . وهنا اصطدم السكسونيون مع الكامبريين الذين برهنوا على أنهم خصوم أشداء . ودافع آرثر Arther أمير كارليون Caerleon عن الكامبريين وهزم السكسون ، ولذلك كان آرثر بطل الأساطير وأخيلوس الملاحم الشعرية الكامبيرية . ويقال أن آرثر نجح في هزيمة السكسون في إثني عشر معركة أشهرها وأمجدها معركة تل بادون — Badon Hill عام ٥٢٠ م وطبقاً للروايات فإنه قتل بيديه أربعمائة رجل من أعدائه في يوم واحد . وعندما جرح آرثر حمل الى جزيرة نهرية ومات هناك في تاريخ غير معروف ولم يعثر على قبره . ورفض الكامبريون الذين دافع عنهم آرثر أن يصدقوا أن بطلهم القومي قد مات واخذوا ينتظرون قدومه لقرون عديدة ليخلصهم .

وفي عام ٥٢٦ نجح السكسون في إقامة مملكة في شرق انجلترا بعدما صدهم آرثر في الغرب ، وعرفت هذه المملكة باسم إسكس Essex (السكسونيون الشرقيون) واتخذوا مدينة لندن عاصمة لهم (ومعنى Lon-din مدينة السفن) على نهر التميز. وهكذا أصبح للسكسون أربعة ممالك في الجزر البريطانية .

وظهر إيدا Eda في عام ٥٤٧ م واستولى أيدا أو رجل النار على يورك York واقليم نورثمبرلاند Northumberland (الأراضي الواقعة شمال همبر Humber).

وحصل أوفا Offa زعيم عشيرة الانجليز المقيمين على الساحل الشرقي لبريطانيا العظمى على لقب ملك أنجليليا الشرقيةEast - Anglia متخذاً نوروتش Norwich عاصمة له.

وأسس كريدCridal في عام ٥٨٤م بين الانجليز الشرقيين والكامبريين مملكة مرسياMercia (حدود مارس) متخذاً لنكولن أو ليستر Leicester عاصمة له.

وبإضافة هذه الممالك الثلاث الانجليزية إلى الأربعة السكسونية اكتملت الحكومة السباعية. وأصبح القطر الذي حكمه الرومان منقسماً إلى سبع ممالك بربرية صغيرة اتحدت فيما بعد في مملكة واحدة. وكون القادمون الجدد عنصراً كبيراً في الشعب الانجليزي الذي لا يزال يعتبر سكسوني الأصل.

ولم يصل الغزو إلى اسكتلندا التي كانت لا تزال تحت سيطرة عناصر البكت والاسكتلنديين الذين عجز الرومان عن اخضاعهم من قبل، كما لم يمتد هذا الغزو إلى ايرلندا التي نجت من الغزو الجرماني مثلما نجت من الغزو الروماني من قبل، فيما عدا بعض المراكز القليلة على السواحل حيث استقر الدانماركيون. واحتفظ السكان الكلتيون لايرلندا التي كانت مقسمة إلى عدد هائل من العشائر والدويلات الصغيرة باستقلالهم حتى القرن الثاني عشر. وفي القرن الرابع كان القديس باتريكPatrick قد أدخل المذهب الكاثوليكي في إيرلندا وأصبحت أيرلندا مركزاً للاشعاع المسيحي المبكر. وظهر من ابناء ايرلندا القديس كولومبانColumban الذي لعب دوراً كبيراً في نظم الكنيسة المسيحية في أوروبا.

ومن أبرز الشخصيات الجرمانية في تاريخ انجلترا الملك اثلبرت Ethelbert ملك كنت ٥٦٠ - ٦٠٦م وزوجته برتاBertha . وترجع عظمة هذا الملك أنه عمل على ترحيد البلاد. وقد اتخذ في سبيل ذلك طريق القوة حيناً وطريق الدبلوماسية حيناً آخر. كما اتخذ خطوة في غاية الأهمية

كان لها أثرها فيما بعد في تجميع الممالك الانجليزية المختلفة في شكل أمة واحدة ، وهي اعتناقه المسيحية .

وحول دخول اثلبرت في الديانة المسيحية يروي لنا المؤرخ الانجليزي بيدهBaeda (ت ٧٣٥ م) هذه الأحداث في صفحات طوال في كتابة تاريخ الكنيسة والأمة الانجليزية History of the English Church and People تتلخص في أن البابا جريجوري العظيم ٥٩٠ - ٦٠٤ م، أرسل بعثة تبشيرية إلى انجلترا وعلى رأسها أوجستين ، وقد وصلت هذه البعثة إلى انجلترا في عام ٥٩٧ م حيث رحب بها اثلبرت وزوجته برتا الفرنجية الأصل المسيحية الديانة . وآمن اثلبرت بالمسيحية وصار صديقاً حميماً لأجستين وانزله بمدينة كانتربوري عاصمة كنت . وغدا أوجستين أول رئيس لاساقفة كانتربوري ٥٩٧ - ٦٠٥ م . والمهم أن أهل كنت وسائر البلاد الجنوبية بالجزيرة حذوا حذو ملكهم اثلبرت ، ثم تبعهم أهل نورثمبريا وانجليا ومرسيا ووسكس وصار الناس على دين ملوكهم عدا مدينة لندن التي طردت بعض أعضاء البعثة، ورفضت اعتناق الديانة المسيحية . وحتى الآن يتصدر رئيس اساقفة كنتربوري الصداره على جميع اساقفة إنجلترا بما فيهم رئيس اساقفة لندن .

وعلى أية حال فقد استمر إتجاه انجلترا نحو الوحدة في الفترات اللاحقة حتى تبوأت مملكة وسكس مركز الصدارة في عصر ملكها اجبرت Egbert (٨٠٢ - ٨٣٩ م) الذي تغلب على كافة الممالك الأنجلو - سكسونية ، واستمرت سيطرة وسكس حتى قدوم الفيكنج في نهاية القرن التاسع الميلادي .

أهم نتائج الهجرات الجرمانية :

إكتفينا في الصفحات السابقة بعرض محدود لبعض الهجرات الجرمانية ، وهي حسب ترتيبها كما سبق ورودها تبدأ بالقوط الغربيين والبرجنديين والوندال والهون والفرنجة والقوط الشرقيين والأنجلو -

سكسون، وإن كان ما تم التعرض له هو الجانب الرئيسي للهجرات الجرمانية، فهناك هجرات أخرى لعناصر أخرى هي الأفار والآلان والألمان والجبيد والفيكنج واللومبارديين ، لا يتسع المقام هنا للتعرض لها وأن كنا سنكتفي بالتعرض في موضع آخر لهجرات اللومبارديين والفيكنج

والمهم أنه في نهاية موضوع الهجرات الجرمانية الرئيسية علينا أن نتوقف قليلاً لايضاح أهم النتائج التي ترتب على هذه الهجرات والغزوات . وأول ما نشاهده في هذه المرحلة هو تغيير معالم اوروبا سياسياً وحضارياً . ومن هذه التغييرات القضاء علىٰ الامبراطورية الرومانية في الغرب وقيام دول ودويلات وامارات علىٰ انقاضها يتولى أمرها عناصر غير رومانية وهي العناصر الجرمانية . وبقدوم هذه العناصر الجرمانية حدث مزج بين الحضارة الرومانية والتقاليد الجرمانية . أما فيما يتعلق بالناحية الاقتصادية فقد كانت الأحوال سيئة مع بداية تاريخ العصور الوسطى وزادت هذه الأحوال سوءاً على أثر مجيء هذه الهجرات نظراً لما صاحب هذه التحركات من الاضطراب السياسي بسبب كثرة الحروب والافتقار إلى الاستقرار . وعلى أثر هذه النتائج نادى بعض المفكرين بالعمل على إرجاع الأوضاع إلى ما كانت عليه قبل سقوط روما عام ٤٧٦ م. ولذلك حاول بعض حكام الامبراطورية الشرقية ولكن ذلك لم يكن من المستطاع . وأن كان بعض الأباطرة مثل جستنيان قد نجح فقد كان نجاحه مؤقتاً ما لبث أن انهار سريعاً. ومن أهم النتائج التي ترتبت على الغزوات الجرمانية، أنه في خضم هذه الأحداث المضطربة سياسياً واجتماعياً واقتصادياً ، فقد ظلت الكنيسة الغربية وعلى رأسها البابوية هي القوة الوحيدة المحترمة من كافة العناصر التي سيطرت علىٰ اوروبا بما فيهم الجرمان . ومن هنا اخذت البابوية الفرصة للقيام بدور عظيم في بناء الحضارة الغربية ولا سيما في مستهل العصور الوسطى ، كما أن البابوية حاولت قدر جهدها انقاذ ما يمكن انقاذه من تراث العصور السابقة للعصور الوسطى وابان العصور الوسطى .

الفصل السادس

موقف الإمبراطورية البيزنطية من البرابرة في القرن السادس الميلادي

جستنيان الأول وسياسته الداخلية

سياسة جستنيان الخارجية

١ - حروبه مع الفرس

٢ - حروبه في الغرب

٣ - جستنيان والوندال

٤ - جستنيان والقوط الشرقيون

٥ - سياسة جستنيان في اسبانيا

السياسة الخارجية لخلفاء جستنيان

الغزو اللمباردي لايطاليا

جستنيان الأول ٥٢٧ ـ ٥٦٥ م .

إذا كان جستنيان قد تولى عرش الامبراطورية بصفة رسمية في عام ٥٢٧ م ، فواقع الأمر أنه كان حاكماً للامبراطورية في الفترة الأخيرة على الأقل من حكم سلفه جستين Justin، وبتعبير آخر كان جستنيان ولياً لعهد جستين وإنه كان الحاكم الفعلي للامبراطورية، ولا شك أن هذه الفترة قد أكسبته خبرة واسعة في شؤون الحكم والإدارة . ويقول معاصرو جستنيان إنه كان يميل إلى البساطة في العيش والتودد في معاملة الناس وإنه كان يعمل ليل نهار حتى أطلق عليه لقب الامبراطور الساهر ، كما أنه كان حريصاً على أن يعلم بكل شيء وأن يناقش كل أمر، وألا يكون هناك قرار إلا قراره ولا يعارضه أحد . ورغم أن مظهر جستنيان كان يدل على العزم والحزم الا انه كان متردداً شديد التأثر بآراء حاشيته خاصة زوجته ثيودورا Theodora في موقفها من ثورة نيقا Nika .

ثورة نيقا (النصر) ٥٣٢ م :

واجه جستنيان في عام ٥٣٢ م أي بعد توليه بخمس سنوات ثورة داخلية كادت تقضي على عرشه ، وهذه الثورة عرفت بإسم ثورة نيقا أي النصر في اللغة اليونانية . وحتى يمكن تتبع أحداث هذه الثورة يجدر بنا القاء الضوء على نشأة الأحزاب التي قامت بهذه الثورة .

يرجع منشأ هذه الأحزاب الى سباق الخيل الذي كان يقام في الهبدروم Hippodrome وهو المكان نفسه الذي كان يتم فيه تتويج الامبراطور حتى نهاية القرن السادس الميلادي . وفي الهبدروم اهتم سكان القسطنطينية بمتابعة هذا السباق وتحمسوا له . وكان سائقوا عربات السباق يرتدون أربعة الوان هي الأحمر والأزرق والأخضر والأبيض ، فانقسم المشجعون الى أربعة احزاب رياضية وأصبح شعار كل حزب اللون الذي يشجعه . وقام كل حزب بجمع التبرعات والاشتراكات للعناية بالسائقين وشراء الجياد والاهتمام بها . ومع مرور الوقت انقلب التضامن الرياضي

الى تضامن اجتماعي وانضم البيض الى الخضر كما انضم الحمر الى الزرق ، وأصبح في العاصمة حزبان هما الخضر والزرق ، ثم انقلب هذا التضامن الى الناحية الدينية فساند حزب الزرق المذهب الارثوذكسي ، كما ساند حزب الخضر القول بالطبيعة الواحدة . وفي عهد الامبراطور أناستاس حل بالزرق اضطهاد شديد لأن هذا الامبراطور كان يميل الى القول بالطبيعة الواحدة ، وعند هذه المرحلة انقلب الوضع الى أحزاب سياسية ، واتجه حزب الزرق الى الهبدروم ونادو بسقوط الامبراطور أناستاس ، ولكن الامبراطور عالج الأمر بالحكمة والاتزان .

وبعدما اعتلى جستنيان عرش الامبراطورية عاود الزرق نشاطهم لأنهم لم يرتضوا بجستنيان امبراطوراً ، وزادت المشكلة تعقيداً أن ثيودورا زوجة الأمبراطور تعاطفت مع الخضر ، ولما كان الخضر من طبقات الشعب الدنيا والزرق من الطبقات العليا فقد أصبح الأمر صراعاً طبقياً امتد اثره الى البلاط الامبراطوري وأصبح الحال يهدد بالإنفجار .

وعلى ذلك يتبين لنا أن اسباب ثورة نيقا متعددة ومتشابكة ، منها ما هو ديني ومنها ما هو طبقي ، يضاف الى ذلك ان البعض لم يكن راضياً عن اعتلاء جستنيان لعرش الامبراطورية وحرمان أقارب الامبراطور أناستاس من العرش.

وأخيراً يأتي العامل المباشر الذي أشعل نار الثورة . وموجز هذه الأسباب أن جستنيان اعتمد في بداية عهده على بعض الشخصيات في شؤون الحكم والإرادة . ومن هؤلاء يوحنا القبادوقي Jhon of Cappadocia كوزير للخزانة وتريبونيان Tribonian في القضاء . وتجاوز الاثنان حدهما في ابتزاز الأموال حتى أن خزائن الدولة كانت عامرة في أقصى أيام الحرب أو المجاعة . ولم يتحمل شعب القسطنطينية أكثر من ذلك فهب الزرق والخضر معاً واتجهوا إلى الهبدرم واندفعوا منه يدمرون ويخربون ويحرقون وهن ينطقون بكلمة نيقا أي النصر فسميت الثورة بهذا الاسم .

ولم تمض بضعة أيام حتى تطورت الحركة واتخذت شكلاً بالغ الخطورة ، فقد أشعل الثوار النار في المباني ، وانضم اليهم سكان الريف الذين ارهقتهم الضرائب الفادحة التي فرضت عليهم واصبحت الثورة ثورة شعبية عامة ، وطالب الثوار بعزل الوزراء المستبدين . وجزع جستينيان لما حدث من اضطراب ولجأ الى مفاوضة الثوار في بداية الأمر ، وظهر بشخصه وأقسم أمام الثوار على رفع المظالم ، ولكن ذلك كان بعد فوات الأوان .

وزاد من غليان الثوار انضمام بعض النبلاء الذين يكرهون آل جستين الى الثورة . وتطور الأمر وتوج الثوار هيباتيوس Hypatius ابن أخي الامبراطور أناستاس رغم إرادته ، أما الأمبراطور جستينيان فصار محصوراً في القصر الامبراطوري وأضحى مركزه في غاية السوء . وزاد من حرج الموقف أن العاصمة البيزنطية كانت خالية من الجند لأن الحامية كانت قد أرسلت للإشتراك في الحرب الفارسية ، ولم يعد لدى الامبراطور سوى أربعة آلاف من الحرس الامبراطوري وحوالي خمسمائة من الخيالة وقليل من الجنود.

لم يعد أمام الامبراطور سوى الحرب أو الاستسلام فاختار الحرب ووضع قائده بلزاريوس Belisarius على رأس القوات الموجودة بالعاصمة من أجل القضاء على الثورة . ولكن الثوار ابدوا مقاومة شديدة ، ودار قتال حول الميدان الكبير واشتعلت النار في مبنى مجلس الشيوخ وامتدت حتى قضت على كنيسة آيا صوفيا St. Sophia وانتشرت حتى أحرقت مستشفى سومبسون Sompson وكنيسة سانت ايرين St. Irene .

وأثناء ذلك خيم الفزع على القصر الامبراطوري وعقدت مجالس عديدة للتشاور وتدارك الأمر ، وأخيراً اقتنع الامبراطور جستينيان بالفرار عن طريق البحر والاتجاه الى مدينة هرقلية Heraclea ، ولكن الامبراطورة ثيودورا رفضت الفرار وحثت زوجها على مهاجمة الثوار مرة أخرى ، وكان لكلماتها الشهيرة أثراً كبيراً في انقاذ الموقف . وقد سجل المؤرخ

بروكوبيوس القيصري Procopuis of Caesarea كلمات الامبراطورة ومنها «على من يلبسون التاج لا ينبغي أن يعيشوا بعد أن يفقدوه ، وانني لا أود ان أعيش حتى أرى اليوم الذي لا يهتف فيه الناس باسمي امبراطورة لهم» . وأضافت : «إنج بنفسك إن شئت أيها الامبراطور فلديك المال والسفن في إنتظارك ، والبحر خال من الأعداء . أما أنا فإني باقية هنا ، وأن المثل القديم يقول : إن العباءة الأرجوانية هي خير الأكفان» .

كان لكلمات ثيودورا أثراً كبيراً في نفس جستينيان فتحول إلى الثبات بدلاً من الفرار والحرب بدلاً من المفاوضة ، وأمر بهجوم كبير على الثوار وتولى بلزاريوس أمر القيادة مرة أخرى . وكان هجومه على الثوار في الوقت الذي تجمعوا فيه داخل الهيدروم يستعدون للهجوم على القصر . ونجح بلزاريوس في حصار الثوار داخل الهيدروم ، ودار قتال شديد انتهى بنجاح بلزاريوس في القضاء على الثوار وسقط آلاف منهم صرعى بسيوف الامبراطورية . ويقال أن خمسة وثلاثين ألف رجل قتلوا في الأيام الستة التي اندلعت فيها الثورة .

الاصلاحات الداخلية

وبالإضافة الى ثورة نيقا كان قد ظهر في اجزاء الامبراطورية ، خاصة الشرقية منها مثل آسيا الصغرى ومصر ، عدد من أصحاب الأملاك الكبيرة الذين استغلوا الظروف التي تمر بها الامبراطورية واغتصبوا جانباً من أراضي الامبراطورية وسيطروا على أهاليها وتمكنوا من احتواء جباة الضرائب بالرشوة . وكان المالك يستولي على القرية بعد الأخرى ويقوم رجال الضرائب التابعين له بجمع الضرائب لحسابه دون أي اعتبار للسلطة المركزية ، وعاش الملاك في قراهم عيشة الأمراء ، وبالإضافة الى ذلك فقد إتسعت أملاك الكنيسة والأديرة وتمتع رجالها بنفوذ قوي .

وأمام كل هذا لم تقف الحكومة البيزنطية مكتوفة الأيدي فقاومت هذا العبث بطرق كثيرة ولفترة طويلة . وكان من وسائلها أنها تدخلت في حق الإرث أحياناً، أو أجبرت بعض كبار الملاك على وقف أملاكهم لصالح

الامبراطورية ، كما لجأت أيضاً الى مصادرة بعض الأملاك لعدم ثبوت ملكيتها . وإذا كان هذا ما يتعلق بالأملاك الخاصة بالملاك الدنيويين ، فكان الأمر صعباً في تطبيق هذا التصرف على أملاك الكنائس والأديرة ، لذلك سلكت الدولة سبيلاً آخر للمصادرة وهو اتهام دير بأكمله بالزندقة وحولت موارده إلى خزانة الدولة . ورغم الجهود الكبيرة التي قامت بها الدولة للقضاء على نفوذ الملاك فإن الامبراطور جستينيان لم يتمكن من القضاء على طبقة الملاك .

ومما زاد في سوء الأحوال الداخلية وقوع بعض الزلازل وانتشار الأوبئة خاصة الطاعون الذي انتشر في الجانب الشرقي من الامبراطورية ، وجزء من الجانب الغربي وامتد الى العاصمة ، وقد أدى ذلك كله الى هجرة السكان وإهمال الزراعة فانتشرت المجاعة .

ومن أجل النهوض بالامبراطورية وجد جستينيان ان يبدأ بإصلاح عيوب إدارة الدولة . ولما كان الامبراطور ينادي بالحكم المطلق ، فقد رأى ان أفضل الطرق لإصلاح احوال الدولة هي تقوية الحكومة المركزية واختيار أفضل الرجال للقيام بشؤون الحكم . وعني عناية خاصة بضبط موارد الدولة، وطلب من الأهالي دفعها بانتظام لجباة الحكومة ، وفي الوقت نفسه طلب من الجباة معاملة الأهالي بالحسنى ، والتزام العدل .

لم يؤد هذا إلى النتيجة المرجوة، لأن الدولة كانت في حاجة إلى المزيد من المال من أجل نفقات الحرب. ولما كان جستينيان لا يريد أن يرهق الأهالي بضرائب فوق طاقتهم، لذلك لجأ الى طريقة أخرى لخفض النفقات وهي مهادنة بعض الدول المعادية وشراء رضاءهم بالأموال .

ولكي يقلل جستينيان أيضاً من نفقات الدولة ويبسط من الأعمال الادارية داخل الامبراطورية ، قام بإدماج بعض الولايات مع بعضها ، فقلل عدد الموظفين وزاد من رواتبهم حتى يشجعهم على العمل ، كما وضع السلطة العسكرية والادارية في يد واحدة وأنعم على الحكام الجدد بالألقاب تشجيعاً لهم . ومما تجدر الاشارة اليه في هذا الموضع أن

الامبراطور قسطنطين كان قد جزأ الولايات الكبيرة إلى ولايتين أو أكثر ، وفصل بين السلطة العسكرية والمدنية ، تجنباً لحركات التمرد والعصيان، وبذلك يكون جستينيان قد أعاد نظام الحكم المحلي الى ما كان عليه الحال قبل عهد قسطنطين .

* وفوق هذا أنشأ جستينيان نظاماً لربط المقاطعات الغنية بالفقيرة حتى تسدد الأولى بعض ما على الثانية. كما عاد الى سياسة الامبراطور دقلديانوس التي تقضي بربط الأولاد بمهنة آبائهم وبخاصة ما يتصل منها بالأرض.* واعتنى جستينيان عناية خاصة بالعاصمة ، فعين عدداً من الحكام هم الكويستور Quaestor . وكانت مهمتهم العمل على ألا يدخل القسطنطينية أي شخص من المقاطعات إلا وله عمل فيها حتى لا يعقدون الحياة بتصرفهم . وإن كانَ هناك عاطل من الأهالي يكلف بالعمل في مخابز الدولة او مصانعها . كما عين عدداً من الحكام للنظر في حوادث السرقات والاغتيالات والمخلة بالشرف داخل العاصمة . كما اهتمت ثيودورا بأمر الساقطات وجعلت من قصر قديم على الضفة الآسيوية لشاطىء البسفور ديراً للتائبات وأطلقت عليه دير التوبة . وحتى لا تتكرر احداث ثورة (نيقا) منع جستينيان حفلات سباق الخيل في الهيدروم ووضع رقابة شديدة على التكتلات الرياضية والسياسية *

كما أصدر جستينيان تعليمات مشددة الى الحكام بالمحافظة على الطرق والجسور وخزانات المياه وأسوار المدن ، وأمدهم بالأموال اللازمة ، وترتب على ذلك انشاء الطرق الجديدة والجسور وحفر الآبار وبناء الحمامات . كما قام جستينيان بإعادة بناء كنيسة آيا صوفيا St. Sophia في عام ٥٣٢ م بعد ما أصابها من دمار ، وأنشأ القصر المقدس في عام ٥٣٨ م ، فضلاً عن العناية ببناء عدد من الكنائس والمستشفيات . كما وضع جستينيان نظاماً جديداً للتأريخ وهو عام تولية الامبراطور ، وهو نظام قديم ، وربطه بسنة الضريبة أي دورة الخمسة عشر عاماً . ومنذ تلك اللحظة صار التأريخ بمراسيم ربط الضرائب Indiction يستخدم في كل

عصور تاريخ الامبراطورية . وأضيف الى ذلك فيما بعد السنة التقريبية العالمية Annus Mundi (التي تذهب الى ان خلق العالم قد تم في عام ٥٥٠٨ ق . م . وكانت هذه السنة تستخدم الى جانب حكم الامبراطور أو بدلاً منها .

وكان لجستينيان موقفاً من التجارة الخارجية ، وأراد ان يحرر تجار الامبراطورية من احتكار الفرس للتجارة . فواقع الأمر أن الفرس كانوا يحتكرون كل أنواع التجارة الآتية من الهند والصين مثل الحرير والبخور والأحجار الكريمة . وكان الفرس يتحكمون فيها ويبيعونها بأسعار باهظة ولا يصدرون منها إلا القليل حتى تظل غالية الثمن . وسعى الامبراطور إلى الوصول إلى مركز هذه التجارة في مدينة بخارى عبر البحر الأسود وبحر قزوين ، كما اتصل جستينيان بملك الحبشة وزين له نقل تجارة الصين إلى البحر الأحمر ، وشجع تجار مصر والشام على استيرادها وجعل من القلزم وإيله قاعدتين تجاريتين لهذا الغرض .

واستكمالاً لعملية الاصلاح التي بدأها جستينيان رأى أن أفضل الوسائل لجمع المال من الأهالي هو حمايتهم من ظلم الحكام وضبط احوالهم ، فعني بجمع القوانين القديمة وتبويبها وتعديل ما وجب تعديله . وعهد الى تريبونيان Tribonian ولجنة تحت إدارته بهذا العمل ، وظهرت مجموعة القوانين Code ، كما تم في عهد جستنيان وضع قوانين للأحوال الشخصية . وفضلاً عن ذلك فقد صدر في عام ٥٣٣ م المصنف الهائل المسمى بالموجز Digest الذي ظل المرجع الأول في جميع المسائل القانونية ، وفي عام ٥٣٤ م وضعت نسخة جديدة ومنقحة من مجموعة الامبراطور جستينيان . ولم يتوقف نشاط جستينيان التشريعي عند هذا الحد ، فمنذ عام ٥٣٤ م حتى نهاية حكمه ظهرت سلسلة مطولة من القوانين التكميلية أطلق عليها إسم القوانين المستجدة Novellae . وعند نهاية حكم جستنيان كان القانون البيزنطي أصبح منقحاً تنقيحاً تاماً ومتمشياً مع مستلزمات عصره .

سياسة جستنيان الخارجية

كان جستنيان منذ بداية عهده يرى عودة الامبراطورية الى عظمتها القديمة ، وان يحقق ما كان لها من سيادة على غرب أوروبا والساحل الافريقي ولو أدى ذلك الى الحرب . ولكن هذه الفكرة لم تدخل مرحلة التنفيذ قبل عام ٥٣٣ م ، وذلك لانشغاله بالحرب مع الدولة الفارسية . ولذلك يجدر بنا التعرف على ملامح هذه الحرب قبل الدخول في العمليات العسكرية التي قامت بها الامبراطورية في غرب اوروبا والساحل الافريقي .

حروب جستينيان مع الفرس

وقعت احداث الحرب الفارسية الأولى في الفترة من ٥٢٧ ـ ٥٣٢ م . وواقع الأمر أن الصراع بين الفرس والبيزنطيين له جذور عميقة ، ولكن السبب المباشر في هذه المرحلة يرجع إلى أن الملك الفارسي قُباذُ كان قد بلغ الثمانين من عمره واراد ان يضمن العرش لابنه الأصغر كسرى أنو شروان ، فلجأ قباذ الى الأمبراطور جستينيان لكي يتبنى ابنه ويضمن عرشه . وفي الوقت ذاته كان الأمر يتطلب تسوية مشكلة الحدود عند مدينة لازيكا Lazica الغنية بالنفط الواقعة شرقي البحر الأسود . والواضح أن الشروط التي وضعها جستينيان لم ترض الملك قباذ فتوترت الملاقات مرة أخرى . والشرارة التي أشعلت نار الحرب جاءت من قبل قُباذ الذي أمر جرجان ملك إقليم إيبيريا الواقع شرق الأناضول بالامتناع عن دفن الموتى طبقاً للتعاليم المسيحية ، لذلك لجأ جرجان الى الامبراطور جستينيان فساندہ الأخير وأصبح الصدام وشيكاً بين الامبراطورية البيزنطية والفارسية .

وضع جستينيان قواته تحت قيادة بلزاريوس الذي اتجه الى مدينة دارا في عام ٥٣٠ م ونجح في وقف تقدم القوات الفارسية . ولكن المنذر اللخمي حليف الفرس أتى في العام التالي وأغار على ممتلكات الامبراطورية البيزنطية في الشام، وهاجم مدينة قنسرين جنوب حلب، ثم اتجه الى انطاكية وعاث في ضواحيها وأسر العديد وسلب من الأموال الكثير . فاتجه بلزاريوس إلى المغيرين ونجح في إنزال الهزيمة بالمنذر وقواته

وتمكن من إجلائهم عن شمال الشام ، ثم ما لبث ان توفي قباذ في العام ذاته ، وتولى بعده كسرى أنو شروان الذي عرض الصلح على الامبراطور جستينيان . ولم يتردد جستينيان في قبول الصلح حتى يتفرغ لمشروعاته في الغرب وإعادة الامبراطورية الى سابق مجدها . ولكي يؤمن جستينيان الحدود الشرقية أقام حلفا مع أمراء القوقاز في الشمال وحلفاً آخر مع ملك الحبشة لاتقاء خطر الحرب المباشر مع الدولة الفارسية في هذه الأماكن .

وتجددت الحرب مرة اخرى مع الدولة الفارسية في عام ٥٤٠ م . وترجع أسباب الحرب هذه المرة الى انتصارات جستينيان في الشمال الافريقي وفي ايطاليا ، وهي الانتصارات التي ازعجت كسرى أنو شروان وخشي ان تدور الدائرة عليه ، هذا فضلاً عن تشجيع القوط للملك الفارسي لمحاربة الامبراطورية البيزنطية . ولم يتردد كسرى في القتال فجهز جيشاً كبيراً وسار إلى الشام وأغار عليها كما استولى على بعض مدن الحدود في أعالي الفرات ، وسلبت وأسرت القوات الفارسية الكثير ، ثم سارت الى مدينة منبج Hierapolis التي استسلمت بالأمان . واتجه كسرى بنفسه الى انطاكية فانزعجت حاميتها ولاذت بالفرار ، ولكن نجدة بيزنطية وصلت اليها في الوقت المناسب فقاومت القوات الفارسية الى حين حتى سقطت في أيدي كسرى . واتجهت القوات الفارسية الى سلوقية Seleucia ، ولم تكف القوات الفارسية عن القتال حتى عرض الامبراطور جستينيان الصلح على كسرى فقبله الأخير .

لم يدم الصلح طويلاً بين الدولتين ففي العام التالي ٥٤١ م هاجم كسرى أملاك الامبراطورية وكانت وجهته هذه المرة المناطق الأرمينية وشرقي البحر الأسود ، فقد هاجم كسرى مدينة لازيكا وإقليم ايبريا وحدود الفرات الشمالية ، واستمرت الحرب هذه المرة من عام ٥٤٢ حتى ٥٤٤م . وبعد طول القتال شعر الطرفان بصعوبة الحرب في المناطق الجبلية الوعرة فوقعت الهدنة بين الطرفين في عام ٥٤٤ م . ونصت شروط الهدنة على عقد الصلح لمدة خمسين سنة وتعهد كسرى بمراعاة حقوق

المسيحيين من رعاياه ، وان يمنع جستنيان المبشرين المسيحيين من التبشير بالمسيحية في الأراضي الفارسية ، وأن يدفع جستنيان جزية سنوية .

حروب جستينيان في الغرب

عندما اعتلى جستينيان العرش كان القسم الغربي من الامبراطورية قد اصبح تحت سيطرة الجرمان ، فقد كان القوط الشرقيون Ostrogoths يحكمون في ايطاليا والقوط الغربيون Visigoths في اسبانيا ، وبين هؤلاء حكم الفرنجة في غالة . أما الساحل الافريقي فقد كان تحت حكم الوندال ، وفي الجزر البريطانية كان الانجلوسكسون . وفي محاولة جستينيان استعادة املاك الامبراطورية في الغرب فإنه لم يحاول مع الفرنجة والانجلوسكسون، ولكنه صادف نجاحاً ملحوظاً في البلاد الأخرى . وكان مما ساعده في اعادة فتح هذه البلاد كون الجرمان غاصبين للبلاد التي دان سكانها بمذهب الدولة الرسمي وهو المذهب الأثناسيوسي ، وأن الجرمان كانوا يدينون بالمذهب الأريوسي . ولذا كان الجرمان بمثابة سادة كفره ، لا يستطيع سكان البلاد الأصليين الإخلاص لهم والوقوف الى جانبهم عندما يتعرضون للأخطار . وهذا ما حدث عند فتح افريقية وايطاليا .

جستنيان والوندال

بدأت احداث فتح افريقية في عام ٥٣٣ هـ عندما سار بليزاريوس Belisarius أبراز قواد الامبراطورية البيزنطية ، على رأس ستة عشر ألف محارب ثلثهم من الفرسان والباقي من المشاة . وكان السبب الذي اتخذ ذريعة للحرب هو أن الملك الوندالي هيلدريك Hilderic ٥٢٣ ـ ٥٣٠ م الذي وصف بالضعف كان يميل الى الامبراطورية البيزنطية ، وأن جليمر Gelimer ٥٣٠ ـ ٥٣٤ م قد نحاه عن العرش ، فقد كان يتزعم الجانب المعادي لبيزنطة . وخطط جستينيان لغزو افريقية عندما أصبح الموقف في صالحه . ذلك أن الاسطول الوندالي وجانباً كبيراً من قوات الوندال قد

توجهت قبل فترة قليلة الى جزيرة سردينية لقمع فتنة قامت بها . فنزلت الجيوش البيزنطية على الساحل الافريقي دون مقاومة واتخذت طريقها الى العاصمة قرطاج Carthage، فاستقبلهم السكان الرومان بالترحاب . والتحم الونداليون مع القوات البيزنطية في معركتين انتصر فيها القائد البيزنطي بليزاريوس، كما سقطت قرطاج وسلم جليمر نفسه لبليزاريوس. وعلى هذه الصورة عاد الساحل الافريقي لحكم الامبراطورية الرومانية ، وعاد بليزاريوس الى بلاده بعدما ترك جيشاً صغيراً للسيطرة على البلاد حاملاً معه حشداً من نبلاء الوندال .

عمل جستينيان على إعادة الأحوال إلى ما كانت عليه قبل الغزو الوندالي ، فأصبغ على رجال الدين رعايته ، وأنزل الاضطهاد بالمسيحيين اتباع المذهب الاريوسي والدوناتي وبالوثنيين كذلك ، وأعاد الأراضي والمزارع إلى أصحابها الرومان . ولم يكن ذلك بالأمر اليسير فقد اعترضته مصاعب كثيرة ، منها أن التذمر ما لبث ان انتشر بين الناس عندما اتضح لهم أن كل ما يؤدونه من الضرائب هو السبب الرئيسي في إهتمام جستينيان بهم . يضاف إلى ذلك أنه في الوقت الذي كانت تحتفل فيه الامبراطورية البيزنطية بالنصر على الوندال ، هددت هجمات بربر افريقيا قوات جستينيان ، وقد دأب البربر على الخروج من حصونهم الجبلية في غارات للسلب والنهب ، وظلت هذه الغارات لفترة ليست بقصيرة . ومما ساعد البربر على إنزال الخسائر بقوات جستينيان أن خطط القتال لدى القوات البيزنطية الذين يحاربون وفق قواعد عسكرية منظمة ، لم تكن صالحة للبربر راكبو الإبل ، يضاف إلى ذلك أن طول القتال أدى إلى تذمر القوات البيزنطية . ولكنه بفضل القادة البيزنطيين الذي تعاقبوا على قيادة الجيش أمثال سولومون Solomon وجرمانوس Germanus ويوحنا التروجلي Jhon Troglia قد تهيأ للامبراطورية البيزنطية أن تتغلب على تلك المصاعب ، يضاف إلى ذلك ما هو معروف بين شيوخ قبائل البربر من الشقاق بسبب ما بينهم من عداوات قبلية قد جعل من العسير قيامهم بعمل

موحد ضد القوات البيزنطية . وأخيراً وفي عام ٥٤٨ م تمكنت القوات البيزنطية من السيطرة على الموقف واستتب الأمر بصورة دائمة تقريباً لقوات جستينيان .

جستنيان والقوط الشرقيون

جاء تدخل جستينيان بقواته في ايطاليا في الوقت المناسب ، فبعد وفاة ثيودريك ملك القوط الشرقيين في عام ٥٢٦ م بدأ الضعف يتسلل الى كيان الدولة، فقد خلفه على العرش ابنته الأرملة امالاسونتا Amalasunta وصية على ابنها أثالريك Athalaric البالغ من العمر عشر سنوات . ولم يرض زعماء القوط عن هذا الوضع فاضطرت امالاسونتا الى إشراك ابن عمها ثيوداهاد Theodahad في الحكم ، ولما كان زعماء القوط يتشككون في أمالاسونتا نظراً لتربيتها الرومانية ، وأنها تميل إلى بيزنطة فقد انتهى بها الأمر الى نفيها بأمر ثيوداهاد في جزيرة وسط بحيرة برلسينا Bolsena وسط إيطاليا حيث اعدمت. وكان إعدامها سبباً لتحرك القوات البيزنطية لمهاجمة ايطاليا.

وفي عام ٥٣٦ م - أي بعد وفاة ثيودريك بعشر سنوات - خطط جستينيان لغزو ايطاليا بحراً وبراً ، بحراً من شمال أفريقيا وبراً من نواحي دالماشيا التي سقطت عاصمتها سالونا Salona في أيدي القوات البيزنطية ، كما سقطت جزيرة صقلية دون مقاومة على الاطلاق نظراً لقلة الحامية القوطية بالجزيرة. واستقبل أصحاب الأراضي والعقارات القوات البيزنطية بالترحاب . وكان هدف بليزاريوس قائد الجيوش البيزنطية بعد ذلك هو الاستيلاء على نابولي العاصمة . ورغم استبسال ثوداهاد في الدفاع عنها إلا إنه لجأ إلى التفاوض بعدما شاهد ترحيب السكان بالقوات البيزنطية . ولكن بليزاريوس رفض عروض ثيوداهاد بعد النصر الذي أحرزته الجيوش البيزنطية في جبهات متعددة . وما لبث أن سقطت العاصمة في أيدي قوات

بليزاريوس . وعلى أثر سقوط العاصمة نابولي خلع الجيش القوطي ثيوداهاد وعين مكانه قائداً من قواد ثيودريك يدعى ويتيجز Witiges . انسحب ويتيجز إلى رافنا لينظم قواته بعد سقوط نابولي فأعطى الفرصة للقوات البيزنطية بقيادة بليزاريوس للسيطرة على مدينة روما في شتاء عام ٥٣٦ . وظل متحصناً بها حتى وصلته الامدادات ، فبدأ بالزحف على معاقل القوط في وسط ايطاليا . وأثناء هذه الأحداث شعر جستنيان باحتمال قيام الفرس بمهاجمة الامبراطورية البيزنطية ، لذلك أظهر استعداده للصلح مع القوط بأن يترك لهم الأراضي الواقعة شمال نهر البو Po ليستقروا فيها ، لكن بليزاريوس رفض التخلي عن انتصاراته ، ولإرضاء بليزاريوس عرض القوط عليه أن يكون ملكاً للقوط فوافق . ولكن بليزاريوس ما كاد يدخل رافنا ويسيطر على زمام الأمور حتى حنث بوعده وسحب موافقته وقبض على ويتيجز وحاشيته وأرسلهم أسرى الى القسطنطينية .

كان من الطبيعي ألا يخضع القوط للامبراطورية البيزنطية بهذه السهولة فثار القوط بزعامة توتيلا Totila الذي تمكن من السيطرة على سهول ايطاليا تاركا لبيزنطة السلطان في المدن الساحلية ، وقد نجح توتيلا في عام ٥٤٩م من ستعادة مدينة روما . ولم ييأس جستنيان فأرسل حملة ضخمة وعلى رأسها القائد البيزنطي نارسيس Narses الذي استولى على تحصينات توتيلا في إقليم دالماشيا واتخذ طريقه إلى رافنا . وفي معركة كبرى حاسمة قرب بوسطا ـ جاللورم Busta Gallorum انهزمت القوات القوطية في عام ٥٥٢م ولقي توتيلا مصرعه رغم استماتة القوط في القتال . وبعد ثلاث سنوات أي في عام ٥٥٥م استسلمت الحاميات القوطية في جنوب ايطاليا . اما فيرونا Verona ، وبرسيكا Brescia فقد صمدت حتى عام ٥٦٣م وذلك بفضل مساعدات الفرنجة . وعلى هذه الصورة انتهى حكم القوط الشرقيين في إيطاليا وعادت ولاية بيزنطية ، واستمر هذا الحال حتى الغزو اللومباردي لايطاليا عام ٥٦٨، والذي استمر حتى عام ٧٧٤م حين خضعت إيطاليا للفرنجة بقيادة شارلمان .

سياسة جستينيان في اسبانيا

إستقر المقام بالقوط الغربيين Visigoths في اسبانيا على عهد ملكهم ثيودريك الأول Theodoric I (٤١٩ ـ ٤٥١ م) بعدما أجبروا قبائل الوندال التي كانت قد استقرت من قبلهم في أسبانيا ، على النزوح إلى شمال افريقيا في عام ٤٢٩م، وخلال قرن من الزمان تمكن القوط الغربيون من تثبيت دعائم حكمهم . وفي عهد حكم ملكهم ثيودس Theodes ٥٣١ ـ ٥٤٨م تمكنوا من مد نفوذهم إلى مدينة سبتة الواقعة في الشمال الافريقي . ولكن هذا النفوذ ما لبث أن تلاشى على يد بليزاريوس الذي تمكن من إجلاء القوط الغربيين عن سبتة اثناء حروبه مع الوندال في الشمال الافريقي .

لم يستسلم القوط بعد ضياع مدينة سبتة ، فعندما كانت قوات جستينيان تحارب القوط الشرقيين في إيطاليا حاول ثيودس استعادة سبتة مرة أخرى لتقوية نفوذه من ناحية ولاشغال قوات جستينيان من ناحية أخرى حتى تخفف من ضربها للقوط الشرقيين من ناحية أخرى. لذلك قام ثيودس بمحاولة السيطرة على الساحل الافريقي ولكن هذه المحاولة فشلت تماما عندما هزمت قوات جستنيان القوط الغربيين عند قلعة سبتة في عام ٥٤٤م، وكانت هزيمة قاسية . ولم يتمكن ثيودس من العودة إلى اسبانيا إلا بعد جهد كبير ثم ما لبث أن قتله القوط بعد أربع سنوات .

إختار القوط بعد ثيودس القائد ثيوديجيزل Theodigisel (٥٤٨ ـ ٥٤٩م)، ملكا عليهم لما تمتع به من شهرة عسكرية عند تصديه للفرنجة في عام ٥٤٢م ، ولكن حكمه لم يستمر طويلا ، فبعد عام ونصف لم يحتمل النبلاء عبثه ولهوه فثاروا عليه وقتلوه وهو جالس إلى جوارهم في إشبيليه على مائدة العشاء . واختار القوط من بعده أجيلا Agila (٥٤٩ ـ ٥٥٤م). ولكن أجيلا لم يكن مقبولا لدى جميع القوط ، فقد كان أريوسي المذهب ، ولم يرض عنه أمراء جنوب أسبانيا الذين كانوا يميلون إلى

الأثناسيوسية وترعم جبهة المعارضة أثاناجيلد Athanagild . ولم يقف أجيلا مكتوب الأيدي أمام هذه المعارضة فأعد جيشه ليخضع الثوار في الجنوب ، ولكنه لم ينجح في مهمته وهزم على أيدي الثوار هزيمة ساحقة أمام مدينة قرطبة فعاد إلى الشمال ليعد نفسه لجولة أخرى ، وفي الوقت نفسه كان الثوار يتطلعون إلى مساعدة قوات جستينيان لإنهاء حكم أجيلا في الشمال الاسباني .

وكان في تصدع دولة القوط الغربيين في اسبانيا فرصة ذهبية للامبراطور جستينيان عليه أن يستغلها للتدخل في أسبانيا لاتمام مشروعه الخاص بإعادة الامبراطورية الرومانية إلى سابق عهدها ، فأصدر جستينيان تعليماته إلى ليبورروس Liborus حاكم الشمال الافريقي بجمع قواته والعبور إلى اسبانيا، لأن هذه القوات هي أقرب قوات الإمبراطورية إلى القوط الغربيين . وقد أسرع ليبورروس بالعبور وباغت القوط ونزل عند مدينة قادس Cadiz ونجح في الاستيلاء على الساحل الجنوبي . وكان من عوامل هذا النجاح مساعدة السكان الأصليين لقوات جستينيان ، بالاضافة إلى انضمام بعض الثوار لجيوش جستينيان ، كما أن الحرب الأهلية بين القوط قد أنهكت قواهم وأصبح من السهل على قوات جستينيان السيطرة على ما وقع تحت أيديها من أراضي . واستعد أجيلا لملاقاة ليبورروس والثوار بقيادة أثاناجيلد ، وتقدمت القوات القوطية جنوبا حتى وصلت أشبيلية حيث دارت معركة طاحنة هزم فيها أجيلا واضطر إلى الفرار من أرض المعركة عام ٥٥٤م .

وعقب هذه المعارك تنبه القوط إلى خطورة الموقف وشعروا أنهم دمروا أنفسهم بأيديهم وسهلوا مهمة القوات البيزنطية في السيطرة على اسبانيا . وبدأوا يعملون على توحيد صفوفهم مرة أخرى فقاموا بقتل أجيلا وعينوا بدلا منه زعيم الثوار أثاناجيلد (٥٥٤ - ٥٦٧م) . ولكن الوقت كان متأخرا إلى حد ما ، فقد سيطرت القوات البيزنطية على عدد من المدن الساحلية والداخلية منها قادس وملقا وقرطاجنه وقرطبة وغرناطة .

كانت سياسة القوط في هذه المرحلة تهدف إلى اجلاء القوات البيزنطية عن اسبانيا فاستعد أثاناجيلد لملاقاة القوات البيزنطية وتجح فعلا في إلحاق بعض الهزائم بها في عدة معارك ، ولكنه لم ينتصر عليها إنتصارا حاسما يجبرها على الجلاء ، وظلت القوات البيزنطية مسيطرة على المدن التي استولت عليها . وفي النهاية تم عقد الصلح بين الطرفين احتفظ بموجبه كل من الطرفين بما تحت يده من أراضي . ولم تتمكن القوات البيزنطية بعد ذلك من التوسع في اسبانيا لعدة أسباب ، نذكر منها طبيعة البلاد الاسبانية وجبالها الوعرة وانشغال قوات الامبراطورية البيزنطية بالحرب في جبهات أخرى ، هذا بالاضافة الى انتهاء الحرب الأهلية ووقوف القوط صفا واحدا ضد قوات جستينيان .

ويرى بعض المؤرخين أن حملة جستينيان على اسبانيا كانت فاشلة لأنها لم تتمكن من استعادة اسبانيا تماما إلى حظيرة الامبراطورية البيزنطية ، بينما يرى آخرون أن جستينيان قد حقق نجاحا بالسيطرة على جانب كبير من اسبانيا وأنه استطاع أن يعيد إلى الامبراطورية الساحل الافريقي من الوندال ، وإيطاليا من القوط الشرقيين،وجانبا كبيرا من اسبانيا من القوط الغربيين .

نهاية عصر جستينيان

لم تتناسب مشاريع جستينيان العظيمة مع طاقة الامبراطورية المالية ، فالعظمة والبذخ والانشاء والتعمير في طول البلاد وعرضها فضلا عن الحرب التي خاضتها الامبراطورية قد تطلبت مالاً كثيراً عجزت عنه موارد الدولة . والحقيقة أن ما ساعد جستينيان على كل هذا هو الأموال الطائلة التي تركها الامبراطور جستين الأول . ومع نهاية عهد جستينيان عجزت الدولة عن القيام بالتزاماتها فتوقفت إصلاحاته وتناقص عدد قوات الجيش ، لذلك لجأ جستينيان إلى تغيير سياسته المالية وبدأ بزيادة الضرائب حتى أثقل كاهل الأهالي ، فعادت الأحزاب السياسية إلى الظهور مرة أخرى وقاموا بالاضطرابات داخل العاصمة .

ورغم هذا كله فليس من الصواب أن نحكم على عهد جستينيان بالأحداث الأخيرة في حياته ، فواقع الأمر كانت أهدافه في الاصلاح الداخلي رائعة ، وأن محاولاته في إعادة مجد الامبراطورية في أوروبا والساحل الأفريقي كانت عظيمة ، وأن ما بذله في محاولة توحيد كلمة الدولة والكنيسة كانت في مصلحة الاثنين معاً واصبحت مثلاً يحتذى على مر العصور ، وأن الجهود التي قام بها في تنظيم الإدارة والتشريع والقضاء كانت نابعة من رغبة أكيدة لنشر الأمن والعدل بين المواطنين .

خلفاء جستينيان

جستين الثاني ٥٦٥ - ٥٧٨ م

كان جستينيان يثق بابن أخته جستين ويستشيره في أمور الدولة ، وأحس مجلس الشيوخ بهذه الثقة لذلك رشحوه لتولي عرش الامبراطورية بعد جستينيان الذي لم يكن له ولدا يخلفه . والحقيقة أن الامبراطور جستين الثاني كان نشيطاً مجتهداً شجاعاً وأظهر الحزم في علاقته بالدول المجاورة خاصة البرابرة . وكان أول ما فعله هو الامتناع عن دفع الجزية للبرابرة التي كانت ترهق خزانة الدولة ، ثم بدأ في العناية بالجيش مرة أخرى واهتم بالناحية المالية من أجل رفاهية الشعب البيزنطي ورفع المعاناة عن كاهله . ولكن هذا الحال لم يستمر طويلاً ففي عام ٥٧٣ م أصيب بلوثة في عقله فقامت زوجته صوفيا بتصريف أمور الدولة يعاونها طيبريوس Tiberius قائد الحرس الامبراطوري وابن جستين الثاني بالتبني . وفي السنة التالية مُنح طيبريوس لقب قيصر ، وصرف أمور الدولة حتى مات جستين الثاني فتولى عرش الامبراطور .

طيبريوس ٥٧٨ - ٥٨٢ م

لم يقل طيبريوس رغبة في إصلاح حال الامبراطورية عن أسلافه ، وكانت خطته تنحصر في تخفيض الضرائب عل الأهالي معتمدا على

الأموال التي جمعها سلفه . وقد أدى هذا بدوره إلى أمرين ؛ أولهما ، تعلق الشعب به وحبه له ، وثانيهما ، أنه بدد ما جمعه سلفه من أموال في وقت قصير جدا . ولا شك أن ذلك سيكون له اثره الكبير على أحوال الامبراطورية في عصره وعصر خلفائه من بعده ، خاصة وأن الأخطار الخارجية في الشرق والغرب بدأت تتزايد يوما بعد آخر .

موريس Maurice ٦٨٣ - ٦٠٢ م

تولى عرش الامبراطور في الثالثة والأربعين من عمره ، وكان ذكياً قديراً مثقفاً ، وعمل لبعض الوقت في الإدارة القضائية ثم التحق بخدمة الجيش حتى أصبح قائد الحرس الامبراطوري . واسترعى الشاب انتباه الامبراطور طيبريوس فزوجه من ابنته في عام ٥٨٢ م وبعد وفاته أصبح إمبراطورا . والمعروف عن موريس أنه كان عادلاً بغير لين حازماً دون قسوة ، فأحبه الشعب والجيش واحترمه . ويبدو أن خبرات موريس في الأعمال الادارية ثم الجيش قد صقلته وأصبح خبيراً في شؤون الدولة ، فاهتم بإصلاح الجيش والإدارة والنواحي المالية . ولكي يوازن بين إيرادات الدولة ومصروفاتها ويعالج الخلل الذي خلفه له سلفه الامبراطور طيبريوس نجده يعارض التبذير ويوجب الاقتصاد في النفقات ويلغي ما هو غير ضروري .

السياسة الخارجية لخلفاء جستينيان

لقد ورث خلفاء جستينيان مع العرش الامبراطوري امبراطورية مثقلة بالأعباء المالية وحكومة يتولى أمرها جمع من الموظفين الفاسدين الذين جبلوا على الرشوة وابتزاز الأموال ، وفوق هذا كله الإنقسامات الدينية التي هددت كيان الامبراطورية ، فضلاً عن الأخطار الخارجية . ولم يكن الجيش بالعدد الكافي الذي يمكنه من صد هذه الأخطار . وأن ما فرضه الفرس والآفار من شروط لم يكن له سوى مخرجين ، إما الاستسلام لهذه الشروط وإما الحرب . ورغم عدم وجود المال والقوات العسكرية فإن أول

خليفة للإمبراطور جستينيان وهو جستين الثاني قد فضل الحرب على الاستسلام . فأشعل الحرب مع الدولة الفارسية وأحرز نصراً مؤقتاً على الجيوش الفارسية عند مدينة دارا عام ٥٧٣ م ، ولم يُعالج الموقف إلا في عهد طيبريوس وهو الجندي الكفء الذي بدأ عهداً جديداً في السياسة الخارجية أكثر تناسباً مع موقف الإمبراطورية .

أحس طيبريوس بالموقف الحرج للإمبراطورية في الشرق والغرب ، فأعد نفسه للتنازل عن بعض أراضي الإمبراطورية للآفار النازلين بمنطقة الدانوب ، ولم يهتم إلا بالاحتفاظ بمدينة سرميوم Sirmium لموقعها الهام ، ثم تنازل عنها في وقت لاحق . أما عن الحرب الفارسية فقد ظلت تسير سيراً بطيئاً حتى عهد الامبراطور موريس عندما التمس كسرى الثاني (٥٩٠ ـ ٦٣٨ م) في عام ٥٩١ م عون البيزنطيين لتثبيت أقدامه في عرش الفرس الذي ناله بالثورة ، وكان السلم هو شرط موريس لإنهاء الحرب . واستراحت الامبراطورية البيزنطية من الخطر الفارسي في هذه المرحلة فحولت قواتها إلى الغرب في محاولة لاسترداد أملاكها من الآفار . ويبدو أن موريس أرهق جنوده في القتال لدرجة كبيرة ولم يسمح لهم بالعودة إلى العاصمة لقضاء فصل الشتاء فتمردوا عليه ونادوا بأحد القادة العسكريين ويدعى فوقاس Phocas إمبراطوراً ، ورحب أهالي القسطنطينية بالامبراطور الجديد لما عانوه من الاجراءات الصارمة التي كان موريس قد فرضها .

فوقاس ٦٠٢ ـ ٦١٠ م

لاح شبح الفوضى في عهد الامبراطور فوقاس ، واشتد النزاع بين الأحزاب داخل المدن الكبرى ، كما أنزل فوقاس الاضطهاد باتباع مذهب الطبيعة الواحدة ، وقد أدى هذا إلى نفور الولايات الشرقية وإعلانها راية العصيان . وكان في ذلك كله فرصة سانحة للفرس للتقدم إلى الأراضي البيزنطية التي لم يكن بها من يدافع عنها فاخترقت الحدود الأرمينية وتوغلت في آسيا الصغرى حتى مدينة خلقدونية فضلا عن تقدمها في منطقة الشام الجنوبية . وزاد المشكلة تعقيدا انتشار الوباء فقلت المؤن، فضجر الاهالي

حتى أن حزب الخضر الذي كان يساند الامبراطور رفع عليه راية العصيان وندد به . ولم ينقذ البلاد من هذه الفوضى إلا أهالي القسطنطينية الذين راسلوا هرقل Heraclius حاكم الشمال الأفريقي لينقذ الامبراطورية مما حل بها .

وما يعنينا في هذه المرحلة هو ما استجد على الساحة الأوروبية بعد وفاة جستنيان ، ولعل أهم الأحداث كان الغزو اللمباردي لايطاليا .

اللومبارديون

يرجع موطنهم الأصلي إلى إقليم نهر الألب ، وعند نهاية القرن الخامس الميلادي تمكنوا من السيطرة على هنغاريا وأصبحوا السلطة الحاكمة فيها وتوسعوا بعد ذلك حتى وصلوا إلى نهر الدانوب . ومع هذا التوسع والاستقرار زادت قوة الملكية واعتنقوا المسيحية على المذهب الأريوسي . وفي عهد جستينيان كان اللومبارديون من القوى الأساسية على حدود الدانوب، ورغم ذلك تمكن جستينيان من الاحتفاظ بمدينة سرميوم التي تعتبر مفتاحاً لهذه المنطقة . ولكن الحال تبدل عندما بدأ الأفار يصلون إلى المنطقة . وفي بداية الأمر تمكن الأفار من التحالف مع اللمبارديين لضرب الجيبدي ونجحوا في ذلك . ولكن اللمبارديين ما لبثوا أن اكتشفوا أنهم واقعين تحت الأفار ، وهذا ما دفع باللمبارديين إلى الهجرة إلى إيطاليا في عام ٥٦٨ م تحت زعامة البوين Alboin . ومما سهل عليهم دخول ايطاليا أن الحاكم البيزنطي نارسيس كان قد استدعي للقسطنطينية في ذلك الوقت ، فلم يبد المدافعون عن مدن إيطاليا الأمامية أية مقاومة فعالة . واستمر اللمبارديون في زحفهم وحروبهم حتى دخلوا ميلانو في عام ٥٧٠ م ثم استولوا بعد حصار طويل على مدينة بافيا Pavia التي اتخذوها عاصمة لهم،وبذلك خضع الجزء الشمالي من إيطاليا للمبارديين ولم تنجح الجهود البيزنطية في دفع اللومبارديين عن الأراضي التي استولوا عليها في الشمال ؛ يضاف إلى ذلك أن جماعتين من اللومبارد اتجهوا جنوباً وأسسوا دوقيتي سبولتو Spoleto وبنفنتو Benevento .

مات البوين في عام ٥٧٢ م فاختار الأدواق اللمبارديون كليفو Clepho ولكنه لقي مصرعه في العام التالي ، وظل العرش اللمباردي شاغراً مدة تقرب من العشر سنوات ، ورغم هذا فقد واصل الأدواق اللمبارديون عملية التوسع في ايطاليا . ومع مرور الوقت استقر الادواق في المناطق التي سيطروا عليها وأقام كل واحد منهم فيها ما يعرف بالدوقية ، وتحولت هذه الدوقيات التي بلغ عددها ما يقرب من الخمسة وثلاثين دوقية إلى أملاك مستقلة . وسيكون لهذا الانقسام أثره في تاريخ ايطاليا في هذه المرحلة ، لأن أعداء اللومبارديين سواء أكانوا من الأباطرة أو البابوات أو من الفرنجة ، كانوا يعتمدون في كثير من الأحيان على أحد الأدواق الأقوياء ضد بقية الأدواق اللمبارديين. ومن هنا لم يتمكن أدواق اللمبارديين من اكتمال فتح ايطاليا بسبب هذا الانقسام ، ورغم هذا الانقسام لم تتمكن الامبراطورية البيزنطية من القضاء عليهم بسبب انشغالها في الحرب مع الفرس وعدم إمكان تدبير الجنود للجناح الغربي، يضاف إلى ذلك أن البابوية كانت لا تزال ضعيفة في هذه المرحلة ولم يكن بوسعها أن تحشد الجيوش لضرب اللومبارديين،ولعل ذلك مرجعه إلى أن معظم العناصر الجرمانية كانت لا تزال تدين بالمسيحية على المذهب الأريوسي مثل اللمبارديين .

وحول استقرار اللمبارديين في بعض الأراضي الايطالية نقول أن هؤلاء اللمبارديين كانوا يعتبرون السكان الأصليين رعايا ويعاملونهم معاملة الفلاحين الذين يفلحون الأرض لسادتهم المحاربين. فقد استولوا على أراضيهم وماشيتهم وأغنامهم ومنازلهم وصادروا أموالهم ، كما استولى اللمبارديون على ممتلكات الكنيسة دون رادع لأن اللمبارديين الايرسيين لم يحترموا حقوق الكنيسة الكاثوليكية . ومع بقاء اللمبارديين في ايطاليا تلاشت العشيرة رويداً رويداً وحلت محلها الدوقية التي صارت الوحدة الرئيسية في المجتمع اللومباردي الجديد وظلت المدينة الرئيسية في الدوقية هي مقر الحكم والإدارة .

ظل اللمبارديون في هذه الظروف حتى اختير ابن كليفو وهو أوثاري

Authari ملكاً عليهم ٥٨٣ ـ ٥٩٠ م ، فعادت الملكية مرة أخرى . وبفضل الاعتداد بالسلطة المركزية لم يكتف اللومبارديون بالمحافظة على الأراضي التي استولوا عليها بل وسعوا رقعة هذه الأراضي على حساب الامبراطورية البيزنطية . وحاولت بيزنطة جاهدة بالتحالف مع الفرنجة ضرب اللومبارديين، ولكن أوثاري تمكن من القضاء على التحالف البيزنطي الفرنجي وساعده في ذلك عدم الثقة المتبادلة بين الطرفين المتحالفين، وتهيأ للمبارديين في إيطاليا مدة قرن ونصف من الزمان تمكنوا خلالها من إرساء قواعد حكمهم في جانب كبير من إيطاليا .

ويمكن تلخيص تاريخ إيطاليا في الفترة من ٦٠٠ إلى ٨٠٠ م أنه تاريخ نضال بين قوى خمسة لا تتفق أهدافها مع بعضها البعض ، وهذه القوى الخمس هي الامبراطورية البيزنطية واللمبارديون ودولة الفرنجة والبابوية وأخيراً دوقيتا سبولتو وبنفنتو.ويمكن القول أن دولتين من هذه القوى الخمس وهما مملكة اللومبارديين والامبراطورية البيزنيطية قد فقدتا أثرهما الفعال عند نهاية القرن الثامن الميلادي ، أما دولة الفرنجة فقد لعبت دوراً كبيراً في النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي وإن كان تدخلها من قبل في شؤون إيطاليا على فترات متباعدة وبشكل مفاجىء . وفيما يتعلق بالبابوية فقد كان نفوذها مطرداً على مر الأيام وكان نفوذاً حقيقياً.أما عن القوة الخامسة وهي دوقيتي سبولتو وبنفنتو فقد لعبت دوراً كبيراً رغم ضآلة شأنهما، لأنهما كانتا تسيطران على خطوط المواصلات الداخلية وبما كانت تقومان به من حركات غير متوقعة وهجمات غير منتظرة .

وعلى أية حال فقد كانت السياسة الثابتة للملوك اللومبارديين هو إخضاع إيطاليا برمتها لحكمهم ولم يكن ذلك بالأمر اليسير ، فقد كانوا يلاقون مقاومة من القوى الأخرى، كما أن نواب الامبرطور البيزنطي في رافنا كانوا يستخدمون القوات اللمباردية للوقوف في وجه البابوات المتمردين ، واستعانت البابوية هي الأخرى بالملوك اللمبارديين لضرب كل من دوقية سبولتو وبنفنتو . كما كانت أهداف هاتين الدوقيتين هو

الاستقلال المحلي وتوسيع رقعة أراضيها على حساب جيرانها، فضلاً عن أن دولة الفرنجة كانت تعمل على إضعاف القوى الأخرى وتحين الفرص للإنقضاض عليها ، وهذا ما حدث عندما أغار شارلمان على إيطاليا عام ٧٧٤ م وأزال من الوجود دولة اللومبارديين المستقلة .

الفصل السابع

عظمة الدولة الميروفنجية وأفول نجمها

٥٦١ - ٦٨٧م

لوثير الأول وخلفاؤه

الصراع بين الملكية والنبلاء

لوثير الثاني ٦١٣ - ٦٢٨ م

داجوبرت الأول ٦٢٨ - ٦٣٨ م

نظار القصور

لوثير الأول وخلفاؤه

لم يذهب رد فعل الامبراطورية البيزنطية ضد البرابرة إلى أبعد من ايطاليا والساحل الافريقي وجانب من اسبانيا ، ولم يصل إلى بلاد الغال حيث كان هناك شعب آثر أن يحتفظ بقوته الجرمانية ، فقد كان الفرنجة في ظل حكم ابناء كلوفس يقسمون طاقتهم العسكرية بين جمهور من مختلف القبائل،ولكنهم رغم ذلك بسطوا سلطانهم وملكهم . وكانوا يلتفون أيضاً حول زعمائهم وفقاً للتقاليد الجرمانية ويبغون المخاطرة والغنائم رغم أنهم ظلوا أقل خضوعا وولاء لهؤلاء الزعماء . لقد هددوا ذات مرة بأن يتخلوا عن ملكهم إذا لم يقودهم إلى برجانديا، ومرة اخرى اساءوا معاملة الملك لوثير الأول Lothair I (٥٥٨ ـ ٥٦١م) الذي رفض أن يقودهم ضد السكسون . فقد تبدل اخلاصهم إلى عداء بعدما تحولت مجموعة من الرجال الأقوياء ـ وحدت بينهم المصالح المشتركة ـ يعرفون في التاريخ باسم اللويد Leudes ، إلى ارستقراطية معادية للملك . وقد نمت هذه الجماعة واستمدت قوتها من سيوفها واصبحت مرهوبة الجانب بفضل سواعدها القوية وامتلاكها الأراضي التي آلت اليها إما بالغزو أو بكرم الملك وسخائه .

لقد ازدهرت الارستقراطية اللويدية في اوستراسيا Austrasia التي

ظلت أقل تحضرا من نوستريا Neustria ، حيث كان هناك عنصر روماني قليل يقدم مساندته للملك ويروض التقاليد العتيقة لطبقة اللوريد . وقد أحدث هذا الاختلاف الواضح في الطبع مزيدا من الانفصال بين جزئي مملكة الفرنجة . ولذلك نجد أنه من النادر تعاون القسمين تحت حكم ابناء كلوفس . وسرعان ما أصبح كل جزء يعادي الجزء الآخر ويمثل مبدأ مناقضا لمبدأ الشطر الآخر . واستمر هذا الصراع بين الملكية والارستقراطية وبين نوستريا وأوستراسيا لقرن ونصف القرن من الزمان واستنفذ كل نشاط الفرنجة داخل حدودهم في حروب أهلية .

وبعد ثلاثة أعوام من الوحدة في ظل حكم لوثير الأول أصبحت مملكة الفرنجة مقسمة بعدما وزعت بين ابناء لوثير الأربعة . واصبح شاريبرت Charibert ملكا على باريس ، وجونثرام Gunthram ملكا على أورليانز وبرجاندية ، وسيجبرت Sigbert ملكا على استراسيا ، وشيلبريك Chilperic ملكا على سواسون ، كما امتلك كل منهم جزء من القسم الجنوبي كما حدث في تقسيم عام ٥١١ م بعد وفاة كلوفس . وعندما توفي شاريبرت عام ٥٦٧ م دون أن يعقب ولدا قسمت مملكته فيما عدا باريس التي اتفق على الا يدخلها احد من الملوك الثلاثة الباقين بدون موافقة الملكين الآخرين .

وبينما كان شيلبريك ، الملك النوستريانى ينظم القصائد باللاتينية ويتلقى جانبا من التعلم الروماني الذي هذب من فظاظة طبعه دون أن يلينه ، كان سيجبرت ملك اوستراسيا الذي لم يكن على درجة من التعليم حتى البسيط منه ، يرد بمقاتليه الموجات الأخيرة من الغزو البربري التي كانت تقتحم مرة اخرى المواقع الأوستراسية ، فهزم الآفار عام ٥٦٢ م ، ولكنه بعد ثلاثة أو اربعة أعوام وقع اسيرا في أيديهم فافتدى نفسه وانسحب هؤلاء البرابرة إلى الجنوب .

واستغل شيلبريك فرصة غيابه أسوأ استغلال فاستولى على مدينة ريمز

Rhcims ، وما أن أطلق سراح سيجبرت حتى هزمه ثم عفا عنه . واضيفت اسباب اخرى لهذا العداء مرجعه أن سيجبرت كان قد تزوج من برونهيلد Brunhild ابنة أثاناجيلد ملك القوط الغربيين . وكانت برونهيلد مثقفة وطموحة ومحبة للحضارة ، ورغب شيلبريك بدوره في زوجة يجري في عروقها الدم الملكي فتزوج من جلسونتا Gaileswintha شقيقة برونهيلد . وترتب على زواج شيلبريك غضب خليلته الجميلة المتغطرسة فريدجند Fredegund التي كانت تسيطر على الملك سيطرة تامة .

وذات يوم وجدت جلسونتا مخنوقة في مخدعها فحلت محلها فريد جند كملكة عام ٥٦٧ م . وأقسمت برونهيلد على الثأر لشقيقتها ، واندلعت الحرب بين نوستراسيا واوستريا . وقام جونترام بدور الوسيط الذي حافظ عليه طوال حكمه ، واستطاع أن ينهي هذا الخلاف برد المدن التي تلقتها جلسونتا كبائنة لها إلى برونهيلد .

وكان مصير حرب اخرى اشعلها غدر شيلبريك أن إنتهت عن طريق الوساطة نفسها ، وأخيرا عندما تفجرت حرب ثالثة كان سيجبرت اقل استعدادا للتسامح مع شقيقه الغادر فاستولى على كل ممتلكاته ونصبه أهل نوستريا ملكاً عليهم ٥٧٥ م . وفي أثناء الاحتفال وعندما كان محمولاً على دروع مواطنيه ، طعنه أنصار فريدجند بتحريض منها في جنبه بالخناجر المسمومة .

ووجدت برونهيلد نفسها أسيرة في باريس مع وحيدها شيلدبرت الثاني Childbert II ، ولكن نبيلا أوستراسيا استطاع أن يخلص الأمير الشاب ، ولما كان شيلدبرت قاصراً فقد حكم الاوستراسيين ناظر القصر Mayor of The Palace .

كان هذا أول ظهور لهذا المنصب الهام الذي زادت سلطته أثناء الحروب الاهلية ولعب دورا هاما في القرن التالي . وأصل هذا المنصب غير معروف ، وربما تفرع عن وظيفة ناظر الخاصة بقصر الملك Major

Domus الذي زاد نفوذه كما هو المعتاد دائما في مثل هذه الظروف ، أو القاضي الجنائي Mord dom الذي اتسعت سلطته .

وعلى أي حال فإن ناظر القصر أصبح الشخصية الأولى التي يختارها النبلاء من بينهم ، وبالتالي كان مخلصا لمصالحهم وقويا بتأييدهم ، وسيطر هذا الناظر على الملوك الضعفاء بصفة خاصة . وزادت سلطته إلى درجة أنه كان يحل محل الملك نفسه . .

الصراع بين الملكية والنبلاء

ونحن في هذه المرحلة لا ندخل في تفاصيل كثيرة وإنما نهتم بالتحالفات التي تكونت ثم تفككت ، والتي مات في غمارها شيلبريك بتحريض من فريدجند . ومن هذه الاحداث الهجمات اللمباردية على مقاطعة بروفنس Provence التي جانبها التوفيق في بداية الأمر وإنتصار الوالي مومولوس Mommolus ورد المغيريين على اعقابهم في الفترة من ٢٧٢- ٥٧٦ م . وانتصر الفرنجة في الجنوب والشرق على الغزاة الذين حاولوا انتزاع ثمار انتصارات الفرنجة .

والمهم أن السلطة الملكية أخذت تكتسب قوة ، وشرعت في جمع تقاليد الحكومة الامبراطورية التي كانت لا تزال حية بين الرومان الغاليين ، وحاولت الحكومة أن تعد نفسها لهذا الخطر، وعلى سبيل المثال أنشأ الملك شيلبريك ضرائب على الرغم من ضجر الفرنجة واستيائهم ، وساء الملك روح الاستقلال السائدة بينهم فأعدم الاساقفة الذين أصبحوا أقوياء بالايمان العميق للشعب والأوقاف الثرية التي خصصت لكنائسهم . ولما كان بعض هؤلاء القساوسة يختارون من بين عناصر غير رومانية فقد اتحدت مصالحهم مع مصالح كبار النبلاء وهنا كان مكمن الخطر .

وحاولت برونهيلد وهي ابنة ملك قوطي غربي أن تحقق سيادة المبادىء الرومانية التي كانت سائدة في قصر والدها وتنشرها في اوستراسيا، ولكن مثل

هذه المبادىء كان من الصعب تقبلها . ولذلك تآمر اللويديون والأساقفة في اوستراسيا ونوستريا للاستيلاء على السلطة في هاتين المملكتين بالاضافة إلى برجاندية. ولكن هذه المؤامرة احبطت لحظة القيام بها . وكان الأعدام مصير كبار المتآمرين ، وحوكم ايجيديوس Egidius أسقف ريمز أمام مجلس من الأساقفة وحكم عليه بالنفي لتورطه في المؤامرة .

انزعج جونترام وشيلدبرت لهذه الاحداث فبادر بوضع حداً للنزاع بينهما ، وبورك تحالفهما بمعاهدة اندلوت Andelot واصبح شيلديرت وريثا لعمه الذي لم يكن له ولدا . ولكن النبلاء كانوا على درجة من القوة حتى أنهم في اللحظة نفسها التي كانت القوات الملكية تحاول فيها بعد نصر مبدئي أن تكتسب قوتها من ذلك التحالف ، استطاعوا أن يحصلوا على ملكية وحق وراثة الأراضي التي منحت لهم . ومقابل ذلك وعدوا ألا يبدلوا ولاءهم من ملك إلى آخر حسب أهوائهم وتم الاتفاق على هذا الاساس عام ٥٨٧ م

مات جونترام في عام ٥٩٣ م، وتوحدت دولته مع شيلدبرت ولكن لمدة صغيرة . فقد توفي الأخير عام ٥٩٦ م وآلت اوستراسيا إلى ابنه ثيودبرت الثاني Theodebert II ، بينما حصل ابنه الآخر ثيودريك الثاني على برجاندية .

ونتج عن هذا الوضع أن أصبح حفيدا برونهيلد حاكمين ونجحت الجدة في السيطرة عليهما ، واخذت تحرضهما ضد لوثير الثاني ابن فريدجند ملك نوستريا الذي انتصر في البداية عند لاتوفاو Latofao القرية من سواسون عام ٥٩٦ م، ولكن لوثير الثاني هزم فيما بعد عام ٦٠٠ م ومرة أخرى بالقرب من ايتامبس Etampes عام ٦٠٤ م. وفي المعركة الاخيرة لاحت نهاية لوثير الثاني لو لم ينقذه ملك اوستراسيا ثيودبرت بعقد الصلح .

استبد الغيظ بالجدة برونهيلد لضياع الثأر الذي أخذت تعد له منذ ثلاثين عاما ، فحرضت ثيودريك على مهاجمة شقيقه ثيودبرت . وهاجم

ثيودريك أخيه ثيودبرت وهزمه وقتل جميع اولاده عام ٦١٢ م.

ونتج عن هذه الحروب أن حكمت برونهيلد ثلثي بلاد الغال وشجعت الفنون ، وشقت الطرق وشيدت الأديرة ، وهدمت ما تبقى من عبادة الأوثان ، كما قدمت المساعدات للبعثات التبشيرية التي اخذت تنشر المسيحية بين الأنجلو سكسونيين ، وكتب لها البابا جريجوري العظيم يهنئها على هذه الخطوة .

ولكن كل هذه الأعمال لم ترق في نظر النبلاء الذين أخذت تعاملهم بشدة متزايدة. كما أن رجال الدين ساءهم ما لقيه القديس كولومبان St. Clomban الذي كانت قد طردته من دير لوكسوي Luxeuilعندما تجاسر هذا القديس ووجه اليها اللوم الصريح على انغماس حفيدها في المجون وإن بإمكانها رده إلى طريق الصواب . ولعل ذلك مرجعه أن الجدة كانت تغض الطرف عن تصرفات الحفيد حتى تخلو لها ساحة الحكم .

وفي عام ٦١٣ م مات ثيودريك ملك برجاندية ، فاتصل نبلاء برجاندية واستراسيا سرا بالملك لوثير الثاني ملك نوستريا وعرضوا عليه أن يعترفوا به ملكا على كل البلاد اذا انقذهم من سيطرة برونهيلد ، فسار لوثير الثاني ضد برونهيلد التي تخلى عنها جنودها ووقعت اسيرة مع ابناء ثيودريك الأربعة ، فأمر لوثير الثاني بقتل الأمراء الأربعة ، وقيدت برونهيلد بذيل حصان جامح مزق جسدها وهو يعدو عام ٦١٣م.

لوثير الثاني ٦١٣ - ٦٢٨ م

حكم لوثير ملكا وحيدا على الدولة الميروفنجية بعد هذه الاحداث وعادت للدولة وحدتها بعد فترة من الانقسامات . ولعل أهم الاحداث في عهد لوثير الثاني هو انعقاد جمعية في باريس عام ٦١٤م. واشترك في هذه الجمعية تسعة وسبعون اسقفا وعدد كبير من النبلاء ، ويمكن اتخاذ هذا الوقت علامة على تزايد اختلاط الارستقراطية الدينية بالارستقراطية المدنية

في الاجتماعات السياسية الكبرى . ونتج عن اجتماع هذه الجمعية دستور ثابت يمكن اعتباره انتصارا لهذه الارستقراطية الثنائية التي لم يكن لوثير الثاني سوى اداة لها . وقرر هذا الدستور الغاء أية ضرائب غير عادية فرضها ابناء لوثير الأول الأربعة . كما استعاد النبلاء والكنائس الاملاك التي اخذت منهم . وتقرر ايضا إعطاء حق انتخاب الاساقفة الجدد لرجال الدين وسكان المدن ويكون للملك فقط حق التصديق . وبموجب هذا الدستور ايضا توسع القضاء الكنسي الذي يخضع له رجال الدين دون أي قضاء آخر ، وتقرر كذلك اختيار قضاة المحليات The Grafen من بين كبار ملاك المحليات، واخيرا الحكم بالاعدام على اي شخص يهدد أمن الدولة وسلامتها .

أما فيما يتعلق بمنصب ناظر القصر قد اقسم لوثير الثاني على أنه لن يسحب سلطاته ولن يتدخل في الانتخابات الخاصة بهذا المنصب الذي يشترك فيه كبار النبلاء . وقد أكمل ووطد هذا الدستور نتائج معاهدة اندلوت التي كانت برونهيلد قد خرجت على الكثير من مبادئها .

داجوبرت الأول ٦٢٨ - ٦٣٨ م

وفي عام ٦٢٢ م أحس الاوستراسيون بالملل من أن يحكمهم الملك نفسه الذي يحكم النوستراسيين ، فطلبوا من لوثير الثاني أن يعين لهم ملكا خاصا بهم ، ويبدو أن نفوذ النبلاء قد وصل إلى مرحلة كبيرة حتى أن لوثير قد انصاع لمطلبهم وارسل لهم ابنه داجوبرت Dagobert ولكن هذا الملك أعاد توحيد المملكتين مرة أخرى عند وفاة والده عام ٦٢٨ م

وواقع الأمر كان حكم داجوبرت قمة الحكم الميروفنجي في هذه المرحلة وحقق للفرنجة سيادة مرموقة في اوروبا الغربية . فقد وضع حدا لهجمات قبائل الوند Wends ، وهم جنس سلافي حكمهم الملك ساما Sama بعد أن خلصهم من الأفار . ولكي يقاوم داجوبرت هذه العناصر السلافية استخدم قبائل السكسون باعفائهم من الجزية التي كانوا يدفعونها وقدرها خمسمائة رأس من الماشية . كما خلص بافاريا من جماعة بلغارية

كانت قد لجأت اليه محتمية به فأمر بقتل إفرادها ، ولا غرابة في ذلك فقد كانت مثل هذه الأساليب هي سياسة العصر .

واذا كان ذلك على صعيد السياسة الخارجية ، فقد كان داجوبرت سيدا على كل بلاد الغال وسيطر عليها سيطرة تامة . وبعد وفاة شقيقه شاربيرت الذي كان قد تنازل له عن مقاطعة اكويتين ، ترك ابناء اخيه مالكين لدوقية تولوز ، ونجح ايضا في اجبار العناصر الجسكونية Gascony على الدخول في طاعته . واستمال كذلك عناصر البريتونيين الذين اعلنوا استقلالهم ،واتخذ دوقهم جوديكيل Judicaël لقب ملك ، فأرسل داجوبرت القديس إلوي Eloi سفيراً إلى جوديكيل ودعاه للحضور إلى قصره حيث استقبله بكل ترحاب وتكريم وحمله بالهدايا عام ٦٣٥ م .

وعهد داجوبرت بادارة شؤون الدولة إلى وزراء أكفاء كان من بينهم بيبن اللاندني Pepin of Landon ناظر قصر اوستراسيا ، وكونيبرت Cunibert أسقف كولوني ، وأرنولف Arnulf اسقف متيز . ولم يقتصر الأمرعلى ذلك، بل أن داجوبرت ذهب بنفسه إلى اوستراسيا وبرجانديا حيث اجتمع مع كبار النبلاء وصغارهم على حد سواء محاولا وضع حداً لاستعمال القوة بين الأهالي . كما إهتم بوضع القوانين وتصحيح بعضها . وازدهرت التجارة نتيجة للاتصالات الخارجية الواسعة . فقد عقد داجوبرت حلفا مع اللمبارديين في ايطاليا والقوط الغربيين في اسبانيا وبعث بسفارتين إلى الامبراطور البيزنطي هرقل .

وفي عهد داجوبرت ظهرت بوادر بعض الأعمال الصناعية الباهرة في أعمال الصانع القديس إلوي الذي صار اسقفا لمدينة نويون Noyon ،وفي تلاميذه ، كما إهتم داجوبرت بالبناء خاصة الديني منه فشيد دير سانت دنيس Saint Denis الذي وهب له سبعة وعشرين ضيعة . ويبدو أن هذا الدير كان عزيز على الملك حتى أنه عاش على مقربة منه .

توفي داجوبرت عام ٦٣٨ م، وبوفاته ذهبت عظمة الميروفنجيين

الذين استسلموا لدرجة كبيرة من الخمول الذي قضى على سلالتهم .

نظار القصور

بعد رحيل داجوبرت اخذ العنصر الميروفنجي في التدهور والانحلال، واصبح من الصعب التميز بين فترات التاريخ المضطرب للفرنجة بأسماء ملوكهم وانما بأسماء نظار القصور الذين كانوا فيما مضى قضاة المنازعات التي كانت تدور داخل القصر الملكي . فقد اصبح الملوك الميروفنجيون أدوات في أيدي نظار القصور يستخدمونهم في اضفاء السلطة على تصرفاتهم . لقد أبقى نظار القصر الملوك الصغار غرباء عن شؤون الحكم ونفوهم إلى الريف ، ثم كانوا يحضرونهم مرة في العام إلى الاجتماعات العامة وهم اشباح من السلطة .

وعلى الرغم من ذلك فقد تردد هؤلاء النظار في القضاء نهائيا على هذه الأسرة الميروفنجية التي كانت في حمى المكانة الشعبية ، والويل لأي ناظر يمس هذا التاج الذي كان في حمى هالة قديمة من الاحترام .

وعلى أية حال فبعد وفاة داجوبرت عام ٦٣٨ م حكم ولداه هما سيجبرت Sigibert ٦٣٤ - ٦٥٦ م، وكلوفس الثاني ٦٣٩ - ٦٥٧ ، وقد حكم الأول في اوستراسيا ، والثاني نوستريا وبرجاندية. وكان لكل من المملكتين ناظراً للقصر . وعندما توفي سيجبرت ٦٥٦ م حاول جريموالد Grimoald ناظر اوستراسيا أن يتوج ولده بدلا منه . ولما كان نبلاء اوسترا سيا لا يودون أن يكون عليهم ملك أقوى من الملك القديم ، لذلك رفضوا هذه الفكرة واتحدوا ضد نبلاء نوستريا وأعدموا الملك الغاصب وأباه عام ٦٦٢ . وقد وعى النظار الذين جاءوا بعد ذلك هذا الدرس ولم يفكروا في محاولة مشابهة لمدة قرن من الزمان .

وخلال هذه الفترة قدم نظار القصور خدمات جليلة للدولة وأحرزوا انتصارات باهرة ، وظهر منهم سلسلة من الرجال النابهين اعتاد الفرنجة

على رؤ يتهم يتولون امور الدولة أبا عن جد ، وعلى الرغم من ذلك ظل زعماء الارستقراطية الأوستراسية في نضالهم ضد الملكية .

ولقد وجدت هذه الملكية مدافعا قديرا نشطا في شخص ابروين Ebruin الذي تولى عمله كناظر للقصر عام ٦٦٠م في نوستريا وبرجاندية. وفي هذين القطرين كان ابروين يحكم النبلاء بيد من حديد . وعندما توفي لوثير الثالث (٦٥٧ - ٦٧٣ م) لم يستشر ابروين النبلاء في اختيار من يخلفه ، بل وضع بسلطته الخاصة احد ابناء كلوفس الثاني ملكا على العرش وهو ثيودريك الثالث . ولما كان من المعتاد أن يصادق الشعب على هذا الاجراء فقد رأى النبلاء في عمل ابروين ضربة موجهة ضد حقوقهم التقليدية ، فتجمعوا في الممالك الثلاث تحت قيادة ولفوالد Wulfoald ناظر استراسيا، والقديس ليجر Leger أسقف ارتون Autun ، وعزلوا ابروين وحبسوه في احد الاديرة ، وعين النبلاء شيلدريك الثاني ملك اوستراسيا ملكا على الممالك الثلاث ، وعين ولفوالد والقديس ليجر ناظرين .

لم يكن من السهل أن يستسلم شيلدريك مثل الملوك الآخرين ولم ترقه الطريقة التي انحاز بها القديس ليجر للنبلاء فاعتقله في دير لوكسوى ، وتجاوز شيلدريك حده وأمر بالقبض على احد النبلاء يدعى بوديلو Bodilo وجلده كالعبيد ، وقد كلفه هذا التجاوز حياته فقد اغتاله بوديلو عام ٦٧٣ م .

وسرعان ما اطلق سراح ابروين والقديس ليجر من الأسر واحتلا مركزيهما كقائدين للفريقين المتنازعين . وكان ابروين قد فقد ملكه ثيودريك الثالث الذي كان نبلاء نوستريا مناصرين له ، فوضع اوبرين ملكا آخر مكانه إدعى أنه ابن لوثير الثالث . وكون اوبرين جيشا من المرتزقة هزم به ثيودُريك الذي فقد أثناء فراره الخزانة الملكية مما ساعد ابروين ماليا لكي يصبح السيد المطلق للمملكة تحت حكم ثيودريك الثالث الذي نصب ملكا مرة اخرى .

وبدعوى معاقبة قتلة شيلدريك الثاني اعدم ابروين كثيرا من خصومه ومن بينهم القديس ليجر، ووزع املاكهم بالاضافة إلى كثير من الأملاك التي اخذها من الكنيسة على جنوده ، ولما وجد النبلاء انهم مطاردون رحل الكثيرون من نوستريا إلى اوستراسيا بل ذهب بعضهم إلى الجاسكونيين .

واحتج نبلاء اوستراسيا الذين عانوا من الاضطهاد باسم السلطة الملكية التي تعمل بذاتها احيانا في ظل حكم شيلدريك الثاني وأحيانا باسم ناظرها ابروين ، وتفاقم الأمر ، وقتل النبلاء ملكهم داجوبرت الثاني في عام ٦٧٨ م ولم ينصبوا ملكا مكانه ، بل عهدوا بالحكم الى اثنين هما مارتين Martin وبيبن الهرستالي Pepin of Heristal واطلقوا على كل منهما لقب امير الفرنجة او دوق الفرنجة .

كان هذان الرجلان من ذراري بيبن اللاندني وارنولف اسقف ميتز، وبذلك كانا متصلين بجميع الأسر الكبيرة في اوستراسيا ، وقد عزز مركزهما ضياعهما الواسعة على ضفاف الراين ومركزهما المتوارث .

تصدى اوبرين لهذه المحاولة وانتصر على نبلاء اوستراسيا ، ولكنه اغتيل عام ٦٨١ م ولمع اسم بيبن الهرستالي . وفي معركة ترتري Tertry التي وقعت احداثها عام ٦٨٧ م تأكد النصر النهائي ضد نوستريا .

والسبب الرئيسي في هذا النزاع المرير مع النبلاء يرجع إلى موضوع حق وراثة الأرض ، وهو موضوع رئيسي يتوقف عليه المكانة السياسية والاجتماعية للفرنجة ، ووفقا لحق الوراثة الذي يقل او يزيد بتغير مكانه الفرنجي . ومن هنا نجد مبدأ تخصيص المنح الملكية والتعدي على السلطة الملكية كذلك ، ثم انتقل إلى الاشياء الاخرى ، وتطور بعد ذلك حتى أنتج النظام الاقطاعي .

ويرجع حق الوراثة إلى أن الرئيس البربري كان يوزع قبل الغزو الجياد والرماح على رفاق السلاح ، وكان منح مثل هذه الأشياء يتم دون تحفظ ، وكان من يتلقاها يحتفظ بها طالما كانت صالحة للاستعمال حتى لو

ترك زعيمه . وكان من حق المحارب أن يوصي بها عند موته لأي شخص يشاء . ولم يكن هناك ضرر من ذلك لأن مثل هذه الأشياء يمكن تعويضها في عمليات غزو جديدة . ولكن المشكلة أن الرئيس كان يمنح بعض الاراضي بعد الغزو وليس من السهل تعويض الأرض بقدر تعويض السلاح . وهنا أدرك الملوك ضرورة تحديد وتقييد هباتهم من الأراضي . ومن هذه القيود ولاء من يحصل على المنحة وأن تكون المنحة طوال حياته فقط ولا تورث من بعده .

وكان الطبيعي أن يميل النبلاء إلى التخلص من شرط الولاء وعدم التقيد بالمدة وأن يكون من حقهم توريث الأرض لأولادهم . وفي فوضى العهود التي اعقبت عمليات الغزو نجحوا في ذلك ، وعندما استعاد الملوك قدرا من السلطة فرضوا بعض الضرائب لتعويض العجز الناشىء في ايرادات الأرض ، وتمرد الفرنجة على هذه الضرائب ولكنهم قبلوا الالتزام بالخدمة العسكرية التي تتفق وعاداتهم الجرمانية . ومن هنا كان للملك والنبلاء دوافع تفسر عنف النضال بين الطرفين . وكان لدى النبلاء الحرص والرغبة في تأمين مركز دائم لأنفسهم ولأسرهم من بعدهم ، ومن الجانب الآخر فإن متطلبات الدولة التي اخذت تنمو مع تقدم الحكومة أجبرت الملوك على المقاومة ، وكان في هذه المقاومة تدميرا لسلطانهم .

لقد وضح لنا أن النبلاء انتصروا في معاهدة اندلوت ولكن سرعان ما استعادت برونهيلد الأرض التي تخلى عليها جونترام وشيلبريك . وفي الدستور الذي وضعته جمعية باريس عام ٦١٤ م انتصر النبلاء مرة اخرى ، ولكن داجوبرت وابروين نجحا في ضربهم ، وحاولا ارساء المبادىء القديمة للأراضي . وعلى أية حال فقد كان حق الارث موضع اعتراض قوي احيانا ينتصر واخرى ينهزم ، ثم توطد بالتدريج حتى تحقق بعد قرنين من الزمان في ظل الأقطاع .

الفصل الثامن

نظار اوستراسيا والكنيسة
٦٨٧ – ٧٦٨م

بيبن الهرستالي (ت ٧١٤م)

شارل مارتل (ت ٧٤١م)

المجتمع الكنسي

الرهبانية

الصراع بين البابارية وبيزنطة

بيبن الثالث (ت ٧٦٨م)

بيبن الهرستالي (ت ٧١٤ م)

تناولنا في الفصول السابقة تاريخ الفرنجة حتى عام ٦٨١ م حين فشلت محاولة ابروين بموته وضع السلطة في أيدي ملوك نوستريا . ولم يكن النظار الذين خلفوه على درجة كافية من القوة للإستمرار في هذا النضال الذي بدأه . كما أن سوء تصرف نظار القصور ألجأ الكثير إلى صفوف جيش اوستراسيا حتى بلغ هذا الجيش أخيراً مرحلة استطاع فيها ان يغزو ، لأن وضعه على ضفاف نهر الراين وعلى مقربة من البرابرة حتم عليه ان يحتفظ بقوة ضاربة كبيرة ، وهي القوة التي افتقرت اليها نوستريا . وكان من شأن هذا الجيش ان يعجل بانتصار اوستراسيا لولا ابروين .

والمهم أن بيبن الهرستالي أصبح بعد معركة ترترى عام ٦٨٧ م سيداً على الممالك الفرنجية الثلاث وهي اوستراسيا ونوستريا وبرجاندية، وسُمح للملك ثيودريك الثالث ملك نوستريا (٦٧٣ - ٦٧٨ م) أن يحكم الممالك الثلاثة ٦٧٨ - ٦٩١ م . وهكذا لم يعد العرش إلى اوستريا ولكنه ظل في نوستريا. وحكم مع بيبن على هذا النحو ثلاثة ملوك من الفرنجة حتى توفي عام ٧١٤ م .

وكان من حق اسرته وراثةُ منصب نظارة القصر ، وهذا أمر لا نزاع

فيه . وعند وفاة بيين ترك الحق لحفيده . وهو طفل في السادسة من عمره تحت وصاية أرملته بلكترود Plectrude . .

وحاول سكان نوستريا استغلال تولي هذا القاصر للنظارة ليحرروا أنفسهم من سلطة الاوستراسيين ، فهزموا اوستراسيا ونصبوا شيلبريك ملكاً عليهم وعينوا راجانفرد Raganfred ناظراً للقصر في نوستريا . كما لم يرض الاوستراسيون على الخضوع لطفل وامرأة فاعترفوا بإبن آخر لبيين الهرستالي هو شارل المعروف بإسم شارل مارتل Charles Martel ، يرى البعض انه ابن غير شرعي لبيين الهرستالي . .

تحالف النوستريون مع الفريزيان لكي يضعوا اوستراسيا بين فكي كماشه ، وهُزم شارل مارتل في المعركة الأولى عام ٧١٦ م ، ولكنه فاجأ الغزاة في العام التالي وانتصر عليهم في فينسي Vincy عام ٧١٧ م . ولم يتوقف شارل مارتل بعد هذا النصر للاحتفال به طبقاً للعادات الجرمانية بل لاحق النوستوريين حتى أسوار باريس وهزمهم . ولجأ النوستوريون الى اكويتين وتحالفوا مع دوقها يودس Eudes . وكان مصير هذا التحالف الفشل مثل التحالف الأول ، فقد هزمهم شارل مارتل عند مدينة سواسون عام ٧١٨م . ولم يكتف شارل مارتل بذلك بل طاردهم حتى أورليانز ، وفي نهاية الأمر سلم يودس حليفه شيلبريك الثاني إلى شارل مارتل الذي اعترف به ملكاً على كل الفرنجة . وظل شيلبريك ملكاً حتى ٧٢٠ م .

كان هذا الانتصار مكملاً لانتصار بين الهرستالي في معركة ترتري عام ٦٨٧ م وعلامة على النصر النهائي لأوستراسيا وبداية عهد جديد في تاريخ الفرنجة . وواقع الأمر أن كل المؤسسات الفرنجية قد انهارت ولم يُقدر لنظام جديد أن يظهر ويتبلور . فقد كانت البلاد ممزقة وأقاليم الحدود معرضة اما للغزو او الاستقلال حتى أصبح من الصعب وضع حدود لدولة الفرنجة في هذه المرحلة .

وفي الداخل كان الصراع بين نوستريا واوستراسيا فضلاً عن الصراع

بين الملوك والنبلاء ونظار القصور ، واختلطت الأفكار الرومانية بالأفكار الجرمانية ، وقد اخذ مركز الأحرار في التدهور وتطاولت الإستقراطية العسكرية وكسبت مزيداً من القوة والسلطة ، كما كانت الملكية باقية دون سلطة ، وجمع نظار القصور كل السلطة بدون ان يكون لهم حقوق الملوك ، وهكذا بدت كل عناصر الدولة مختلطة ومضطربة .

شارل مارتل (ت ٧٤١ م)

وفي هذه المرحلة ظهرت الأسرة الكارولنجية ـ ذات الأصل النبيل ، التي تمكنت من اقرار النظام في مثل هذه المرحلة . ويتصدر هذه الأسرة شارل مارتل وبيبين القصير وشارلمان وقد عمل الثلاثة من أجل وحدة وتقوية دولة الفرنجة سواء بالحرب أو بالسلم .

سدد شارل مارتل ضربات سريعة للأطراف البعيدة وظلت حملاته مستمرة بين الشمال والجنوب فحارب البافاريين ثم قام بسلسلة ثانية من الحروب ضد الفريزيان، وثالثة ضد السكسون. ولكن أشهر غارات شارل مارتل العسكرية والتي اعطت شارل اسم مارتل (المطرقة) هي انتصاره على المسلمين . وقد اجتاح المسلمون اسبانيا عام ٧١١ م . وفي عام ٧٢٠ م عبروا جبال البرانس وفتحوا ناربون Narbonne . وفي عام ٧٣٢ م توغل المسلمون حتى مدينة تور . واسرع شارل مارتل للقاء المسلمين وفي معركة تور أو بواتيه انتصر شارل مارتل على المسلمين في العام نفسه وقتل في هذه المعركة عبد الرحمن الغافقي قائد الحملة . وترتب على نتائج هذه الحملة نتائج متعددة في العالم الأوروبي والعالم الاسلامي . ففي العالم الاسلامي وضعت حدا لتقدم المسلمين في أوروبا من هذا الجانب . أما في العالم الغربي فكان صداها كبيراً ورفعت من قدر الدولة الكارولنجية ومن اسم شارل مارتل بصفة خاصة ، ونظر اليه الفرنجة نظرة اجلال وإكبار ، وقد ساعده كل هذا على توحيد صفوف الفرنجة .

المجتمع الكنسي .

كانت العصور الوسطى تعترف بسيدين هما البابا والامبراطور، وهاتان القوتان جاءت احدهما من روما وهي البابوية والثانية من فرنسا

الأوستراسية . ولقد رأينا كيف أن ناظري اوستراسيا ـ ببين الهرستالى وشارل مارتل ـ اعادا بناء مملكة الفرنجة ومهدا الطريق لامبراطورية تولي أمرها شارلمان فيما بعد . وإذا انتقلنا إلى روما نجد أنها جمعت حولها كل كنائس الغرب ووضع البابا نفسه على رأس هذا المجتمع الكاثوليكي ومهد الطريق لخلفائه ليدعوا أنهم أصحاب السيطرة الوحيدة على هذا المجتمع .

وقد ساعد الكنيسة على تبوأ هذه المكانة الى جانب المكانة الروحية زوال الامبراطورية الرومانية، وتعثر الأمم البربرية في بناء دول ذات قوة ، ومن نجح منهم مثل الفرنجة كانت تنقصهم الخبرة فتعثروا في محاولاتهم . ومع هذا الاخفاق المتلاحق للدول البربرية اخذت الكنيسة تنمو ببطء ولكنه كان نمواً متيناً عبر القرون ، وواصلت الكنيسة النمو واكتسبت مزيداً من القوة من حيث الاتساع والوحدة ، نتيجة عوامل متعددة .

وقد ساعد الكنيسة النظرية البطرسية Petrine Theory وهذه النظرية تقول أن القديس بطرس باعتباره أمير الرسل قد عهد اليه بالسلطة العليا على الكنيسة ، ولقد سلم بطرس مكان الصدارة هذا لخلفائه اساقفة روما الذين بحكم مركزهم يجب أن تكون لهم الزعامة على الكنيسة وعلى سائر الاساقفة ، والفقرة التي بنيت عليها هذه النظرية توجد في انجيل متى (الاصحاح ١٦ فقرة ١٨) التي تقول « أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي »

وعلى أية حال فقد انتشر الانجيل بمواعظ الرسل وتلاميذهم في العالم الروماني ، وبات المسيحيون يشكلون نوعاً من المجتمع العريض داخل الامبراطورية . وابتداء من بريطانيا حتى ضفاف الفرات كان أي مسيحي مسافر ومعه خطاب من الاسقف يجد حيثما حل العون والحماية في الطريق . فكان يجد المساعدة المادية ان كان فقيراً والعون ان كان مريضاً،وكانت علامة الصليب تحل محل الكلمات ، وتفاهم المسيحيون

جميعاً بصرف النظر عن اللغة أو الدولة التي ينتمون اليها لأنهم جميعاً من اسرة واحدة وهي الأسرة المسيحية .

لقد نظم المجتمع نفسه أيام الاضطهاد الوثني على نظام صارم وتسلسل رئاسي منظم في غاية الدقة ، لقد تحولت مدن الاقاليم الرومانية إلى اسقفيات حكمها الاساقفة يليهم القساوسة . وكان الاسقف في البداية يعين بمعرفة الرسل ويكرسون بوضع الأيدي . وعندما كثر عدد الداخلين في الدين الجديد ، كان يتم اختيارهم بمعرفة مسيحيو المنطقة وينصبون بمعرفة الاساقفة في المنطقة ذاتها، ويصدق المطران على سلطانهم .

وتوضح خطابات سيدرنيوس ابوليناريس Sidonius Apollinaris انه في مدينة شالون Shalons وبروج Brugesفي القرن الخامس كانت الانتخابات تتم بالتصويت الشعبي . وفيما بعد نال رجال الدين نصيباً أكبر من الانتخابات الكنسية ومالوا الى استبعاد العامة ، ولكن ما فقده العامة في هذا الصدد اكتسبوه بفرض السلطة الملكية على الكنيسة .

وقسمت المناطق إلى اسقفيات يتولى أمرها الأساقفة، وانقسمت الاسقفيات إلى ابرشيات، يتولى امرها كاهن الابرشية او القس. وكانت الابرشيات مجتمعة تكون الاسقفية ، والاسقفيات المتحدة تؤلف كنيسة المنطقة التي يرأسها المطران . وفوق المطارنة تجد البطاركة .وكان البطاركة في العواصم الكبرى وهي القسطنطينية والاسكندرية وانطاكية وروما والقدس ومدينة قيصرية قبادوقية وقرطاج في تونس وهرقلية في تراقيا ، وكانت روما تعلو هذه الكراسي الرسولية بدرجة واحدة. ومن هذه النقطة المتميزة كانت تمارس سلطة عليا اعترفت بها كل الكنائس في مراحل متفاوتة .

وواقع الأمر ان التنظيم الكنسي لم يتم دفعه واحدة ، بل على مراحل متعددة وضعت خلالها سلطات واضحة ودقيقة . وفي خلال القرنين الخامس والسادس وفي ظل حكم ملوك البرابرة احتفظ الاساقفة بنفوذهم الذي اكتسبوه في ظل الامبراطورية الرومانية في المدن التي كثيراً ما حافظوا

عليها من الدمار خلال الغزو بعلاقاتهم مع الزعماء الجرمان وعملوا على توسيع هذا النفوذ . كما عزز من مكانه رجال الدين ثقافتهم ورفع مكانتهم لدى الملوك البرابرة . وهكذا نمت الكنيسة واجتمعت خمسة وعشرون جمعية دينية في بلاد الغال في القرن الخامس ، واربعة وخمسون في القرن السادس . ولكن هذا النفوذ ضعف في القرن السابع ولم نسمع الا عن عشرين مجلس ، وقل كثيراً في القرن الثامن فلم يكن هنالك سوى سبعة مجالس في فترة امتدت عشرين عاماً . ويرى البعض ان هذا الضعف مرجعه الى دخول بعض اشراف البرابرة في السلك الكنسي مما ترتب عليه الجهل والأغراض الدنيوية التي لا تتلاءم مع المصالح الدينية .

الرهبانية :

كان الهدف من نظام الأديرة قيام حياة أنقى وأكثر طهارة من الحياة المادية التي يحياها المسيحيون بصفة عامة . وفي بداية الأمر لم يكن الرهبان ضمن تعداد رجال الدين، كما كان الرهبان انفسهم لا يرغبون في ذلك . لقد كانوا من عامة الشعب المسيحي ممن يطمحون في أن يصلوا بالفضيلة الى حدودها القصوى . وبدأت الرهبانية في مصر ثم سوريا واستسلم الرهبان لحياة قاسية من الصوم والحرمان . ومن هذه الأمثلة القديس سمعان العمودي St. Simon the Stylite

والحق أن أمثلة من هذه المغالاة كانت تشاهد أحياناً في الغرب الأوروبي نتيجة الطابع البربري . ولكن رهبان الغرب بصفة عامة قاموا بما هو أفضل من مجرد تسليم انفسهم للزهد والصيام ، ففي وسط الاضطراب الذي سببه الغزو البربري فتحوا الملاجىء للإجتماع فيها، ووجدوا فيها الراحة والسكينة التي عزت في اماكن اخرى . كانت هذه الملاجىء خلال القرن الخامس توجد في أديرة القديس فيكتور St. Victor في مرسيليا واديرة ميلان وتور .

وفي هذه الأديرة دارت مجادلات حول القضاء والقدر، والنعمة الإلهية ،

والخطيئة، وفيها أيضاً عدلت قوانين الأديرة لتلائم طبيعة واحتياجات المناخ الأوروبي.

ومع بداية القرن السادس قام القديس بندكت النورسي Benedict of Nursia (٤٨٠ - ٥٤٣م) واعتزل في سن مبكرة، واشتهر بالورع والتقوى والتف حوله حشد من الرهبان، فانسحب الى مرتفعات مونت كاسينو Monte Cassino ووضع قانونه في عام ٥٢٩ م. وبذلك اعطى بندكت شكلاً محدداً للنظام الديري في الغرب الأوروبي. وفي هذه القواعد ورد تقسيم وقت الراهب ساعة بساعة ما بين العمل اليدوي والعقلي، من زراعة وقراءة ونسخ مخطوطات الخ.

وظهر بعد القديس بندكت شخصيات أخرى لعبت دوراً كبيراً في الرهابنة ونظامها في العصور الوسطى، نذكر منهم القديس بندكت الايناني Benedict Of Aniane (٧٥٠ - ٨٢١م). وقد آثار بندكت هذا قدراً عظيماً من النقاش حول المكانة التي يحتلها الراهب في المجتمع الديني. فقد كان الرهبان يرغبون ان يكونوا مسؤولين أمام رئيس الدير، ولكن النزعة نحو التنظيم التي تجلت في كل مكان جعلتهم يخضعون للأساقفة، وكان هذا أمراً ضرورياً للحفاظ على النظام ولقمع الرهبان الخارجين على النظام، لأن مجمع خلقدونية الذي عقد عام ٤٥١ م أمر بإخضاع الرهبان لسلطة الأساقفة، وأيد هذا الإجراء عدة مجالس أخرى كما حدث عام ٥٠٦ م. وفي عام ٧٨٧ م أعطى الحق لرؤساء الأديرة في إضفاء أقل الرتب على الرهبان الذين تحت امرتهم، فلم يبق راهب ليس بقسيس في الوقت ذاته.

ومنذ بداية التنظيم الكنسي كان لكلمة خليفة القديس بطرس وأسقف المدينة الخالدة روما السلطة العليا، لقد كان يستفتى في كل الأمور موضع الشك، وكان يعتبر منذ وقت مبكر ممثلاً للوحدة الكاثوليكية واعترف المجلس العام الذي عقد في القسطنطينية عام ٣٨١م بسمو هذا المركز وأصبح لأسقف القسطنطينية المركز الثاني، وأن كلمة Pope التي كانت

تطلق بصفة عامة على كل الاساقفة اقتصر استعمالها على من يشغل الكرسي البابوي في روما دون غيره .

كان أسقف روما يمتلك قدراً كبيراً من الأملاك في روما وفي سائر إيطاليا، كما اكتسب بعض هذه الأملاك في البلاد الواقعة وراء جبال الألب، وأصبح أسقف روما مسؤولاً عن إدارة هذه الأملاك . وفي روما نفسها ـ وهي اشهر مدن العالم ـ كان له السلطان القوي الذي منحه للأساقفة أثناء نظام المجالس البلدية في بداية القرن الخامس الميلادي وحتى سقوط الامبراطورية في الغرب .

وزاد من نفوذ بطريق روما ما قام به البطارقة من تصريف الشؤون العامة في اوقات الغزوات البربرية ولمع منهم ليو الأول (٤٤٠ ـ ٤٦١ م عندما نجح في صد قوات الهون بزعامة أتيلا، وقيام الامبراطور الشرقي فالنتينان الثالث بإصدار مرسوم تعهد فيه « بأن الكنيسة كلها تعترف برئيسها الروحي للمحافظة على السلام في كل مكان» .

ورغم أن القوط الشرقيين عاملوا كنيسة روما بكل احترام إلا أنها لم تحقق أي تقدم في عهدهم ، ولكن عندما انكسرت شوكتهم في عام ٥٣٦ م، وعادت روما مرة اخرى لسيطرة الامبراطور الشرقي، فقد كفل لها الامبراطور مستقبلاً زاهراً .

وعندما تدفق الغزو اللمباردي لم يعد الوالي الذي عهد إليه الامبراطور الشرقي يحكم الأقاليم الإيطالية التابعة له ، فقد كان له فقط سلطة مباشرة القوات العسكرية وكونتات نابلي وروما وجنوه وغير ذلك . ولم يعد الوالي قادراً على بسط سلطته على الشاطىء الغربي لإيطاليا، واقتصر على رافنا وأصبح يفصل بينه وبين روما العناصر اللمباردية التي استولت على مدينة سبولتو Spoleto .

وفي هذه المرحلة الحرجة ظهر البابا جريجوري العظيم (٥٩٠ ـ ٦٠٤ م ، سليل احد الأسر النبيلة ، فجمع بين عراقه الأصل وجلال

المنصب ، وذكاء العقل . وعندما تولى جريجورى هذا المنصب طرح عن نفسه مباهج الحياة واهتماماتها . وكانت خبرة جريجورى بهذا المنصب كبيرة، فقد أرسل إلى القسطنطينية حوالي عام ٥٧٩ م كمبعوث من قبل البابا وادى خدمات جليلة للكرسي البابوي في علاقاته بالامبراطورية ونضاله ضد العناصر اللمباردية .

ونتيجة لما قام به جريجورى رفعه رجال الدين وأعضاء مجلس الشيوخ في عام ٥٩٠ م الى الكرسي البابوي خلفا للبابا بلاجيوس Pilagius . ولما كان من الضروري في هذه المرحلة أن يصدق امبراطور القسطنطينية على انتخاب البابا فقد كتب اليه يلتمس عدم التصديق، ولكن الخطاب لم يصل ، وسرعان ما صدرت أوامر الامبراطور بالتصديق على الانتخاب ، فاختفى جريجورى ولكن سرعان ما اكتشف مكانة وحمل الى روما ليتولى منصبه .

وما أن اصبح جريجورى بابا روما حتى كرس قوته لتدعيم البابوية ونشر المسيحية وتحسين نظم الكنيسة ، ولم يبتعد جريجورى عن الشؤون الدنيوية . فقد كانت الامبراطورية لا تعمل كثيراً لحماية ايطاليا لدرجة ان الجنود المكلفين بالدفاع عن روما ضد اللومبارديين لم يتقاضوا رواتبهم . فتدخل البابا ودفع لهم رواتبهم واشترك بنفسه في الدفاع عن روما وسلح رجال الدين للدفاع عنها ضد اللومبارديين. وعندما انسحب الملك اللومباردي أجيلوف Agilulf (٥٩٠ ـ ٦١٥ م) الذي كان السبب في كل هذه الاستعدادات ، تفاوض معه جريجورى بإسم روما على الرغم من احتجاج والي روما المعين من قبل الامبراطور البيزنطي .

وبعد ان وصل جريجورى إلى درجة من القوة بجهده الخاص حتى عمل على نشر المسيحية داخل وخارج حدود الامبراطورية ، فقد كان هناك بعض الوثنيين داخل الامبراطورية في صقلية وسردينيا وبعض الأماكن الأخرى، هذا فضلاً عن الكثير من العناصر الأريوسية مثل اللومبارديين في ايطاليا

وغيرهم،هذا بالإضافة الى انجلترا التي كانت اقرب الى الوثنية منها إلى المسيحية .

ولعب جريجورى دوراً هاماً في هذه المرحلة فأرسل المبشرين الى كافة الأرجاء وشدد عليهم في التزام الاعتدال ، ومن ضمن ما كتبه الى اوغسطين الذي ذهب ليبشر في الجزر البريطانية « احرص على عدم تدمير معابد الوثنيين ، ويكفي تدمير الاصنام ثم رش الصرح بالماء المقدس . واقم المذابح والمخلفات المقدسة ،وإذا كانت المعابد جديدة فمن الحكمة للمواطنيين ان ينتقلوا من عبادة الشياطين الى عبادة الله الحق ، لأنه الأمة طالما رأت أماكن عبادتها القديمة لا تزال باقية فإنها ستكون مستعدة بحكم العادة ان تذهب الى هناك لعبادة الله الحق» .

وفي الداخل نجح جريجوري في تنظيم مختلف درجات الوظائف الكنسية وإجبار الناس على الاعتراف بالسلطة العليا للكرسي المقدس . وكان على اتصال دائم بالأساقفة لتوجيههم، وذهب مبعوثيه إلى كل مكان في غاله وانجلترا وسالونيك والقسطنطينية . وفي رسالته الأبوية التي كتبها بمناسبة انتخابه والتي أصبحت سابقة مرعية في الغرب الأوروبي حدد للأساقفة واجباتهم العديدة طبقاً لقرارات المجالس المتعددة، كما حدد لهم سلطاتهم وعدم تعدي اسقف على سلطة اسقف آخر . وقد نظم جريجورى الأديرة وجعل الانضباط موضع اهتمامه .

وبعد جريجورى واصلت روما انتصاراتها وذهب رجال الدين الى أقطار بعيدة وبشر رجالها في فريزيا في منتصف القرن الثامن وبداية الثامن . وذهب بونيفاس Boniface الى بافاريا وأسس هناك ثلاث ابرشيات ثم عين بونيفاس في كنيسة متز عام٧٤٨ م، ثم ما لبث أن أصبح رئيساً دينياً على كل المانيا تحت سلطان الكرسي الرسولي في روما .

الصراع بين البابوية وبيزنطة :

لقد أصبح البابا في هذه المرحلة حاكم المسيحية ، إلا أن البابا كان من رعايا الامبراطور البيزنطي . ولما كانت سلطة البابوية آخذة في

الزيادة،في حين كانت سلطة الامبراطور آخذة في الضعف كان لا بد من الصدام بين السلطتين . وفي نهاية القرن السابع عندما رفض البابا سرجيوس الأول Sergius I ان يعترف بقرارات مجمع ترولو Trulloالذي انعقد عام ٦٩١م كان الصدام بين الامبراطورية في بيزنطة وبين البابوية في روما، وخطط الامبراطور جستنيان الثاني لعزل البابا ، ولكن الجنود رفضوا طاعة اوامر الامبراطور ، وثارت روما وتمردت وحدثت ثورات في البلاد ترتب عليها إعلان البنادقة استقلالهم كدوقية مستقله .

وحدث صدام مره اخرى بين البابوية والامبراطورية البيزنطية عندما انحاز الامبراطور ليو الثالث في عام ٧٢٦م الى جانب اللايقونيين الذين اعتبروا عبادة الصور عملاً وثنياً ، وأصدر مرسوماً ضد عبادة الصورة لينفذ في الأقاليم . ولما كانت صور القديسيين عزيزة لدى الايطاليين فهاجت روما وساند البابا جريجوري الثاني (٧١٣ - ٧٣١م) مواطنيه وكتب الى الامبراطور ليو يقول « أن السلطة المدنية هي الجسد والسلطة الكنسية هي الروح ، ان سيف العدالة في يدي القاضي ولكن هناك سيفاً اقوى هو سيف الحرمان وهو في يد رجال الدين ايها الطاغي ، لقد جئت تهاجمنا مسلحاً ، ونحن جميعاً عزل من السلاح لا نملك الا ان نلجأ الى يسوع المسيح ، أمير جيوش السماء ، وندعوه ان يرسل شيطاناً يدمر جسمك ويخلص روحك . لقد انحنى البرابرة تحت عظمة الكتاب المقدس ،وانت وحدك اصم لا تريد ان تسمع صوت الراعي» .

وعلى أية حال سواء كان موقف ليو الثالث من عبادة الايقونات سليماً أو عكس ذلك،فإن ما يهمنا في هذا الموضع هي الصيغة التي كتب بها البابا هذه الكلمات التي ان دلت فإنها تدل على لهجة قاسية لا تصدر إلا من شخصية تتمتع بنفوذ قوي

. ولم يقف الأمر عند هذا الحد فقد اتبع جريجورى هذه الرسائل بالالتجاء الى البنادقة والايطاليين ، كما أنه لجأ الى اللمبارديين الاريوسيين المذهب . وفي الوقت نفسه أغار ليوتبراند Liutprand ملك اللومبارديين

٧١٢ - ٧٤٤ م على أملاك الامبراطورية البيزنطية في شمال ايطاليا .

وتجدد الخطر نفسه مره اخرى في عهد البابا جريجورى الثالث ٧٣١ -٧٤١ م الذي لجأ الى اللمبارديين وهدد بهم من يتطاول على سلطته من العناصر الفرنجية .

وفي عهد الدولة الكارلنجية اتفقت وجهتي نظر حكام الدولة مع البابوية حيث كان أحد الفريقين يحاول الغزو بالسيف والآخر بالصليب ، وخرج المبشرون تحت رعاية الدولة لتحويل الوثنيين في المانيا إلى المسيحية ، ونقل البابا جريجوري الثالث الى شارل مارتل مفاتيح قبر القديس بطرس مع هدايا أخرى ، وطلب منه القدوم الى ايطاليا وتخليصها من يد اللومبارديين الذين باتوا يهددون روما تهديداً خطيراً ، ولم يكن لدى شارل مارتل الوقت لانجاز هذه الحملة .

ببين الثالث ٧٤١ - ٧٦٨ م .

خلف شارل مارتل ابنه ببين الثالث المعروف باسم ببين القصير وظل يعمل طوال عشر سنوات على تقوية مركزه ، وفي عام ٧٥١ أرسل الى البابا زكريا (٧٤١-٧٥٢م) يطلب تنحيه الملك الميروفنجي جانباً ويصبح ملكاً على الفرنجة . وكان البابا زكريا في حاجة الى حليف قوي في هذه المرحلة ، فقد انقطعت من قبل علاقات البابوية بالامبراطورية البيزنطية ، بسبب السياسة اللاايقونية التي اتبعها الاباطرة البيزنطيون . كما زالت آخر بقية للسيطرة البيزنطية في رافنا بعد حلول اللمبارديين في ايطاليا ، هؤلاء اللمبارديون الذين اخافت طموحاتهم البابا نفسه ، لذلك وافق البابا على الفكرة التي عرضها ببين .

وعلى ضوء موافقة البابا عقد ببين جمعية من النبلاء في الثاني من نوفمبر عام ٧٥١ م ، وجمعية اخرى في الثالث والعشرين من يناير عام ٧٥٢ م ، وحضر الأخيرة بعض رجال الدين وعلى رأسهم القديس بونيفاس ، وكلا الاجتماعين تم في مدينة سواسون ، وفيهما تقرر أن يكون

بيبن ملكاً على الفرنجة ، وهكذا انتهى حكم الاسرة الميروفنجية ٤٨٦ - ٧٥١ م وبدأ حكم الأسرة الكارولنجية (٧٥١ - ٩٨٧ م) وأرسل شيلدريك الثالث آخر الملوك الميروفنجين الى أحد الاديرة .

وتعززت الروابط بين البابوية وبيبن الثالث ، فقد خرج البابا ستيفن الثاني Stephen (٧٥٢ - ٧٥٧ م) من روما، وبما بطريقة سرية الى بيبن الثالث ، وفي هذه الزيارة وضعت معاهدة بين الطرفين حصلت البابوية بموجبها على ولاية رافنا وسائر الممتلكات البيزنطية السابقة في ايطاليا ، بالاضافة الى دوقيتي سبولتو Spoleto وبنفنتو Benvento . وتعرف هذه الحادثة في التاريخ باسم هبةبيبن . ومقابل ذلك قام البابا بتتويج بيبن مرة أخرى ملكاً على الفرنجة . ويعتبر ذلك الحادث من الحوادث الهامة في تاريخ روما في العصر الوسيط، لأنه أدى، لا إلى تأسيس الدولة البابوية فحسب، بل أدى كذلك الى حماية الكارولنجين لإيطاليا .

الفصل التاسع

الدولة الكارولنجية
شارلمان (٧٦٨ - ٨١٤م)

فتح اكويتين .
شارلمان واللمبارد في ايطاليا .
شارلمان والسكسون .
شارلمان والآفار .
الحرب البافارية .
شارلمان والمسلمون في اسبانيا .
إحياء الامبراطورية الرومانية .
الأحوال الداخلية .
أ - نظام الحكم
ب - الشؤون المالية
جـ - النهضة العلمية

شارلمان ٧٦٨ - ٨١٤ م

ترك بيبن الثالث ولدين هما شارلمان وهو الأكبر إذ يرى البعض أنه ولد عام ٧٤٢ م، وكارلومان Carloman وهو الأصغر إذ ولد عام ٧٥١ م. وكان لهما أخ ثالث يدعى بيبن مات وهو طفل، هذا بالاضافة إلى بنت هي جيزلا Gisela ولدت عام ٧٥٧ م.

وعندما توج البابا ستيفن الثالث بيبن ملكا على الفرنجة عام ٧٥٤ م، توج ولديه شارلمان وكارلومان كوليين للعهد. وعند وفاة بيبن عام ٧٦٨ م قسمت الدولة بين ولديه، ولكن كارلمان مات بعد ثلاثة أعوام، فأصبح شارلمان ملكاً وحيداً على الدولة الكارولنجية بعدما ضم املاك أخيه، وظلت كذلك حتى وفاة شارلمان عام ٨١٤ م.

وبرهن شارلمان على أنه جدير بهذا المنصب، فقد كان جسوراً غير متهور، سياسياً بارعاً، قديراً في شؤون الحكم والادارة. وظهر في أعين معاصريه نموذجا عسكرياً يجب طاعته. وترجع عظمة شارلمان إلى ما أنجزه في المجال الداخلي والخارجي. فقد كانت اصلاحاته الداخلية علامةٍ بارزة في عصره، كما كانت حروبه التي اتخذت الطابع الديني عملاً رائعاً في نظر معاصريه وصورت أعماله بطريقة أسطورية. وعلى أية حال

فإننا سوف نكتفي في هذه الصفحات بالقاء الضوء على حروب شارلمان ، واصلاحاته الداخلية ، واحياء الامبراطورية الرومانية المقدسة .

فتح أكويتين :

أنقذ شارل مارتل دوقية أكويتين من الغزو الاسلامي ، ومع ذلك ظلت هذه الدوقية من أشد ممتلكات الفرنجة اضطراباً، واهتم ببين الثالث بهذه المنطقة وانتزع جانباً من أراضيها وجعله وقفاً على الأديرة والكنائس ورضى أهل أكويتين بذلك مقابل قيام الفرنجة بالدفاع عنهم .

وعندما تولى أمرها ويفار Waifar لم يرض عن سيطرة الفرنجة ورجال الدين على أراضيه ، فقام في عام ٧٦٠م بوضع يده على ممتلكات الكنائس الفرنجية. انزعج ببين لهذا الأمر الذي يهدد مركزه كملك يحمي الكنيسة في روما ورجال دينها، واشتعلت الحرب بين الفرنجة وأكويتين. واستمرت حملات ببين على شكل حملات متواصلة حتى عام ٧٦٣ م. ثم توقفت مدة عامين لانشغال ببين بحروبه في بافاريا .

وعادت الحرب من جديد حوالي عام ٧٦٥ م ونجح ببين في عام ٧٦٨ م أن يستولي على اكويتين واخضعها لحكم رجاله من الفرنجة . وظل الحال هكذا حتى أصبح شارلمان ملكاً مع أخيه كارلومان .

وفي عام ٧٦٩ م قامت ثورة في أكويتين بزعامة الراهب هونرولد Hunrold والد ويفار، فاستعد شارلمان للقضاء على هذه الثورة وطلب من أخيه كارلومان المساعدة ولكن الأخ لم يتعاون مع أخيه في هذه المرحلة لأسباب تتعلق بحق الوراثة .

وواقع الأمر أن ثورة أكويتين لم تكن من الخطورة أو القوة التي يعجز عن اخمادها شارلمان، فقد نجحت قوات الفرنجة في مطاردة هونرولد واتباعه حتى خرجوا من البلاد . ولجأ هونرولد إلى ابن أخيه لوبوس Lupus حاكم جاسكونيا، فعبر شارلمان وقواته نهر الجارون وارسل إلى لوبوس يطلب منه

تسليم عمه أو الحرب . وبادر لويس بتقديم فروض الولاء والطاعه والاعلان عن تسليم عمه إلى شارلمان الذي عاد إلى بلاده بعد أن انتهت الحرب التي استمرت ما يقرب من سبع سنوات ، بعدما عين ابنه لويس حاكماً عليها (٧٩٤ - ٨١٣ م).

حروبه مع اللمبارد في ايطاليا :

وبداية هذه الأحداث في عصر شارلمان ترجع إلى عام ٧٧٠ م عندما تزوج شارلمان ابنه دسيدريوسDesiderius ملك اللمبارديين ٧٥٦ - ٧٧٤ م، وقد تم هذا الزواج تحت الحاح والدته رغم احتجاج البابا ستيفن الثالث الذي اعتبر هذا الزواج تحالفاً بين الفرنجة واللمبارديين اعداء البابوية . ولكن سرعان ما انفصل شارلمان عن زوجته اللومباردية وهو ما ارتاحت اليه البابا وية . وعند موت كارلومان عام ٧٧١ م غضبت زوجته من شارلمان لتجاهله حقوق أولادها في وراثة عرش زوجها وانضمت إلى مطلقه شارلمان في مدينة بافيا عاصمة اللمبارديين، ويبدو انها لعبت دوراً في تحريض ملك اللمباديين ضد شارلمان .

والواضح أن ملك اللمبارديين لم يكن في حاجة إلى التحريض فقد كان يرى في إستيلاء شارلمان على ممتلكات أخيه خطرا يهدده،كما أنه كان يرى ضرورة عودة الأراضي البيزنطية - التي منحت للبابوية طبقاً لهبة ببين الثالث - إلى حوزة اللمبارديين. لذلك كله قام في عام ٧٧٣ م بالاغارة على الممتلكات البابوية ، ولم يجد البابا ستيفن الثالث سبيلاً أمامه سوى الاستنجاد بالملك شارلمان .

وجاءت الدعوة لشارلمان في الوقت المناسب لعدة أسباب، منها أن شارلمان كان لا يرضى عن ايواء دسيدريوس لزوجة كارلمان وأولادها والحاحهم على البابا بأن يتوجهم ملوكاً في إرث أبيهم . كما أن شارلمان وجد في نجدة البابا الكاثوليكي المذهب وهو المذهب الذي يعتنقه شارلمان ضد اللمبارديين الاريسوبين فيه ما يرفع شأنه أمام الكنيسة والعالم المسيحي بأسره .

لذلك جمع شارلمان قواته عند مدينة جنيف وسار عبر جبال الألب . وفي أكتوبر عام ٧٧٣ م بدأ في حصار العاصمة بافيا وطال الحصار سبعة أشهر . وخلال فترة الحصار إتجه شارلمان إلى روما وتقابل مع البابا هادريان الأول Hadrian I (٧٧٢ ـ ٧٩٥ م) الذي جدد تأيده لملوك الفرنجة . وعلى أية حال فلم تتحمل مدينة بافيا وطأة الحصار وسقطت في يونيه ٧٧٤ م، وبسقوط بافيا سقطت الدولة اللمباردية إلى الأبد . وأمر شارلمان بوضع دسيدريوس آخر ملوك اللمبارد في أحد الأديرة ليقضي بقية حياته هناك ، وأضيفت الممالك اللمباردية إلى ممتلكات شارلمان .

وإذا نظرنا إلى نتائج هذه الحرب نجد أن شارلمان ساند البابارية وفي هذا اعلاء لشأنه في نظر المسيحيين ، كما أنه قضى على دولة اريوسية المذهب وفي ذلك نصر للبابارية وللمسيحية أيضاً، كما أن إضافة الممتلكات لدولة شارلمان فيه اعلاء لقدره وتوسيع لممتلكاته . والخلاصة هي زوال دولة اللمبارديين وتجدد التحالف بين البابارية وشارلمان .

شارلمان والسكسون :

استمرت الحروب مع العناصر السكسونية فترة طويلة تفوق في مدتها أي حرب أخرى خاضها شارلمان ، فقد دامت هذه الحرب من عام ٧٧٢م حتى عام ٨٠٤ م، قاد شارلمان خلالها حوالي ثلاثة عشر حملة . ويصعب علينا في هذا الموضع أن نتبع تلك الحروب بالتفصيل ولكن نكتفي بالقاء الضوء على معالمها وأهم أحداثها .

وترجع أسباب هذه الحروب إلى محاولة شارلمان ايقاف الغارات السكسونية على حدود دولته، ولذلك اتصفت هذه الحملات بطابع الغارات وليست بطابع الغزو . وترجع بدايتها إلى عام ٧٧٢م عندما عبر شارلمان الحدود وقام بحملة خاطفة دمر فيها بعض استحكامات العناصر السكسونية . وكرر شارلمان حملته في ٧٧٥ م وقام بالهجوم على اقليم وستفاليا، ولكنه لم

يسيطر عليه إلا في حملة قام بها في العام التالي (٧٧٦ م).

وفي عام ٧٧٩ م نجح شارلمان في هزيمة الزعيم السكسوني فيديكند Widikind الذي اعتدى على رجال الدين المبشرين الذين أرسلهم شارلمان لنشر المسيحية بين هذه العناصر الوثنية، وتعرف هذه المعركة باسم بوشولت Bochult . وعلى أثر هذا الانتصار عقد شارلمان إجتماعاً خصص فيه جانباً من الأراضي السكسونية للسفراء والمبعوثين والمبشرين من رجال الدين الفرنجة .

وتجددت الحرب مرة أخرى في عام ٧٨٤م عندما هاجم السكسون قوات شارلمان التي كانت في طريقها لمحاربة العناصر السلافية، وعلى أثر هذه الأحداث استعد شارلمان لملاقاة السكسون. ويبدو أنه صمم على إنزال ضربة قوية بهذه العناصر ، وقد نجح شارلمان في هزيمتهم ، وفي مدينة فردانVerden قتلت قوات شارلمان ما يقرب من خمسة آلاف من العناصر السكسونية صورتها المصادر انهما تمت بشراسة ووحشية .

ورغم ذلك لم تنته الحرب فكانت ثورات العناصر السكسونية وحملات شارلمان تسير بصورة تكاد لا تنقطع ، واضطر شارلمان في عام ٧٩٤ م إلى تهجير سبعة آلاف من العناصر السكسونية لتشتيتهم وتخفيف هجماتهم . وفي عام ٨٠٤ م كانت الهجمة الأخيرة التي اخضعت العناصر السكسونية لدولة شارلمان .

شارلمان والآفار :

جاء الآفار من أواسط آسيا ، وهم لا يختلفون عن العناصر المغولية فهم صفر البشرة ، منحرفو العيون ، وعظام خدودهم بارزة . واشتهر الآفار بالفروسية والرماية ، وعاشوا بدورحل لا دولة لهم . فهم قبائل متعددة كان لكل واحدة منها زعيما ، ولكل القبائل خاقان له السيادة العامة . وكان ظهورهم في أوروبا للمرة الأولى في النصف الثاني من القرن السادس

الميلادي ، فقد اغاروا على بانونيا ثم ما لبثوا أن هددوا القسطنطينية في عام ٦٢٦ م في عهد الامبراطور هرقل . ولم يكفوا عن تهديدهم للعاصمة البيزنطية إلا بعد حصولهم على الجزية .

انتهى المطاف بالأفار بالاستقرار عند نهر ثيس Theiss شمالي مدينة بلغراد الحالية ، وعاشوا على الرعي والغارات بغية السلب، وعندما ظهرت دولة بافاريا حالت بينهم وبين ايطاليا وغيرها . وتكدست لدى الأفار كنوز نهبوها من جيرانهم على مدى قرنين من الزمان، وقد وضعوا كنوزهم هذه في مكان عرف باسم الحلقة الكبيرة وأقاموا حولها تسعة أسوار لحمايتها .

وظهرت أخطار الأفار مرة أخرى عندما استنجد بهم دوق بافاريا في حروبه مع شارلمان، ولكنهم لم ينهضوا لمساعدته إلا في عام ٧٨٨ م أي في أواخر حرب بافاريا مع الفرنجة . ولعل سبب ذلك مرجعه إلى الانتظار إلى ما بعد الحرب التي يخرج المنتصر منها ضعيفاً فينالون منه .

والمهم أن الأفار تحركوا في عام ٧٨٨ م صوب بافاريا المهزومة والحدود الفرنجية الأمر الذي انزعج له شارلمان ، فاستعد لملاقاتهم عند الحدود وطال الانتظار إلى العام التالي (٧٨٩م). وأخيراً أرسل شارلمان تهديداً إلى خاقان الأفار يطلب منه الإنسحاب إلى بلاده وأن يتسامح مع المسيحيين الذين يقطنون الحدود ، ولكن الخاقان رفض وظلت الاستعدادات بين الطرفين للحرب المرتقبة .

لم يطق شارلمان صبراً ، ولما كانت قوات الأفار ليست بالقوات النظامية فقد لجأ شارلمان إلى طرق أخرى في القتال ، فقام بتقسيم جيشه إلى فرق لتهاجم الأفار من أماكن متعددة . أما شارلمان فقد توجه بنفسه على رأس فرقة وسار على امتداد الضفة الجنوبية لنهر الدانوب ، بينما سارت المؤن في السفن .

وعندما شاهد الأفار هذه الاستعدادات هالهم الفزع وتراجعوا ولقي الكثير منهم مصرعه أثناء الفرار ، كما سقط عدد كبير منهم في الأسر وتقدم

شارلمان على هذا النحو حتى اذعن نصف الأفار تقريباً ، ولكنه اضطر للعودة لاقتراب فصل الشتاء وعهد إلى أدواق بافاريا بحماية الحدود .

وجاءت الفرصة مرة أخرى في عام ٧٩٥م عندما قام نائب شارلمان في بافاريا بمهاجمة الأفار مستغلاً فرصة قيام الحروب الداخلية بينهم ، ونجحت قوات شارلمان في التوغل حتى الحلقة الكبيرة في عام ٧٩٦م واستولت على ما تبقى لديهم من كنوز دون مقاومة تذكر ، وانزلت الخراب بالمنطقة . واستسلم الأفار ودخل العديد منهم في الديانة المسيحية ، وانتهت أمة الأفار من الوجود لأن من تبقى منها اندمج في العناصر التي جابت هذه المنطقة .

الحرب البافارية

اعتنقت بافاريا الديانة المسيحية قبل وقت قصير من حكم شارلمان ، ودخلت في النظام العام لدولة الفرنجة، وتواجد بها العديد من الأديرة والكنائس والمبشرين . وفي الحروب السكسونية أظهر دوق بافاريا تاسيلو Tassilo قدراً كبيراً من الشجاعة .

وتمرد تاسيلو بعد سقوط الدولة اللمباردية بتحريض من زوجته الأميرة اللمباردية بعد ما ضاع ملك أبيها ونفي أخيها . ولم يعد تاسيلو يعترف بالولاء لمملكة الفرنجة، فعقد الجمعيات وأصدر القوانين واسقط اسم شارلمان وفصل رجال الدين عن كنيسة مملكة الفرنجة واتبعهم للبابا .

ولما كان شارلمان مشغولاً بالحرب السكسونية فقد لجأ الى البابا ليستخدم نفوذه في الضغط على تاسيلو، ونجح البابا في مهمته بمساعدة رجال الدين في بافاريا، وجدد تاسيلو ولاءه لشارلمان وقدم الرهائن تأكيداً للتبعية .

وعندما انتهت الحرب السكسونية تبين لشارلمان أن هناك سلسلة من المؤامرات تحاك ضده . وأن تاسيلو قد تورط فيها . وخاف تاسيلو ولجأ إلى البابوية يلتمس الوساطة ، ولكن شارلمان اكد خيانة تاسيلو، واقتنع البابا برأي

شارلمان، وهدد البابا بقرار الحرمان ضد البافاريين ما لم يخضعوا خضوعاً تاماً لشارلمان .

وفي خضم هذا الفزع من قرار الحرمان دعا شارلمان تاسيلو الى اجتماع،ولكن تاسيلو رفض الاذعان للأمر ، فما كان من شارلمان الا أن اعد قواته لمحاربة بافاريا . ولم يستطع تاسيلو دخول الحرب لأن البافاريين انفضوا من حوله خوفاً من قرار الحرمان وجيوش شارلمان . وعند هذه المرحلة أعلن تاسيلو خضوعه وحضر الى شارلمان مستسلماً وسلم دوقيه بافاريا عام ٧٨٧ م ، واكتفى شارلمان بهذا الاذلال واعاد الدوقية الى تاسيلو مقابل الولاء والتبعية ، وقدم تاسيلو ابنه رهينة دليلاً على ولائه .

ولكن تاسيلو عاد إلى التمرد مرة اخرى وبدأ يعمل على طرد اتباع شارلمان من بافاريا وأرسل إلى الآفار ،يطلب مساعدتهم. وعلم شارلمان بما يخططه تاسيلو ولكنه تظاهر بعكس ذلك ودعا تاسيلو إلى الإجتماع حيث تم القبض عليه وتقديمه للمحاكمة التي قضت بإعدامه ، ولكن شارلمان عفا عنه وأجبره على سلوك الرهبانية ،ثم ارسله واسرته الى اديرة متفرقة ليقضوا بها بقية حياتهم. ومنذ ذلك الوقت دخلت بافاريا في مملكة الفرنجة وقسمت إلى اجزاء ادارية يدين حكامها بالطاعة للفرنجة .

شارلمان والمسلمون في اسبانيا .

وإذا اردنا معرفة الدوافع التي دفعت شارلمان لمحاربة المسلمين في اسبانيا نجد الاسطورة تختلط بالواقع . فقد ورد في قصة توربين Turpin التي ترجع إلى القرن الثاني عشر ،أن شارلمان بعد أن استولى على العديد من الاراضي خلد الى الراحة. وبينما هو على هذا الحال كان يراقب السماء فاتجه ببصره نحو جليقيه (الجلالقة في المصادر العربية وهي الأن جزء من دولة البرتغال) ، وتعجب شارلمان لمثل هذا الأمر ولم يستطع تفسيره . وذكرت الاسطورة أيضاً ان القديس جيمس ـ الذي يرقد جثمانه في اسبانيا ـ ظهر لشارلمان ذات ليلة وهو نائم وقال له : أن جثمانه يرقد بعيداً ولا

يعرفه المسلمون أو المسيحيون وطالب شارلمان بالنهوض والاستيلاء على جليقية وتخليصها من أيدي المسلمين ، وتكرر ظهور الحلم ثلاث مرات ..

والواقع حسب ما صوره لنا اينهارت Einhard (ت ٨٤٠ م) مؤرخ شارلمان ، والمصادر العربية يتلخص في أن طائفة من الامراء المسلمين في الاندلس كانوا يعتبرون عبد الرحمن الداخل (١٣٨ ـ ١٧٢ هـ / ٧٥٦ ـ ٧٨٨ م) مغتصباً للحكم ، ولما يئسوا من مساعدة الخلافة العباسية في بغداد لجأوا إلى شارلمان .

وفي عام ٧٧٧ م إتصل عبد الرحمن بن حبيب الفهري وسليمان ابن يقظان الكلبي الأعرابي حاكم سرقسطه بشارلمان لقتال عبد الرحمن الداخل . وتم الاتفاق على دخول شارلمان بجيوشه حتى مدينة سرقسطه فيسلمها له سليمان ، وفي الوقت نفسه يحاصر الفهرى مدينة مرسيه ويقضون على عبد الرحمن الداخل .

وفي عام ٧٧٨ م سار شارلمان بجيش كبير ضم عناصر بافاريه ولومبارديه وبرجنديه وغيرهم . وتقسم الجيش الى فرق واتفقوا على الاجتماع عند سرقسطه . ولم يحالف شارلمان وحليفيه التوفيق لصعوبة تنفيذ الخطة في المواعيد المحددة . كما ان مدينة سرقسطة قاومت قوات شارلمان واجبرتها على التراجع .

واثناء تراجع قوات شارلمان من ممر جبال البرانس قام سكان المنطقة وهم قبائل الباسك بمهاجمة مؤخرة جيش شارلمان . ويقول اينهارت ان قبائل الباسك الكثيرة العدد تناثرت في أماكن عديدة ونصبت الكمائن العديدة لقوات شارلمان ،وفي اللحظة التي كان فيها جيش شارلمان يسير في صف طويل بين الجبال انقضوا على المؤخرة في معركة تعرف باسم رونسفو Roncevaux في الخامس عشر من اغسطس ٧٧٨ م وانزلوا بها القتل والنهب، وقتل في هذه المعركة قائد المؤخَرة رولاند Roland حاكم اقليم بريتاني . وقد ظهر في القرن الحادي عشر ملحمة تعرف باسم أنشودة

رولان نسب فيها مقتل رولان الى المسلمين واشتهرت هذه الانشودة بدرجة كبيرة إبان الحروب الصليبية لزيادة حماس المسيحين ضد المسلمين .

ولم ينته الصراع عند هذا الحد ، فقد أرسل شارلمان في عام ٩٧٥ جيشاً آخر إلى اسبانيا واستولى به على شريط ضيق في شمالي اسبانيا من الجانب الشرقي وعمل على تأمين هذا الساحل بالاضافة الى شواطىء اوروبا الجنوبية ضد هجمات المسلمين .

وإذا كان ذلك هو الحال مع شارلمان في إسبانيا الإسلامية ، فقد اختلف الحال في علاقة شارلمان بالخلافة العباسية في بغداد ، ولعل في بعد المسافة دور في العلاقات الطيبة التي سادت بينها . ولكن واقع الأمر أن شارلمان كان يعلم بالعداء القائم بين بغداد وقرطبة ، وان تقارب شارلمان لبغداد فيه تعميق للخلاف القائم بين الخلافة العباسية والخلافة الأموية بالأندلس .

إحياء الامبراطورية الرومانية ٨٠٠ م

كان الملوك الكارولنجيون مؤهلين جيداً لحمل رسالة الامبراطورية والنهوض بها ، فقد جمعوا بين البطولات العسكرية وبين المثالية الدينية في شدة إخلاصهم للكنيسة ، ولم يظهرا هذان العنصران بشكل ملموس الا في شخصية شارلمان . فقد كان الفاتح الاعظم في عصره لا يقصد التوسع بقدر ما كان يدافع عن الديانة المسيحية ووحدة العالم المسيحي .

فقد نجح شارلمان في القضاء على مملكة اللمبارديين الأريوسية المذهب وخلص البابارية من الخطر الذي هدد استقلالها قرنين من الزمان . كما أن حروبه ضد السكسون كان بسبب تصميمه على إزالة آخر بقايا الوثنية الجرمانية ، ثم انه هدم دولة الافار الوثنية وأراح أوروبا من الفزع الذي اصابها من هؤلاء . أما حروب شارلمان في اسبانيا ضد المسلمين فكانت أول رد فعل مسيحي ضد التوسع الإسلامي في اسبانيا ، ومن ذلك يتضح ان شارلمان استطاع خلال ثلاثين عاماً من الحروب أن يمد اطراف دولته

لتشمل جانباً كبيراً من أوروبا ، وأن يوحد العالم المسيحي الغربي في دولة عظيمة .

وترجع أحداث التتويج إلى البابا ليو الثالث ٧٩٥ - ٨١٦م. وكان للبابا اعداء الداء مي رجال الدين في روما، لأن هذه الفئة من رجال الدين كانت تريد انتخاب بابا يعمل لصالحها. ولتحقيق هذا الغرض خططوا لطرد البابا من منصبه فهاجموه في اخلاقه الشخصية، وتأزم الموقف ورفض البابا التخلي عن منصبه .

وارتاع الغرب المسيحي لهذه الأحداث، وزاد هلعه ما حدث في الامبراطورية وتولي الامبراطورة ايرين Irene ٧٩٧ - ٨٢٠ م - بعد عزل ابنها قسطنطين السادس - عرش الامبراطورية في القسطنطينية ، وهو المنصب الذي كان الغرب الأوروبي ينظر إليه بإجلال واحترام حتى ذلك الوقت . فقد كان لوقوع الحادثتين معاً أهمية كبرى ، فالبابوية والامبراطورية هويتا سوياً إلى الأرض ، فقد تلطخت سمعة البابوية بالعار ، بينما حل بالامبراطورية الدمار . ولم يكن أمام العالم الغربي من شخصية يمكن الاحتكام اليها في مشكلة البابا غير شارلمان .

وواقع الأمر ان شارلمان لم يكن بعيداً عن هذه الأحداث فقد كان يتابعها باستمرار واخيراً رأى شارلمان مساندة البابا وعدم عزله ، لأنه إذا عزل البابا فلا يكون لخليفته الاحترام الذي كان للبابوية من قبل . وإنما رأى ان تتم محاكمة البابا في جلسة سرية ، واخيراً سار شارلمان الى روما وقبل ان يصل شارلمان هرب البابا من روما والتقى به في الطريق ذليلاً فاصطحبه شارلمان الى روما حيث جرت الاحتفالات التقليدية لشارلمان

وفي جلسة حضرها مجمع ديني جرى الاستماع لمن يتهمون البابا ، ولما كانت القاعدة هو أن يأتي هؤلاء باثنين وسبعين شاهداً في مثل الحالة فقد اصبح الأمر مستحيلاً وتقرر اعدامهم . ولكن البابا توسط لدى شارلمان

وتبدل الحكم الى النفي ، وارتاح الحاضرون لهذا التصرف لأنهم كانوا لا يرون محاكمة البابا الذي يعتبر خليفة القديس بطرس، لأن البابا هو الذي يحاكم الناس ولا يجوز للناس أن يحاكموه .

وتصادف موعد عيد الميلاد لعام ٨٠٠ م بعد يومين من هذه الحادثة، واحتشد جمع كبير في كنيسة القديس بطرس للإحتفال وظهر البابا ليو يتلو القداس . وقام شارلمان وحاشيته وركعوا أمام المذبح . وبينما كان شارلمان ينهض في ختام القداس وضع البابا ليو تاج الأمبراطورية ... الحاضرون بالعبارات القديمة عند تنصيب الاباطرة. «إلى شارلمان اوغسطس ، المتوج بأمر الله ، الامبراطور العظيم ، المحب للسلام ، اللهم امنحه الحياة الطويلة والنصر» ثم ألبس البابا شارلمان عباءة الامبراطورية .

ويصعب على الباحث ان يقرر إلى حد ما إذا كان البابا ليو قام بهذا العمل من تلقاء نفسه ودون أن يكون لدى شارلمان علم مسبق به ، أو أنه قام بهذا العمل بوحي من رجال شارلمان دون علمه او بعلمه . ولعل سبب هذا الخلط مرجعه إلى أن اينهارت مؤرخ شارلمان قد أورد ان شارلمان لم يكن على علم بما حدث. والمهم ان تتويج شارلمان كان له اثره في علاقة شارلمان بالامبراطورية البيزنطية حتى عهد ميخائيل الأول Michael I (٨١١-٨١٣م) الذي اعترف بشارلمان كامبراطور للغرب ، نظير اعتراف شارلمان بأن البندقية وإيطاليا الجنوبية من أملاك الامبراطورية البيزنطية

كما كان لهذا التتويج أثره في مراحل لاحقة على العلاقة بين البابوية والامبراطورية ، وفتح بابا للصراع بين السلطتين، وأيهما أعظم ... سلطة وسمواً ، المعطى أم آخذ العطية، وكان لكل من النظريتين ... حتى ... الصراع بين السلطتين من معالم أوروبا في العصور الوسطى .

وعلى أية حال كان شارلمان هو الرابح في هذه القضية ، لأن سلطته العليا اصبحت متمتعة بسند من القانون الروماني والتقاليد الرومانية ...

أن الفائدة التي عادت على البابوية كانت كبيرة أيضاً ، فلم يعد الولاء السياسي للبابا موزعاً بين السلطة القانونية النظرية للامبراطور البيزنطي ،وبين السلطة الفعلية للامبراطور شارلمان .

الأحوال الداخلية

نظام الحكم

كانت حكومة شارلمان حكومة دينية الى درجة كبيرة ، فقد اشترك الاسقف والكونت اشتراكاً فعلياً متساوياً في شؤون الادارة المحلية في جميع الكونتيات الثلاثمائة التي اشتملت عليها الامبراطورية ، وليس ذلك فحسب فقد إجتمعت معظم نواحي الادارة المركزية في ايدي رجال الدين من القضاة الامبراطوريين للمحكمة العليا ورجال الكنيسة الخاصة بالقصر الكارولنجي ، لأن رئيس هذه الكنيسة الخاصة كان المستشار الأول للامبراطور شارلمان وصاحب احد المقامات العليا في الامبراطورية .

وعندما استخدم شارلمان نظام المبعوثين الملكيين الذين كانوا يذهبون إلى انحاء الامبراطورية في دوائر قضائية، كان الاسقف ورؤساء الاديرة هم الذين يعهد اليهم بأهم هذه الأمور .

وواقع الحال أن نظام المبعوثين كان موجوداً قبل عهد شارلمان وعندما اتسعت الدولة أيام شارلمان أصبح هذا المبعوث Missus هو الوسيلة الرسمية التي يرسلها شارلمان لتحمل قوانينه ومراسيمه الى كافة الانحاء ، أو يجمع معلومات عن الادارة المحلية أو يفحص عيوبها ويعمل على إصلاحها . ويمكن حصر واجبات المبعوثين في مجموعة من المهام : هي الاستماع الى الشكاوي التي تقدم ضد الكونت والتحقيق فيها ورد الحقوق الى اصحابها، كما كان عليهم أيضاً معاونة الكونت إذا ما تصدى تابع كبير من اتباع الملك لعرقلة سير العدالة . ومن مهامهم ايضاً القيام بالتفتيش على الكنائس والأديرة وانزال العقوبة برجال الدين الذين لا

يلتزمون بنظام الكنيسة، والاشراف ايضا على ما يمنحه الملك من أراضي وتقرير ضرائبها وما يلزمها من خدمات، وأخيراً مراقبة عملية تنفيذ الخدمة العسكرية .

ولعل ما ورد في خطبة احد مبعوثي شارلمان يوضح جانباً كبيراً من الروح التي تحلى بها هؤلاء المبعوثين ، ومطلع هذه الخطبة « انا ارسلنا إلى هنا بأمر سيدنا ومولانا الامبراطور شارلمان لأجل تحقيق صلاحكم الابدي في الدار الآخرة، ونحن نهيب بكم ان تعيشوا في الفضيلة وفقاً لشريعة الله . . . احبوا جيرانكم كما تحبون انفسكم ، واعطوا الصدقات للفقراء على قدر استطاعتكم » ثم أورد في الخطبة واجبات كل طبقة من طبقات المجتمع وكل فرد من الأفراد سواء اكانوا رجال أو زوجات أو اولاد أو رهبان او كونتات أو موظفين . »

الشؤون المالية

واهتم شارلمان بالشؤون المالية ووضع ضوابط للعمله ونظام موحد للموازين والمكاييل ، فقد كان هناك قبل توليه شارلمان ما يزيد عن ستين دار لصك النقود ، فألغى شارلمان العديد منها وأبقى على القليل الذي وضعه تحت إشراف الدولة . وغير شارلمان معيار العملة وأصبح الجنيه الفضي يساوي عشرين شلناً ، وانقسم الشلن إلى اثني عشر بنساً . واحترم الجميع هذا النظام ووضع على العمله شعار شارلمان .

وأصدر شارلمان التشريعات التي تحرم الربا وحدد أسعار بعض المواد خاصة القمح وحمى التجارة وعاقب كل من يُحصل رسوماً غير مشروعة ، وعزز من مكانة النقابات التي تعمل بموجب قوانين الدولة وعارض من سار على غير ذلك . وشدد الحراسة على الطرق الرئيسية داخل البلاد لحماية المسافرين والتجار من قطاع الطرق »

النهضة العلمية في عهد شارلمان

وكان على رأس الحركة العلمية ، في عهد شارلمان العالم

الانجليزي الكوين Alcuin ٧٣٥ - ٨٠٤ م رئيس مدرسة يورك Yurk الذي زار بلاط شارلمان في احدى الزيارتين اللتين قاما بهما الكوين لأوروبا في العقد السابع من القرن الثامن الميلادي . وقد نجح شارلمان في استمالة الكوين وضمه الى خدمته حوالي عام ٧٨١ م حيث عين مدير لمدرسة القصر الامبراطوري في آخن .

وواقع الأمر لقد أصبح لالكوين بعد انضمامه الى خدمة شارلمان تأثيراً واضحاً وفعالاً في توجيه سياسة شارلمان التعليمية ، وإلى توجيه الحركة الأدبية كلها في الامبراطورية الكارولنجية، لأن الكوين كان مدرساً ومصلحاً للتعليم ، ومن جهة اخرى اصبح الكوين مستشاراً للامبراطور والمرجع الأول والأخير في الأمور الكنسية .

وعلى اية حال فقد كان الكوين مدرساً ونحوياً بطبيعته وليس أديباً عبقرياً ، وأن منهجه العلمي قام على المنهج الكلاسيكي القديم الذي يشتمل على الفنون السبعة ، وهي النحو والخطابة والمنطق والموسيقى والحساب والهندسة والفلك . وكان هذا الطراز من المدرسين هو الذي افتقر اليه ذلك العصر .

تمكن شارلمان بمساعدة الكوين من جعل مدرسه القصر نموذجاً ثقافياً لجانب كبير من أوروبا الغربية . كما عهد شارلمان الى الكوين على ما يبدو بمهمة مراجعة الكتاب المقدس ومجموعة كتب الصلوات . ومن هنا يكون الكوين الانجليزي الانجلو سكسوني الأصل هو رائد حركة الاصلاح الكارولنجية في الطقوس الدينية ، وهو الاصلاح الذي قامت على دعائمه وتأسست عليه طقوس الكنيسة في العصور الوسطى .

ونشط الكوين وأرسل الى البلدان يجمع المخطوطات ويطلب المدرسين وسرعان ما اضحت مدرسة القصر مركزاً علمياً نشيطاً لمراجعة المخطوطات واعادة نسخها . وكان شارلمان نفسه وزوجته الرابعة ليوتجارا Liutgara وابناؤه ومؤرخه اينهارت ضمن طلاب هذه المدرسة وكثيرون

غيرهم - وكان من بينهم الشباب الطموح من ابناء الاسر الكبيرة الذين لجأوا الى القصر يلتمسون العلم ، واضحت المدرسة عاملاً هاماً في الحياة القومية . كما لجأ الى هذه المدرسة الصبيانُ الموهوبون من عامة الشعب ، وشجع شارلمان كل الطوائف على اختلاف مشاربها للانخراط في مدرسة القصر،وكان يعين النابهين منهم في الوظائف الامبراطورية .

وزادت العناية بالمخطوطات بعد مراجعتها وإعادة نسخها ، فقد وضعت التدابير حرصاً عليها من الضياع بزيادة عدد النسخة الواحدة ، وضرب الكوين مثلاً عندما قابل عدداً من نسخ الانجيل ببعضها ثم طبعه بعد التحقيق وبتأثير الكوين تم استخدام عدداً من النساخ المدربين، وكان هناك قانون يتعلق بشأن النساخ حتى لا يخطئوا في الكتابة . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، فقد كان الخط الكارولنجي عسير القراءة فتم استبداله بنوع من الخط هو خط النسخ الكارولنجي الذي يعتقد انه نشأ في دير كوربي، وانه بلغ أرقى درجاته من الاتقان في دير الكوين في مدينة تور .

ولم يقتصر الأمر على مدرسة القصر فقد كان هناك عدد من المدارس الاقليمية،وكانت مدرسة الكوين التي اسسها في عام ٧٨٧ م بعد انسحابه من مدرسة القصر نموذجاً للمدارس الاقليمية . وفي هذه المدارس انقسم التعليم الى مرحلتين ، والمرحلة الأولى كانت اقل مستوى من الثانية ، ففي الأخيرة تعلم الرهبان وسائر الأفراد المعدون للوظائف الكنسية ، ودرس هؤلاء في هذه المدرسة جانباً كبير من العلوم السبعة لتساعدهم على شرح وتفسير قوانين الكنيسة وكتابات آباء الكنيسة .

وبالإضافة الى ذلك وجدت بعض المدارس المتخصصة ، فقد أمر شارلمان في عام ٧٨٩ م بأن تقام في كل اسقفية مدرسة يتعلم فيها الأولاد المزامير ، وعلامات الموسيقى والإنشاد والحساب والنحو ، وفي مرحلة تالية نجد مدارس للمنشدين ومدارس للقراء .

وبلغت النهضة الكارولنجية قمة مجدها بعد شارلمان أيضاً على يد

تلاميذ الكوين ، ومنهم اينهارت مؤرخ شارلمان ، ورابانوس الأسمر Rabanus Eaurus مقدم دير فولدا Fulda وتلاميذه من بعده، واولئك الرجال كانوا جميعاً من كبار علماء عصرهم ومن الحفاظ للأدب الكلاسيكي .

وبهذا العرض الموجز يمكن القول انه يحق للنهضة الكارولنجية التي بدأت مع شارلمان واستمرت لبعض الوقت في عصر خلفائه ان تكون مقدمة لنهضة القرن الثاني عشر ثم نهضة القرن الخامس عشر الميلادي .

اضمحلال الكارولنجين وظهور الاقطاع .

ظلت الامبراطورية الكارولنجية التي اقامها شارلمان قوية طوال حياته ، وعندما توفي عام ٨١٤م بدأت عوامل الضعف تدب فيها بفعل عوامل التقسيم . فقد قسمت الامبراطورية طبقاً لتقاليد الفرنجة بين أولاده ، ولكن وفاة اثنين منهما وبقاء لويس التقى ٨١٤-٨٤٠م أخر هذا التقسيم لجيل آخر. وفي عام ٨١٧م قسم لويس الدولة الى ثلاث ممالك يحكمها ابناؤه بيبن Pepin ولوثير Lothair ولويس ، ولكنه عدل عن هذا التقسيم بعد ما رزق من زوجته الثانية بابن رابع يعرف في التاريخ باسم شارل الاصلع . وتمرد الابناء على ابيهم وترتب على ذلك صراع رهيب بين الأسرة وصل إلى درجة الصدام المسلح.

وليس بوسعنا ان نخوض في تفاصيل هذه الأحداث، الا انه يمكن القول ان الامبراطورية اعيد تقسيمها في عام ٨٤٣ م بموجب معاهدة فردان بعد وفاة بيبن عام ٨٣٨ م ولويس التقى عام ٨٤٠م. وبموجب هذه المعاهدة إختص لويس الابن بالأراضي المحصورة بين الألب والراين، وحكم شارل الجزء الأكبر من فرنسا وولايات الحدود الاسبانية ، واعطى لوثير ايطاليا والأراضي المحصورة بين الراين شرقا والشلد Scheld والساؤون Saône والرون غرباً .

كان لهذا التقسيم اهميته لأنه . وضع بداية لظهور بعض الدول مثل فرنسا والمانيا . ولكن المهم هنا ان هذا التقسيم وبعض العوامل الأخرى

مثل الغارات الشمالية أدت إلى انهيار الامبراطورية وظهور الاقطاع . وفي ظل النظام الاقطاعي ارتبط نظام الحكم والنظام الاجتماعي ارتباطاً وثيقاً بملكية الأرض ، وأصبح صاحب الأرض هو الحاكم والقاضي والقائد العسكري وجامع الضرائب . وارتاح عامة الناس الى هذا النظام، وان يكونوا تحت حكم رئيس محلي يستطيع الدفاع عنهم افضل من تواجدهم تحت حكم ملك أو امبراطور لا يقوى على حمايتهم . والمهم ان هذا الرئيس المحلي كان يرتبط بالملك ارتباطاً اسمياً . وعلى ذلك يمكن القول أن الاقطاع كان قوياً عندما كان الملك ضعيفاً وتكون الملكية قوية إذا ما ضعف الاقطاع، وهذا ما أدى إلى ظهور الاقطاع بعد الامبراطورية الكارولنجية، والملكية في المانيا وفرنسا وانجلترا على أنقاض الاقطاع .

الفصل العاشر

ألمانيا وإحياء الإمبراطورية الرومانية المقدسة

الأسرة السكسونية	الأسرة السالية	أسرة الهوهنشتاوفن
هنري الصياد	كونراد الثاني	كونراد الثالث
أوتو الأول	هنري الثالث	فريدريك باربار وسا
أوتو الثاني	هنري الرابع	هنري السادس
أوتو الثالث	هنري الخامس	فريدريك الثاني
هنري الثاني		

أدى خروج البرابرة إلى قلب أوروبا إلى نقص سكان الأقاليم الشمالية ومنها ما يعرف باسم المانيا ، فتحركت عناصر اخرى من اقليم بحر البلطيق في اتجاه الغرب ليحلوا محل القبائل النازحة . وبذلك أصبح نهر الألب هو الحد الفاصل بين الأجناس التي هاجرت مؤخرا وبين العالم الغربي . واستقر من بقي من القبائل الألمانية غرب نهري الألب والسال ، فاستقر السكسون في شمال المانيا الوسطى ، والفرنجة الشرقيون في حوض الراين الأدنى ، وبين السكسون والفرنجة الشرقيون استقر الثورنجيون . أما البافاريون (الماركوني من قبل) فكانوا في حوض الدانوب الأوسط . والسوابيون Swabians (السويفي من قبل) فقد استقروا على اعالي ضفاف نهري الراين والدانوب وما بينهما ثم وسعوا اقاليمهم وانتشروا على طول جبال جورا Jura والألب الشمالية .

وواقع الأمر لم يكن في اوروبا حتى هذه المرحلة ما يسمى دولة المانيا ، وإنما كان هناك قبائل المانية . ولما فتح شارلمان هذه المناطق جمعها في وحدة واحدة ووضع لها نظاماً دفاعياً مشتركاً لحمايتها من الأخطار الخارجية . ولكن انهيار الامبراطورية في عهد خلفائه فكك هذه الوحدة ، وعادت النزعة القبلية من جديد تعارض اي تجمع لهذه القبائل في وحدة واحدة .

وإذا تتبعنا تاريخ هذه المنطقة منذ معاهدة فردان (٨٤٣ م) نجد أن لويس الثاني اصبح ملكا على هذا الاقليم الذي نطلق عليه المانيا ٨٤٣- ٨٧٦ م. وبعد وفاة لوثر ملك اللورين في عام ٨٦٩ م عقدت معاهدة مرسن Mersen في العام التالي ٨٧٠ م ، وبموجب هذه المعاهدة ، اضيف إلى املاك لويس الثاني اراضي جديدة ، واصبحت حدود المانيا هي الارض المحصورة بين نهري الراين والألب وبعض اجزاء من إقليم اللورين .

وعند وفاة لويس الثاني في العام التالي ٨٧١ م قسمت الدولة بين اولاده فعمت الفوضى انحاء البلاد حوالي ست سنوات . وخلال هذه الفترة انتهزت العناصر الشمالية الفرصة وأغارت على مدن الراين .

بعد هذه الفترة المضطربة اختير ارنولف Arnulf وهو ابن غير شرعي لكارولمان - دوق بافاريا - ابن لويس ملكا على المانيا ٨٨٧ - ٨٩٩ م،وقد نجح أرنولف هذا في صد العناصر المغيرة وردهـا على أعقابها ، وتوج امبراطور في عام ٨٩٦ م. وخلف أرنولف ابنه لويس المعروف باسم لويس الطفل ٨٩٩ - ٩١١ م في عرش المملكة ، ويتضح من كنيته أنه كان اصغر واضعف من أن يصد غارات المجريين الذين عاودوا الهجوم على البلاد الألمانية واجتاحوا بافاريا وسكسونيا وثورنجيا . واصبحت الحكومة عاجزة عن صد المغيرين والدفاع عن البلاد وترتب على ذلك أن تولت كل مقاطعة أمر الدفاع عن نفسها ، وتصرف كل حاكم في أمور ولايته في جميع المجالات الادارية والعسكرية وغيرها . ومع عجز الحكومة المركزية قويت الولايات وزادت قوتها بما اعدوه من قوات لصد الغزاة . وهكذا انفصلت الولايات عن التاج تدريجيا حتى استقلت في نهاية الأمر وقامت المانيا الاقطاعية .

وعندما توفي لويس الطفل عام ٩١١ م، أُلغي مبدأ وراثة العرش في المانيا في هذه المرحلة ، فقد اختار الاعيان وكبار رجال الدين كونراد الأول دوق ولاية فرانكونيا ملكا على البلاد (٩١١ - ٩١٨ م) وحقيقة الأمر لم يكن كونراد ملكا بالمعنى المفهوم وإنما كان ملكا من الناحية الاسمية أو

بمعنى اخر كان ممثلا لحكام الولايات وعلى اية حال لقد اصبحت الملكية انتخابية ، وهو أمر كانت له مشاكله لسنوات طوال . والمهم أنه خلال حكم كونراد ظلت النزعات الانفصالية كامنة حينا وتشتد حينا آخر . وكان على رأس هؤلاء هنري دوق سكسونيا أقوى امراء الولايات الألمانية والخصم العنيد للملك . كما تعرضت المانيا لجانب من الأخطار الخارجية وعلى هذا يمكن القول أن المانيا فشلت في هذه المرحلة في اقامة حكومة مركزية قوية وفي صد الاخطار الخارجية .

وقد ادرك كونراد هذه الحقيقة ورأى ان لأمر يحتاج لشخصية أقوى منه تستطيع أن تجمع شمل البلاد في دولة قوية تمكنها من التصدي للاخطار الخارجية، لذلك رشح وهو على فراش الموت هنري دوق سكسونيا، وهو الذي توسم فيه كونراد صفات الملك المرتقب .

الأسرة السكسونية

هنري الأول (الصياد) (٩١٩ - ٩٣٦ م)

وافق الأمراء على ترشيح كونراد واصبح هنري السكسوني المعروف بالصياد Henry The Fowler نظرا لشغفه بصيد الطيور ملكا على المانيا ، ومع هنري يبدأ عصر الأسرة السكسونية التي حكمت المانيا ما يزيد عن قرن من الزمان (٩١٩ - ١٠٢٤ م)، وشغل عرش المانيا في هذه المرحلة هنري الأول (٩١٩ - ٩٣٦ م) وأوتو الأول (٩٣٦ - ٩٧٣ م)، وأوتو الثاني (٩٧٣ - ٩٨٣م) وأوتو الثالث (٩٨٣ - ١٠٠٢ م) وهنري الثاني (١٠٠٢ - ١٠٢٤ م). ولا نستطيع في هذه المرحلة أن نتتبع تفاصيل عهد كل ملك ، ونكتفي بإلقاء الضوء على أهم الأحداث والتطورات حتى نهاية هذه الأسرة .

ظلت دوقية سكسونيا أقوى دوقيات المانيا . وكان اعتلاء هذه الأسرة عرش المانيا بمثابة صفحة جديدة في تاريخ أوروبا العصور الوسطى بوجه عام وتاريخ الدولة الألمانية بوجه خاص فمنذ هذه اللحظة دخلت المانيا

مرحلة جديدة من القوة السياسية والعسكرية ، فضلا عن الأزدهار والرخاء الذي عم البلاد .

وعلى أية حال، ترجع هذه الفترة إلى بداية حكم هنري الصياد الذي مهد الطريق أمام خلفائه في عرش المانيا ، وأقام دولة ثابتة بوضع أسس السياسة الألمانية، وهي السياسة التي قامت على أساس التصدي للمشاكل الداخلية والخارجية بشكل حازم وفعال .

لم يلق اختيار هنري ملكا رضاء الجميع ، فهو الحاكم القوي ، والأمراء لا يقبلون حاكما قويا ينقص من سيادتهم على أراضيهم ، وربما قبلوه في بداية الأمر لجمع شمل البلاد أو خوفا من قوته ، وعلى ذلك واجه هنري العديد من المشاكل مع امراء الدولة الذين كانوا يحاولون توسيع رقعة نفوذهم ونبذ السلطة المركزية والاستقلال بمقاطعتهم. وتجلت في هذه المرحلة صورة الاقطاع الذي يرى في ضعف الدولة زيادة لنفوذه ، وتجلت حكمة هنري في معالجة هذه القضية المعقدة لأن الخطر الداخلي أقوى بكثير من الأخطار الخارجية ، وعالج هنري مشاكله مع الأقطاع باللين والسياسة تارة وبالعنف والتهديد تارة اخرى ، واخيرا تمكن من توطيد دعائم حكمه في أسرته من بعده .

وفي المجال الخارجي كانت غارات النورمان من الشمال والسلاف من الشرق مستمرة على حدود المانيا . وتطلب الأمر اعداد جيشا قويا ، وقد نجح في هذا الى حد كبير ، ولم يكتف بذلك فبالاضافة إلى النظم الحربية التقليدية من المشاة اضاف اليها عناصر من الفرسان المدربين للنضال إلى جانب المشاة . وبهذه الطريقة الجديدة نجح هنري في انزال الهزائم بالعناصر المغيرة وخاصة المجريين في عام ٩٣٣م، ٩٣٥م. ورغم انتصارات هنري إلا أن الغارات على الحدود لم تتوقف .

وفكر هنري في نظام جديد يرقي به البلاد شر غارات المعتدين فأقام خطا دفاعيا على الحدود عرف باسم الماركيات Marks . وتكون هذا

الخط من نقط حصينة على الحدود في اماكن متقاربة ، وخصص لحراسة هذه الأماكن القلاع الخشبية المشحونة بالجند المدربين المستعدين للتصدي لاي هجوم مفاجىء . وبذلك أصبحت هذه الماركيات بمثابة خط الدفاع الأول عن الدولة وحدا فاصلا بين المانيا وما جاورها . ويلاحظ أن هذه القلاع الحدودية ستنمو وتقوى في عهد خلفائه حتى تمتد من البلطيق شمالا الى الادرياتيكي جنوبا

أوتو الأول (٩٣٦ - ٩٧٣ م)

سقط حق انتخاب الملك الألماني بعد عهد هنري الصياد ، فبعد وفاته تولى ابنه أوتو عرش المانيا وكان في الرابعة والعشرين من عمره ، ولكنه مع هذه السن الصغيرة كان مليكا بحق في مظهره ومخبره ، وقد نجح أوتو نجاحا كبيرا في سياسته الداخلية والخارجية حتى اطلق عليه معاصروه لقب أوتو الكبير

واتخذ اوتو في سياسته الداخلية أساليب جديدة يمكن أن نقسمها إلى ثلاثة ، وتمت على ثلاث مراحل . والواضح أن أوتو كان يستعمل اسلوبا ثم يعالجه باسلوب آخر وهكذا . وأول هذه الأساليب أن أوتو لجأ في بداية عهده إلى اضفاء القاب التشريف على الأمراء ونجح في اقناع الادواق بأن يؤلفوا حاشية كبيرة في حفل التتويج الذي اقيم في مدينة إكس لاشابل (آخن) وهو الحفل الذي توج فيه اوتو على يد هيلدبرت Hildbert رئيس اساقفة المدينة

ولكن هذا الوفاق لم يدم طويلا فقد حقد هؤلاء الأدواق على أوتو بعد ما وجدوا له من نفوذ مطرد . وقد نجح هؤلاء الأدواق في اغراء هنري أخي أوتو بتدبير مؤامرة تخلع الملك من العرش ، إلا أن اخبار هذه المؤامرة وصلت إلى مسامع اوتو فقضى عليها في مهدها ، ولم ينزل العقاب بأخيه فعفى عنه ، ولم يكن عفوه ضعفا بل كرما ولحكمة رآها ، لأن من ينزل عقابا

بأخيه ينزل بغير أخيه عقابا أشد وأنكى، وسيكون لهذا كله أثره في سير الأحداث .

وحتى لا يتمرد هؤلاء الأدواق وجد أوتو أنه لا بد من كسر شوكتهم وهي الطريقة الثانية التي اتبعها الملك . ولم يلجأ في ذلك إلى القوة بل لجأ إلى اسلوب آخر، وهو خلق دوقيات جديدة منحها لاصدقائه وأقربائه المخلصين ، وبذلك أصبح الادواق الدائبو التمرد قلة وسط الدوقيات الجديدة . وهكذا نجح أوتو في اضعاف الادواق بطريقة غير دموية

ولمزيد من السيطرة على الدولة وللربط بين الدولة والكنيسة لجأ أوتو إلى الطريقة الثالثة، وهي أنه نجح في كسب الأساقفة الألمان الى جانبه ، وأصبح رجال الدين مساعديه ومستشاريه في الشؤون الدينية و دنيوية ، بل وصل الحد إلى أن اصبح بعضهم من قواده . وبهذه الوسيلة أ م نظاما قويا يعتمد على العلمانيين ورجال الدين . وبعبارة أخرى اتخذ أوتو من الدين المسيحي قوة لتوحيد البلاد وبذلك صهر الولايات الألمانية في دولة واحدة قوية . وهكذا نجح أوتو في القضاء على الاقطاع وأقام المانيا القوية الموحدة .

وكما نجح أوتو في السياسة الداخلية فإن الأمر لا يختلف في سياسته الخارجية ، فقد هاجم الماجيار في عام ٩٥٥ م وانتصر عليهم ، ونجح رجال الدين في ادخال بعضهم في الديانة المسيحية ، فقد اعتنق ملكهم الديانة المسيحية وعرف باسم القديس ستيفن St Stephen وانضم اليه حوالي الف من الماجيار وأقاموا اسقفية في مدينة جران Gran كما نجح وتو ي إرغام ملك الدانمرك ودوق بولندا ودوق بوهيميا على أن يعترفوا به ـــ اقطاعيا . وعلى ذلك يرى البعض أن أوتو يعتبر شارلمان المانيا .

تتويج أوتو وإحياء الامبراطورية

تطلعت المانيا دون غيرها من دول أوروبا للحصول على اللقب الامبراطوري، وسعت بطرق متعددة للوصل إلى هذه الغاية ومن الغريب

أننا لا نلاحظ مثل هذا الموقف في بقية دول أوروبا خاصة انجلترا وفرنسا اللتان كانتا في بعض المراحل اقوى من المانيا . وعلى أية حال كان أول من تطلع للحصول على اللقب الامبراطوري من ملوك المانيا هو أوتو ، وحانت له الفرصة عندما دعته أدليد Adelaide الجميلة ـ أرملة لوثر ملك مقاطعة لمبارديا الايطالية ـ لمساندتها ضد برنجار أحد الحكام المحليين .

دخل أوتو ايطاليا عام ٩٥١ م واستعان بالزواج على السياسة وتزوج من أدليد لتصبح الزوجة الثانية ، فقد كانت الأولى هي اديت Edith الانجليزية ، وترك لبرنجار الاحتفاظ بإمارته على أن يكون اقطاعيا تابعاً للملك أوتو . ولكن الأمور سارت على عكس ما تبينه أوتو، فقد اعترض الأمراء الايطاليون على هذا الوضع ورفضوا الاعتراف بالملك أوتو ، وفي الوقت نفسه ظهرت حركة تمرد ضده في المانيا تزعمها ابنه لودلف Ludolf دوق سوابيا ، وكونراد الأحمر زوج ليوتجراد Liutgrade ابنة أوتو . ووجد أوتو أنه بين أمرين، إما أن يخسر المانيا ويكسب التاج الامبراطوري، أو ينقذ المانيا ويؤجل حصوله على اللقب ، واختار اوتو الثانية وعاد سريعا إلى المانيا ، ليجد المتمردين يستعدون بمساعدة المجريين لغزو المانيا .

وجد أوتو أنه يحارب في جبهتين بعد أن ارجأ الجبهة الايطالية فبدأ بالجبهة الداخلية ونجح في القضاء على الفتنة وعفا عن ابنه لودلف كما عفى عن أخيه هنري من قبل . والتفت للخطر الخارجي واستعد بقواته وتصدى للغزاة وانزل بالمجريين عند لخفلد Lechfeld عام ٩٥٥ م هزيمة ساحقة وهكذا نجح اوتو في البقاء على دولته وصد الغزاة، وترتب على ذلك نتائج متعددة، منها أنها أعطت الفرصة للملك أوتو لاعادة تنظيم دولته حتى بدت المانيا الموحدة من اعظم دول أوروبا في هذه المرحلة .

لاحت فرصة التتويج مرة اخرى للملك أوتو عندما دعي في عام ٩٦١ م إلى ايطاليا وكان الداعي في هذه المرة البابا يوحنا الثاني عشر (٩٥٥ ـ ٩٦٤ م) لمساندته ضد برنجار أيضا . واختلف الحال في هذه

المرة فليس الداعي امرأة وإنما البابا نفسه ، وفي ذلك تقوية لمركز اوتو داخل المانيا وخارجها لا على المستوى السياسي بل على المستوى الديني .

غزا أوتو ايطاليا ودخل روما في آخر يناير عام ٩٦٢ م لحماية املاك البابا واعادتها اليه ، وتوجه البابا يوحنا في اوائل فبراير من العام نفسه . ووعد أوتو بإعادة املاك البابوية القائمة على هبة بيبن وشارلمان . ولكن أوتو لم يف بوعده الأمر الذي أغضب البابا وندم على تتويجه أوتو .

وظل البابا يشكو أوتو لعدم إعادة املاك البابوية ، فعاد أوتو إلى إيطاليا واتخذ خطوة ليس لها سابقة في كنيسة روما ، فقد عزل البابا يوحنا الثاني عشر ووضع على عرش القديس بطرس البابا ليو الثامن (٩٦٣ ـ ٩٦٥ م). وبعد عودة اوتو إلى المانيا تمكن البابا يوحنا الثاني عشر من طرد ليو الثامن خارج روما ، وتطورت الاحداث وتم انتخاب البابا بندكت الخامس (٩٦٤ ـ ٩٦٦ م) دون استشارة اوتو . فعاد اوتو إلى ايطاليا ودعى المجمع الكنسي للانعقاد وتم انتخاب بابا آخر هو يوحنا الثالث عشر (٩٦٥ ـ ٩٧٢ م).

لم تمر هذه الأحداث بسهولة فقامت حركة تمرد ضد ما قام به اوتو ، فعاد اوتو مرة اخرى في عام ٩٦٦ م وقضى على حركة التمرد واعاد البابا يوحنا الثالث عشر إلى منصبه ، واقتصرت املاك البابوية في هذه المرحلة على روما واقليم سابينا Sabina ، ودخلت بقية ايطاليا في امبراطورية اوتو ، وأضحت اقطاعية من اقطاعيات التاج الامبراطوري . والمهم أن تتويج أوتو عام ٩٦٢ م كان حدثا بالغ الاهمية في تاريخ المانيا والبابوية لا في هذه المرحلة فحسب بل في مراحل لاحقة . فقد كان ضم أوتو لجانب كبير من ايطاليا سندا للحكام الألمان في ادعاء ميراث ايطاليا . كما كان تتويج اوتو ومن قبله شارلمان بمعرفة البابا سندا لدى البابوية التي تمسكت بأنه لا يستطيع حاكم أن يكون امبراطورا في أوروبا إلا إذا توج بمعرفة البابا .

أوتو الثاني (٩٧٣ - ٩٨٣)

عندما تقدم بالامبراطور أوتو السن رأى أن يتوج ابنه أوتو الثاني إلى جانبه تجنباً لما يحدث من فوضى سياسية عقب وفاته ، واقنع البابا يوحنا الثالث عشر بفكرته وتوج ابنه في عام ٩٦٧ م . ومن أجل اقامة الامبراطورية العالمية تزوج اوتو من ثيوفانو Theophano ابنة الامبراطور البيزنطي الراحل رومانوس الثاني Romanus II (٩٥٩ - ٩٦٢ م) وتم الزواج في عام ٩٧٢ م . وكان صداق هذا الزواج هو الاملاك البيزنطية في ايطاليا التي انضمت إلى المانيا في عهد اوتو . ولاح في الأفق لوقت قصير ما كان يحلم به شارلمان من توحيد الامبراطوريتين عن طريق الزواج . ولعل مصدر هذه الفكرة يرجع إلى أن الأمبراطور الجالس على عرش الأمبراطورية البيزنطية كان مغتصباً للعرش وهو يوحنا الأول تزيمسكي John I Tzimisces (٩٦٩ - ٩٧٦ م) الذي خلف مغتصباً آخر هو نقفور فوقاس Nicephorus Phocas ٩٦٣ - ٩٦٩ .

والمهم أنه عند تولية أوتو الثاني لعرش الامبراطورية تجددت حوادث التمرد بين الأدواق خاصة في بافاريا وسوابيا ، وقد نجح اوتو الثاني في قمع الفتنة وسلك نهج ابيه في الاستعانة بمزيد من رجال الدين في شؤون الحكم والادارة . واستتب الأمر داخل البلاد وأخذ يعمل لبث روح النهضة في العلوم والآداب .

وفي المجال الخارجي وجد نفسه في صراع مع فرنسا التي قامت بغزو بعض الأراضي الألمانية ، ولكن هذه المشكلة لم تدم طويلا فقد سويت بعقد صلح بين الطرفين. وكان هناك أخطر من ذلك وهي الفوضى التي عمت جنوب ايطاليا من جراء الصراع بين الأمراء ، وغزوات المسلمين لجزيرة صقلية وجنوب ايطاليا، وهي المشكلة التي عجز عن حلها ومات والخطر الاسلامي باق في الجنوب .

أوتو الثالث (٩٨٣ - ١٠٠٢ م)

تولى الحكم قاصرا ومات شابا ، فقد ورث عرش أبيه وهو في الثالثة

من عمره فتولت الوصاية عليه أمه ثيوفانو البيزنطية الأصل وجدته أدليد اللومباردية الأصل وتربى على يد جربرت Gerbert الفرنسي الأصل. وكان لهذا كله أثراً كبيراً على الامبراطور الوليد وعلى البلاط الألماني. واستمرت الوصاية عليه ثلاث عشر سنة تمكنت خلالها أمه ثيوفانو من صبغ البلاط الألماني بجانب من الحضارة البيزنطية، وزادت من روح النهضة الأدبية والفنية التي بدأها زوجها أوتو الأول. كما أثر جربرت رئيس اساقفة رافنا على جانب كبير من شخصية أوتو الثالث حتى قيل عنه أنه نصف قديس.

وعلى أية حال ففي عام ٩٩٦ م بلغ أوتو السادسة عشر من عمره وهو السن القانوني الذي يسمح له بحكم البلاد دون وصاية. وعند هذه المرحلة أوعز جربرت إلى الامبراطور بأن يتخذ من مدينة روما عاصمة للامبراطورية، ويعيد إلى الوجود الامبراطورية الرومانية، ويجمع فيها كافة البلاد المسيحية ويتولى أمر الامبراطورية- الامبراطور والبابا معا.

واعترض أعيان روما وغيرهم على هذه الفكرة التي وجدوا فيها عودة الحكم البيزنطي - في صورة ألمانيا - إلى البلاد، وأقاموا جمهورية رومانية. وسار أوتو إلى ايطاليا ليواجه هذه الفكرة الانفصالية التي طالما عانت منها المانيا داخليا. ونجح أوتو في القضاء على المؤامرة واعدم زعيمها كرسنتيوس Crescentius في عام ٩٩٨ م. ولما توفي البابا جريجوري الخامس (٩٩٧ - ٩٩٩م) في العام التالي، رد أوتو الجميل لأستاذه فعين جربرت بابا تحت اسم سلفستر الثاني Sylvester II (٩٩٩ - ١٠٠٣ م).

وكانت مشروعات أوتو الثالث تفوق سني حكمه، كما أن أوتو وإن كان نصف قديس إلا أنه رجل فوقع في غرام ستيفانيا Stephania ارملة كرستيوس، ولكنه لم يتزوجها مثلما فعل جده أوتو الكبير مع أدليد، ورضيت ستيفانيا أن تكون عشيقته. ولم يعمر طويلا فقد مات في عام ١٠٠٢ م بعد أن حكم ست سنوات وله من العمر اثنان وعشرين عاما.

هنري الثاني (١٠٠٢ - ١٠٢٤ م)

مات أوتو الثالث دون وريث فرشح للعرش هنري الثاني دوق بافاريا ، وبذلك انتقل الحكم إلى فرع آخر من البيت السكسوني . ومن أهم ما يميز عصر هنري تمتعه بسلطة واسعة على الكنيسة في المانيا ولعل ما ساعده على ذلك تدينه . وقد قرب اليه رجال الدين واستعان بهم في شؤون ادارة البلاد ، كما أن هنري اهتم بحركة الاصلاح الديني التي تزعمها دير كلوني .

وفيما يتعلق بالسياسة الخارجية فقد استنفدت حروبه ضد العناصر السلافية والبولنديين جانبا كبيرا من اهتمامه، ولم تنته إلاّ بعد توقيع الصلح مقابل التنازل عن بعض أراضيه . كما اضطربت ايطاليا في عصره وذهب إليها مرتين كانت الأولى عام ١٠٠٤ م والثانية عام ١٠١٣ م، وهي الزيارة التي امتدت حتى مطلع العام التالي حيث توجه البابا بندكت الثامن (١٠١٢ - ١٠٢٤ م) في فبراير عام ١٠١٤ م. ومات هنري الثاني بعد أن حكم اثنين وعشرين عاما .

انتهت الأسرة السكسونية بوفاة هنري ، نجحت خلالها في احياء الامبراطورية الرومانية وإن كانت بصورة مصغرة ، وتطاول سلطانها لبعض الوقت جانبا من ايطاليا . وتميز عصر الأسرة باستخدام رجال الدين في شؤون الحكم والادارة للقضاء على النفوذ الاقطاعي . واذا كان القضاء على الاقطاع قد تم بتقوية نفوذ رجال الدين فإن تقوية نفوذ الكنيسة كان له أثره في القضاء على السلطة الزمنية في مراحل لاحقة .

الأسرة السالية أو الفرانكونية

عند وفاة هنري الثاني عام ١٠٢٤م انتهى آخر ممثلي البيت السكسوني من نوع الذكور ، ولكن النبلاء والأدواق تمسكوا بولائهم لهذه الأسرة ، فاختاروا نبيلاً من أصل فرانكوني يدعى كونراد ، وينحدر كونراد

هذا من فرع بات أوتو الأول السكسوني . ومع بداية عهد كونراد المعروف بالثاني يبدأ عصر الأسرة الساليه او الفرانكونيه . ويمكن القول أيضاً أن عصر الساليين يعتبر امتداداً للعصر السكسوني .

كونراد الثاني ١٠٢٤ - ١٠٣٩ م .

واجه كونراد في بداية عهده قوة نفوذ كبار الأمراء ، ولجأ كونراد إلى بعض الطرق للقضاء على هذه الظاهرة ، وهي الطرق نفسها تقريباً التي اتبعها اسلافه من قبله مع تغيير بسيط . ومن ذلك أن كونراد استمال إلى جانبه صغار الاقطاعيين وعمل على توريث ما بأيديهم من أراضي فقل نفوذ كبار الأمراء. وإلى جانب ذلك سلب كونراد بعض المناصب الوراثية التي تمتع بها هؤلاء الأمراء ، ثم عمل على تدعيم نفوذ رجال الدين وعينهم في المناصب المدنية والدينية ، وبذلك إحتل الاساقفة مركزاً مرموقاً داخل الدولة الأمر الذي دفع بعض الرجال الى التكالب على هذه المناصب. وربما استغل كونراد هذه الظاهرة وباع هذه المناصب للأساقفة بثمن كبير ثم ندم على فعلته واقسم بعدم العودة إلى ذلك . والمهم أن كونراد نجح في القضاء على الفتن والقلاقل الداخلية وتمكن من إعادة الأمن والاستقرار إلى دولته .

واشتملت السياسة الداخلية في عهد كونراد على جوانب متعددة فكانت ايطاليا وبولندا وبوهيميا وهنغاريا وبرجانديا . وفيما يتعلق بإيطاليا فالصراع فيها قديم يعود الى أيام شارلمان والأسرة السكسونية ، ومن الملاحظ ان السيادة الألمانية على ايطاليا كانت تتراوح بين القوة والضعف ، ومع نهاية عصر الأسرة السكسونية كان الأمراء الايطاليون قد نفضوا عن كاهلهم جانباً كبيراً من السلطة الألمانية ، ولما كان الامبراطور لا يتوج إلا بمعرفة البابا في روما ، ولما كان الأمراء الايطاليون أعداء للبابوية فكان على كونراد أن يقضي على نفوذ الأمراء لكي يحصل على التاج الامبراطوري .

وفي عام ١٠٢٦ م إتجه كونراد إلى ايطاليا ونجح في القضاء على نفوذ

أمراء ايطاليا ، وتوج في العام التالي ١٠٢٧ م على يد البابا يوحنا التاسع عشر (١٠٢٤ ـ ١٠٣٢ م) .

اما العلاقة الالمانية البولندية فقد دخلت في صراع طويل عقب عودة كونراد من ايطاليا عام ١٠٢٧ م ، وظلت الحرب قائمة بين الطرفين نجح البولنديون خلالها في تدمير جانب من مدن وقرى مقاطعة سكسونيا، ولم تنته الحرب التي دامت بين الطرفين من ١٠٢٨ ـ ١٠٣١ م الا بعقد الصلح بين الطرفين .

وفيما يختص ببوهيميا التي أعلنت العصيان على السيادة الألمانية، فقد أرسل اليها كونراد حملة نجحت في القضاء على قوتها العسكرية، ولكنها لم تنجح في القضاء على الفتنة التي لم تخمد الا في عام ١٠٣٥ م ، واستعمل كونراد السياسة نفسها مع هنغاريا وأرسل قواته لقمعها ، ولكنه لم يوفق مع هنغاريا مثلما وفق مع بوهيميا . أما في برجانديا فقد نجح كونراد في ضمها استناداً إلى حقه في الوراثة .

واطلت المشكلة الايطالية برأسها من جديد في أواخر عهد كونراد فالنزعة الانفصالية التي سيطرت عليها دفعت بعض رجال الدين خاصة اربرت Arbert رئيس أساقفة مدينة ميلانو للاستقلال بإسقفيته، ولم تنجح محاولات كونراد العسكرية أو السليمة في القضاء على رئيس الأساقفة، ومات كونراد عام ١٠٣٨ م دون حل هذه المشكلة .

هنري الثالث ١٠٣٩ ـ ١٠٥٦ م

تولى عرش الامبراطورية بعد أبيه كونراد ، ونجح في السياسة الداخلية والخارجية لدرجة كبيرة حتى بلغت الامبراطورية في عهدة ذروة مجدها . وفيما يتعلق بالسياسة الداخلية فلم تكن هناك مشاكل كثيرة كما كانت في عهد اسلافه ، فتفرغ للإصلاحات التي اتخذ من الجانب الديني مدخلا لها . ففي عام ١٠٤٣ م عفى عن كل من أساء إليه ، وطلب من رعاياه ان يطهروا انفسهم من الاحقاد ونزعة الانتقام ، ونجح بفضل سلوكه القويم

ومواعظه الحسنة . كما وضع القوانين اللازمة لاصلاح الكنيسة وترفع عن بيع المناصب لرجال الدين ومن هنا بدت دولته وكأنها القوة الوحيدة المحترمة في غرب أوروبا .

وفيما يتعلق بالسياسة الخارجية فقد توزعت بين أربرت رئيس اساقفة ميلانو وبولندا وهنغاريا والعناصر السلافية وأخيراً البابوية . أما أربرت فقد حُلت مشكلته في العام التالي من توليه هنري ، فقد عدل اربرت عن فكرة الاستقلال وزار هنري عام ١٠٤٠ م وقدم يمين الولاء والطاعة . ولم يبذل هنري جهداً في بولندا فقد تولتها الحروب الأهلية وغارات بوهيميا . أما في بوهيميا فقد كانت غاراته عليها ناجحة واضطرها لتقديم فروض الولاء والطاعة عام ١٠٤١ م . وهزم هنري العناصر السلافية في عام ١٠٤٥م فاعترفوا بسيادته .

وفيما يتعلق بموقف هنري من البابوية فكان تسيداً لا مساندة، ويرجع ذلك إلى الشخصيات الذين تولوا منصب البابوية ، فقد نجح أحد الأمراء في شراء المنصب البابوي واعتلاه باسم بندكت التاسع لمدة عام واحد ١٠٤٥ م ، ثم تخلى عن منصبه لقاء المال إلى البابا جريجورى السادس الذي احتفظ بالكرسي البابوي لمدة عام آخر ١٠٤٦ م ، فاستصرخ رجال الدين هنري الثالث لوضع حداً لهذه الفوضى .

اتجه هنري إلى روما وعقد مجمعاً دينياً أقر تعيين بابا جديد هو كلمنت الثاني (١٠٤٧ م) وتوج هنري امبراطوراً في هذه المرحلة. ولكن البابا كلمنت توفي بعد وقت قصير ، فتدخل هنري مره أخرى وعين البابا داماسوس الثاني Damasus II (١٠٤٨ م) ولكنه مات هو الآخر ، فعين هنري باباً ثالثاً هو ليو التاسع ١٠٤٨ ـ ١٠٥٤ م ، وظل تعين هنري للبابارات قاعدة ساروا عليها في هذه المرحلة، حتى عندما توفي ليو التاسع عين هنري البابا فيكتور الثاني Victor II ١٠٥٤ ـ ١٠٥٧ م .

والملاحظ انه في عهد هؤلاء البابوات سيطر هنري على رجال الكنيسة

سيطرة تامة ولم يعارض أي منهم هنري في شيء ما . ولم يكن هذا كله في صالح الامبراطورية ، فإن النهضة التي ساندت البابوية كانت شديدة بدرجة كادت تخنقها ، وعندما حاولت الكنيسة الاعلان عن الضيق الذي تشعر به من جانب الحكام العلمانيين كان الصدام حتمياً بين القوتين .

هنري الرابع ١٠٥٦ - ١١٠٦م

حكم هنري خمسين عاماً ، ويرجع ذلك الى توليه الحكم وهو صغير ، فقد توج في عهد أبيه وكان في الرابعة من عمره ، وتوفي والده وهو في السادسة فتولى امر الوصاية عليه والدته واثنان من الاساقفة حتى عام ١٠٦٥ م . وكان هنري يؤمن بالسلطة المطلقة التي سار عليها اسلافه خاصة أبيه، ولكنه وجد نفسه في صراع مع بعض الأمراء الذين استغلوا فترة الوصاية وقووا نفوذهم. ومن ذلك أن أمراء سكسونيا وبافاريا استعادوا بعض الأراضي من الدولة واعترضوا على بعض الضرائب التي تسدد للحكومة المركزية .

لم يترك هنري هؤلاء الأمراء ليحصلوا على ما يبتغون وإلا انتقلت العدوى الى بقية الولايات ، فشن عليهم حرباً في عام ١٠٧٥ م وانتصر عليهم وعامل كبار الأمراء معاملة مهينة ، ورغم ذلك لم ينصاع هؤلاء الأمراء فحاربهم مرة أخرى،وكان ينجح حيناً ويفشل حيناً آخر واستمر الحال الى عام ١٠٨٨ م حتى تمكن من السيطرة على الولايات المتمردة .

وكما كانت فترة قصور هنري الرابع فرصة لثورة بعض الأمراء ، فإن هذه الفترة قد أعطت الفرصة كذلك للبابوية لكي تستعيد مكانتها بعيداً عن السلطة العلمانية . وكان يتولى امر البابوية جريجوري السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٥ م) ، وفي عام ١٠٧٤ م عقد البابا جريجوري مجمعاً دينياً في روما واصدر عدة قرارات لاصلاح حال الكنيسة ومنها حق البابا في تعين رجال الدين ورؤساء الأديرة ، وعلى أثر صدور هذه القرارات بدأ الصراع بين البابا وهنري الرابع .

واعترض الامبراطور هنري على هذه القرارات ، وهو الذي كان يرى والده بالأمس يعين البابا نفسه، يجد نفسه لا يستطيع أن يعين أي رجل دين، و ستمسك هنري بحقه كامبراطور في تعيين الأساقفة ورجال الدين مستندا الى م سارت عليه المانيا دون غيرها من الحكام منذ فترة بعيدة . وانتهى الأمر بالصدام المسلح بين الطرفين. ولم يصل الطرفان الى نتيجة حاسمة ، فاستعان هنري بالطرق الدبلوماسية وفشل فيها أيضاً . وخلال هذه المرحلة عزل هنري البابا جريجوري كما عزل الاخير هنري وأنزل عليه قرار الحرمان ، ثم رضخ هنري للباباوية ثم عاد وتمرد. وظل الحال حتى نجح هنري في إقصاء البابا عن عرشه فعلاً بعد مجمع بركسن Brixen الذي عقد في عام ١٠٨٠ م ، ونصب مكانه البابا كلمنت الثالث ١٠٨٠ - ١١٠٠ م وهو الذي توج هنري عام ١٠٨٤ م .

وواقع الأمر كان الصراع بين الامبراطورية والباباوية في هذه المرحلة من أشد الحروب هولا في العصور الوسطى ، ولم تنته بعزل جزيجوري بل استمرت حتى وفاته ، ثم مع خلفائه من بعده . وليس لنا في هذا الموضع أن نتتبع مراحل هذا الصراع فله دراسة أخرى مستقلة ، انما ما يعنينا الآن أن هذا الصراع أخذ جهداً كبيراً من الامبراطور هنري الأمر الذي دفع بعض الأمراءخاصة السكسون لمعاودة التمرد مرة أخرى .

وقد نجح الأمراء الثائرون في ضم ولدي هنري وهما هنري الذي عرف بالخامس وكونراد اليهم ، وظل الصراع قائما بين الأبناء وابيهم حتى انتهى الأمر بالقبض على هنري الرابع واعلان ابنه هنري الخامس ملكا على المانيا عام ١١٠٥ م بعد تنازل الأب عن العرش .

هنري الخامس ١١٠٦ - ١١٢٥ م

كان الذين كسبوا المعركة في الصراع بين الباباوية والامبراطورية في عصر هنري الرابع هم نبلاء المانيا وأساقفتها ورؤساء الأديرة، وقد استغل هؤلاء ضعف هنري الخامس وهم الذين اتوا به الى العرش وقوى نفوذهم،

فزادت قوة الاقطاع في المانيا بدرجة اضعفت معها السلطة المركزية . وقد نجح هنري في ضم الجميع إلى جانبه،وتصالح معهم واعاد إلى المانيا قوتها حتى يتمكن من مواجهة الاخطار الخارجية الممثلة في هنغاريا وبوهيميا والباباوية .

وقد حقق هنري قدراً من النجاح في حروبه مع هنغاريا وبوهيميا وانتهى منه ليتفرغ للباباوية . وطال الصراع بين هنري الخامس والبابوية واستمر من عام ١١١٠م حتى عام ١١٢٢م حيث وقعت اتفاقية ورمز Worms . وواقع الأمر أن هذه الاتفاقية قد هدأت الموقف ولم تنه الصراع بين الباباوية والامبراطورية الذي يدور أساساً حول من أيهما أعلى سلطة من الأخر ومن له حق تعين رجال الدين . وعلى أية حال مات هنري عام ١١٢٥م، وطرح نبلاء المانيا فكرة وراثة العرش واختاروا رجلاً سهل المراس هو لوثير الثاني السكسوني ملكاً على البلاد (١١٢٥ - ١١٣٨ م).ولم يكن لوثير هذا بالرجل القادر على رفع المانيا من عثرتها بعد الصراع المرير مع الباباوية ، كما أن لوثير لم يكن مقبولاً من أمراء سوابيا وهم آل الهوهنشتاوفن Hohenstaufen .

أسرة الهوهنشتاوفن

برز في المانيا رجلان قويان بعد موت لوثير ، الأول هو هنري المتكبر Henry the proud (ت ١١٣٩ م) دوق سكسونيا ثم بافاريا أيضاً . وهنري هذا هو حفيد ولف الرابع Welf IV (ت ١١٠١ م) ولذلك كان هنري عميد البيت الولفي وعرف اتباعه بالولفيين . والثاني يدعى كونراد هوهنشتاوفن دوق سوابيا ، وكونراد هذا حفيد هنري الرابع من الأم . ويطلق على الهوهنشتاوفن أيضاً الجبليون Ghibelline نسبة الى قرية Waiblingen في اقليم سوابيا . وعلى ذلك أصبح امامنا هنري المتكبر زعيم الولفيين ، وكونراد زعيم الجبليين . ولما كان هنري رجلاً قوياً فقد خشي النبلاء قوته

وسيطرته عليهم ، وهو ما كانت تراه الكنيسة أيضاً ، لذلك اختار النبلاء كونراد ملكاً عليهم . ومن هنا ظهر التنافس بين الحزبين الولف والجبليين ، وانتقل صدى هذا التنافس إلى ايطاليا حتى أصبح مفهوماً لديها مع مطلع القرن الثالث عشر ان كلمة الجولف تعني المعارضة للجبليين أو الهوهنشتاوفن . أما في انجلترا فقد أصبح مفهوم هذا التنافس يعني أن الجبليين أو الهوهنشتاوفن هم أنصار الامبراطورية ، أما الجولفيون هم أنصار البابابوية في صراعها مع الامبراطورية . ولعل الأحداث التي وقعت في عهد أسرة الهوهنشتاوفن في صراعها مع البابوية تفسر هذا المفهوم .

كونراد الثالث ١١٣٨ - ١١٥٢ م .

قام الصراع بين الجبليين والولفيين مع اعتلاء كونراد عرش المانيا ، وإذا كان كونراد قد ملك السلطة وكان بوسعه القضاء على هنري فإن ولاء الولفيين لزعيمهم هنري كان اشد من بطش كونراد . وعلى أية حال فقد أتبع كونراد كافة السبل للقضاء على خصمه هنري ، وسادت البلاد حرباً أهلية مع بدايات عهد كونراد ، وكان لهذه الحرب اثرها الكبير على المانيا في الداخل والخارج . ونجح كونراد في أول الأمر في نزع بافاريا من هنري وخطط لضم سكسونيا . ومات هنري المتكبر فجأة في عام ١١٣٩ م أي بعد عام واحد من تولية الملك كونراد ، وارتاح كونراد لموته ، ولكنه اصطدم بعناد أهل سكسونيا الذين ناصروا أسره هنري وساندوا ابنه هنري الأسد الذي كان في العاشرة من عمره ونصبوه دوقاً على سكسونيا . وظل العداء مشتعلا حتى عام ١١٤٢ م حين لجأ كونراد الى الصلح وأعاد إلى الولفيين بافاريا وسكسونيا لينقذ بلاده من الحرب الأهلية .

وإذا كان كونراد اصطدم بالحرب الأهلية مع بداية حكمه في عام ١١٣٨ م ، فإنه اصطدم في العام الثاني ١١٣٩ بقرارات البابا انوسنت الثاني Innocent II (١١٣٠ - ١١٤٣ م) التي تعطى البابارية السلطة العليا على رجال الدين ، فاهتز عرش كونراد في الداخل والخارج . ولعل

هذا ما دفعه إلى عقد الصلح مع الولفيين ليتفرغ للبابوية. ولكن كونراد كان أضعف من مواجهة البابا .

وحاول كونراد أن يعوض فشله مع الأمراء والبابوية ، فخرج في عام ١١٤٨ م ومعه سبعون الف محارب وانضم الى الحملة الصليبية المعروفة بالثانية ومعه لويس السابع ملك فرنسا (١١٣٧ - ١١٨٠ م) ولكن الحملة فشلت فشلاً ذريعاً،وعاد كونراد الى المانيا دون نصر يقوى به على الأمراء والبابوية . ويبدو ان هذا الفشل قد شجع بعض الأمراء داخل المانيا على تعزيز مركزهم وتقوية نفوذهم ، ورغم خضوع كونراد للبابوية بهدف الحصول على اللقب الامبراطوري ، فإنه لم يحصل عليه ، فقد مات عام ١١٥٢م وهو في طريقه إلى روما للحصول على هذا اللقب .

فريدريك الأول بارباروسا Barbarosa ١١٥٢ - ١١٩٠ م

توفي كونراد والتنافس على أشده بين الجبليين والولفيين ، ولم يكن من وريث لملك كونراد سوى فريدريك المعروف بالأول فهدأت النفوس، لأن فريدريك هذا كان ابن فريدريك دوق سوابيا أخ كونراد ، وأمه هي جودث Judth أخت هنري المتكبر وعمة هنري الأسد . وهكذا اصبح تعين فريدريك ملكاً على ألمانيا مرضياً للطرفين المتصارعين .

عرف فريدريك باسم بارباروسا نسبة إلى لحيته الحمراء، وكان ذا عقلية ناضجة وعزيمة ماضية ، ومن حسناته أنه عمل لخير المانيا وآخى بين الجبليين والجولفيين وجنب البلاد فوضى الحرب الأهلية، وأعاد إلى هنري الأسد دوقتي بافاريا وسكسونيا .

تطلع فريدريك إلى اللقب الامبراطوري منذ إعتلائه العرش ، ولكنه كان مضطراً لإنهاء الحرب الأهلية التي ورثها من أبيه ، وما أن انتهى من تسوية احوال المانيا حتى واتته الفرصة بدعوة البابا يوجين الثالث Eugenius III (١١٤٥ - ١١٥٣ م) لمساعدته ضد أهل روما والنورمان نظير حصول فريدريك على التاج . واتجه فريدريك إلى روما عام ١١٥٤ م

حيث كان يوجين قد مات وتولى عرش البابوية هادريان الرابع Hadrian IV (١١٥٤ ـ ١١٥٩ م). وعند اجراء مراسيم التتويج تغاضى فردريك عن إمساك زمام جواد البابا ومساعدته على النزول على الأرض .

تعقد الموقف ونزل البابا من على فرسه بمفرده ورفض منح اللقب الامبراطوري للملك فريدريك . وظل الحال يومين دار خلالها نقاش بين رجال الملك والبابا . وفي نهاية الأمر رضخ الملك لطلبات البابا ، وأعيدت مراسم التتويج من جديد وامسك فريدريك بزمام جواد البابا طبقاً للتقاليد المتبعة في مثل هذه الحالات وتمت مراسم التتويج في يونيه عام ١١٥٥ م . .

بعد تتويج فريدريك امبراطورا أصبح إقليم لمبارديا تابعاً له ، لذلك أرسل الامبراطور حكاما من قبله ليصرفوا شؤون البلاد اللمباردية . ورضخت بعض المدن للأمر واعترضت بعضها وعلى رأسها مدينة ميلانو . ولم يكن أمام فريدريك الا أن يفرض سيادته بحد السيف، فخرج في عام ١١٥٨ م ليخضع البلاد الرافضة لسيادته ، ويرى البعض ان فريدريك كان يقصد من وراء ذلك ايضاً السيطرة على المدن البحرية الايطالية لتكون في خدمة التجارة الألمانية في حوض البحر المتوسط .

وجاءت المشكلة عندما فرض فريدريك سيطرته عن الأراضي البابوية، فاعترض البابا على هذا الأجراء الذي اعتبره مقدمة لفرض نفوذ فريدريك على حقوق البابا . ولم يأبه الامبراطور باعتراض البابا ، فرد الأخير بإنزال قرار الحرمان على الامبراطور وجلت القلوب لهذه الأحداث ولكن فريدريك لم يتراجع وبدأ بالزحف إلى ميلانو باعتبارها زعيمة للقوى المعارضة ، وحاصرت القوات الألمانية مدينة ميلانو وظل الحصار حوالي ثلاث سنوات ، وأخيراً استولى عليها بعد ما أهلكتها المجاعة ، ولم يكتف الامبراطور بسقوط المدينة بل اضرم فيها النار .

حشيت وغضب بقية المدن الايطالية من هذا التصرف الذي ربما

لحق بها في القريب العاجل ، وكونت هذه المدن حلفا في اواخر عام ١١٦٨ م وعرف هذا الحلف بإسم العصبة المباردية Lombard League. وتصدت هذه العصبة لقوات الامبراطورية وانتصرت عليها في عدة مواقع منها معركة ليانو Legnano عام ١١٧٦ م ، وفي العام التالي عقد صلحاً بين البابا وفريدريك عرف بإسم صلح البندقية ١١٧٧ م . وعلى أثر ذلك أصبح للمدن الايطالية الحكم الذاتي وتفككت العصبة اللمباردية، واحتفظ الامبراطور فريدريك بالسيادة الاسمية على هذه المدن .

ومن ذلك يتضح ان فريدريك لم يوفق تماماً في ايطاليا ، ولكنه عوض ذلك في بعض الجوانب الأخرى في أوروبا ، فقد نجح في تدعيم سلطانه في هنغاريا وبوهيميا وبولندا ، كما أنه نجح في أن يكون له الحق في تعيين بعض رجال الدين . وتطلعت آمال فـ ريك الى ابعد من أوروبا لعله كان يرغب في بعث الامبراطورية الرومانية ، ساحتها القديمة ، فخرج في عام ١١٨٩ م على رأس القوات الألمانية التي قدرها البعض بحوالي مائة الف واتجه ليصل الى الأراضي المقدسة يرأعبر آسيا الصغرى لينضم إلى هذه الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة وعلى رأسها ريتشارد الأول قلب الأسد Richard I the Lionhearted ملك انجلترا (١١٨٩ - ١١٩٩ م) وفيليب اوغسطس Philip Augustus ملك فرنسا (١١٨٠ - ١٢٢٣ م) ولكن أحلام فريدريك لم تتحقق ، فلم يكون الامبراطورية التي حلم بها ، ولم ينضم لقوات الحملة الثالثة ، فقد مات غريقاً في نهر سالف Seleph في إقليم قيليقيه بآسيا الصغرى عام ١١٩٠ م .

هنري السادس ١١٩٠ - ١١٩٧ م

خلف هنري والده فريدريك على العرش وفكرة الامبراطورية الرومانية العالمية لا تبرح عقا ، ونجح في ذلك نجاحاً ملموساً ، فقد تمكن من إخضاع ايطاليا عدا الممتلكات البابوية حتى لا يجر على نفسه المتاعب، وليجد في البابوية سنداً له،ثم وسع ممتلكاته جنوباً وضم جنوب

ايطاليا وصقلية وأنهى الحكم النورماني بهما . وبقضائه على الحكم النورماني يكون هنري قد قضى على أقوى حلفاء البابوية .

وان كان هذا ما نجح فيه هنري السادس بالحرب فإنه نجح في مجالات أخرى دون حرب، فقد طلبت إمارة انطاكية الصليبية الخضوع للامبراطورية باعتبار ان الأمارة نورمانية الأصل ، وان زوجته كونستانس هي الوريثة لعرش النورمان في صقلية وايطاليا . كما طلبت مملكة قبرص الشيء نفسه وكذلك إمارة قيليقية الأرمينية. وعندما وقع ريتشارد أسيراً في أيدي ليوبولد Leopold دوق النمسا أثناء عودته من الحملة سلمه إلى هنري السادس الذي احتفظ به مدة عامين ، وجال بخاطر هنري السيطرة عسكرياً على الامبراطورية البيزنطية كما تطلع إلى فرنسا واسبانيا ، وتصور نفسه حاكماً رومانياً على الامبراطورية الرومانية بعد بعثها . وأعد قواته للخروج بحملة صليبية الى الأراضي المقدسة ، وقد وصلت الحملة الى الشام ولكن هنري لم يلحق بها فقد مرض ومات في صقلية عام ١١٩٧م، بعد أن حكم الامبراطورية الرومانية المصغرة لمدة سبع سنوات، وعن عمر بلغ الثلاثة والثلاثين فقط .

فريدريك الثاني ١٢١٢ - ١٢٥٠ م

كان فريدريك الوارث الوحيد للامبراطور هنري السادس ، وكان فريدريك في الثالثة من عمره آنذاك ، لذلك دبت الفوضى في أنحاء المانيا قرابة عشرين عاماً ، تنازع السلطة خلالها الحزبان القديمان الولف والهوهنشتاوفن ، ورشح الولفيون أوتو أف برونزويك Otto Of Brunswick (١١٩٧ - ١٢١٨ م) ،ويعرف ايضاً بأوتو الرابع . كما رشح الهوهنشتاوفن فيليب دوق سوابيا (١١٩٧ - ١٢٠٨ م) ويعرف أيضاً باسم فيليب الرابع . وادعى كل منهما الحق لنفسه في حكم الامبراطورية وقامت الحرب الأهلية بين الحزبين ،لعبت السياسة البابوية والفرنسية والانجليزية دوراً كبيراً في

هذا الصراع حتى عام ١٢٠٨ م حيث مات فيليب الرابع . وهدأت الحال نسبياً حتى عام ١٢١٢ م عندما حكم اوتو الرابع بدعم من البابا انوسنت الثالث Innocont III (١١٩٨ - ١٢١٦ م) .

ولما بلغ فريدريك سن الرشد اشتعلت الحرب مرة أخرى وانتهت بانتصار فريدريك بعد ما تخلى البابا عند أوتو وساند فريدريك الذي ظل تحت وصاية البابا منذ موت أبيه .

وإذا اجاز لنا أن نصف الأمبراطور فريدريك في أسطر قليلة ، وفي ذلك ظلم له ، فيمكن القول ان فريدريك كان محارباً وسياسياً مثقفاً لدرجة عاليه ، مشجعاً للعلوم بدرجة تفوق ثقافته وجنديته . فقد تحدث فريدريك بلغات متعددة ، ونظم الشعر ، وشجع العلوم والفنون ، وله افكاره في الفلسفة والطب والهندسة . وعامل رعاياه معاملة بعيدة عن التعصب فكان منهم المسلم والمسيحي واليهودي وتكلم العربية وبدا وكأنه شرقي العادات ، هذا بالاضافة إلى حماسة للتجديد والثورة على القديم ، ولا عجب أن وصفه المؤرخ متى الباريسي Matthew Paris بأنه العجيب الذي بدل الدنيا وأثار اعجابها Super Mundi et Immutater mirabilis أو اعجوبة العالم .

ومن العجيب أن نجد مثل هذا الأمبراطور قد فشل في مجال السياسة في نظر معاصريه ، ويرجع ذلك الى آرائه المتقدمة لعصره التي أدت إلى اصطدامه بالكنيسة وعلى رأسها البابا انوسنت الثالث ، وهونوريس Honorius الثالث ١٢١٦ - ١٢٢٧ م ، وجريجوري التاسع (١٢٢٧ - ١٢٤١ م). والأسباب المباشرة لهذا الصدام ترجع إلى عدة عوامل منها ، أن الامبراطور فريدريك عمل على ضم ايطاليا وصقلية للتاج الامبراطوري ولكن البابوية وبعض المدن الايطالية وجدت غيرذلك،ونجحت البابوية ومن يؤيدها في النهاية .

ومن أسباب الصدام ايضاً موقف الامبراطور من الحملات الصليبية ، فهو الرجل الذي حكّم العقل قبل السيف ، وكان لا يرى استخدام العنف طالما وجد سبيلاً لغير ذلك . والمهم أن فريدريك تخلف عن قيادة الحملة

الصليبية الخامسة كما سبق أن وعد بذلك ، ثم خرج على رأس قواته بالحملة الصليبية السادسة بطريقة لم ترض عنها البابوية ، وكان لذلك كله عواقب وخيمة على الامبراطور .

وموجز هذه الأحداث أن الحملة الخامسة (١٢١٨ - ١٢٢١ م) استعدت للرحيل بعد أن اقسم فريدريك في حماسة الشباب - لإرضاء البابوية - بقيادتها،ولكنه اعتذر ووعد باللحاق بها . ووعد أكثر من مرة بالسفر ولكنه اعتذر كذلك وطلب التأجيل ، وظل هكذا ثلاث سنوات وأكثر حتى منيت الحملة بالفشل في خريف عام ١٢٢١ م ، وحمّل البابا والغرب الأوروبي مسؤولية هذا الفشل على الامبراطور ، وصدر ضده قرار الحرمان .

ووعد فريدريك بحملة أخرى ثم أجلها ، وأخيراً خرج بالحملة ، ولكن البابوية اعتبرته محروماً من الكنيسة ولا يصح له قيادة حملة صليبية . ورغم ذلك خرج فريدريك بالحملة المعروفة بالسادسة ونجح في ضم بعض الأراضي المقدسة بالوسائل السليمة إلى الأراضي الصليبية ، وصادفت حملته هذا نجاحاً لم تحصل أية حملة صليبية أخرى عدا الحملة الأولى ، ورغم ذلك عاد إلى أوروبا ليواجه غضب الكنيسة .

واصطدم فريدريك مرة أخرى بالبابوية عندما أعاد تنظيم دولته وأقام المجالس العامة التي جمعت نواباً من النبلاء ورجال الدين وأهل المدن ، لأن هذه النظم البرلمانية المتطورة في حقل هذه العصور لم تجد هوى في نفس البابوية والايطاليين ، وظنت الكنيسة أن فريدريك يسعى الى هدمها .

لم يجد فريدريك في الرد على الكنيسة غير مهاجمتها بالحجة والبرهان ، وكتب في عام ١٢٢٧ م أن المسيحية الأولى قامت على الفقر والبساطة وليس لأحد ان يشرع للناس قواعد غير التي شرعها السيد المسيح ، ولكن مثل هذه الكلمات لم يفهمها سوى طائفة الفرنشسكان التي أسسها القديس فرانسيس أف أسيس St. Francis Of Assisi ، وهي

الطائفة التي نادت بمثل هذه المبادىء في هذه المرحلة . وظل الصدام بين البابوية والامبراطور حتى مات عام ١٢٥٠ م ، بعد أن خلف وراءه اسماً لا زال الناس يختلفون في تقديره بين العظمة والعبقرية والإلحاد .

وإذا كان قد سبق عهد فريدريك عشرون عاماً من الفوضى ، فقد لحقه أيضاً ثلاثة وثلاثون عاماً من الاضطراب ، عادت خلالها السلطة للأمراء الذين نصبوا عليهم حاكماً أرتضى تسيدهم . وفي عام ١٢٧٢ م تمكن رودلف أف هابسبرج Rudolf Of Hapsburg من اعتلاء العرش وتكوين اسرة حاكمة . وتطلع رودلف الى التاج الامبراطوري فطلبت منه الكنيسة الخضوع التام للبابوية والتنازل عن ادعاءات المانيا في ايطاليا الجنوبية وصقلية ، ووعد بذلك عام ١٢٧٩ م ، وانتظر اللقب ولكنه لم يحصل عليه . والمهم أن رودلف تمكن من اعادة تنظيم المانيا واعادة الامن والاستقرار داخل البلاد وظلت سلالة رودلف على عرش المانيا حتى الحرب العالمية الأولى .

الفصل الحادي عشر

آل كابيه في فرنسا

هيو كابيه
لويس السادس
لويس السابع
فيليب أوغسطس (الثاني)
لويس الثامن
لويس التاسع
فيليب الثالث
فيليب (الجميل) الرابع

إذا كان حكم الأسرة الكارولنجية قد استمر في المانيا حتى نهاية حكم لويس الطفل عام ٩١١ م ، فإن حكم الأسرة ذاتها ظل في فرنسا حتى عام ٩٨٧ م . ويرجع ذلك إلى الفوضى التي عمت فرنسا في هذه المرحلة، وتمخض عنها قيام النظام الاقطاعي الذي وطد اقدامه على حساب السلطة المركزية التي تقلصت تقلصاً واضحاً وأصبحت سلطة الحكام المحليين هي السلطة الفعالة في حكم البلاد .

وموجز ذلك أنه لما هاجم الفيكنج Vikings مدينة باريس في عامي ٨٨٦ - ٨٨٧ م عجز الملك الفرنسي شارل السمين الكارولنجي (٨٨٤ - ٨٨٧ م) عن حماية المدينة ، ودافع عنها اودو Odo كونت باريس . وترتب على هذا الموقف عزل الملك شارل واختيار أودو ملكاً على فرنسا في عام ٨٨٨ م . ولم يكن ذلك بالأمر السهل على المواطن الفرنسي الذي دفعته أمجاد شارلمان إلى التمسك بالبيت الكارولنجي، وترتب على ذلك صراع طويل بين البيت الكارولنجي وبيت النبلاء ظل قرابة مائة عام . وخلال هذا الصراع نجح شارل البسيط (٨٩٣ - ٩٢٣ م) وهو من البيت الكارولنجي في الوصول إلى العرش عندما اختير ملكاً على البلاد .

لم يرض روبرت أخ أودو عن هذا الاختيار ، فقد كان يعتبر نفسه أحق بعرش فرنسا باعتباره وريث أخيه، وناصب شارل البسيط العداء .

فتحالف شارل مع الفيكنج وتنازل لهم عن اقليم نورمانديا وساعدوه في حروبه ضد روبرت، كما ساعدت ايضاً لوثرنجيا شارل في صراعه مع روبرت ، ومن هنا تفوق شارل على روبرت ، ولكن روبرت انتصر على شارل في عام ٩٢٢ م ، وتوج روبرت نفسا ملكاً على فرنسا . وظهر في فرنسا ملكان في وقت واحد ، ودام هذا الحال لعام واحد فقد مات كل من شارل وروبرت في العام التالي ٩٢٣ م .

ونجح رودولف Rudolph وهو من آل كابيه Capetفي اعتلاء عرش فرنسا (٩٢٣ - ٩٣٦ م) بعد شارل وروبرت ، ثم عادت الملكية بعدها الى البيت الكارولنجي في شخص لويس الرابع (٩٣٦ - ٩٥٤ م) ابن شارل البسيط . وحاول لويس هذا أن يعيد المجد الكارلنجي ولن يأتي هذا الا بالانتصار على منافسيه ، لذلك لجأ الى المانيا وتزوج من اخت اوتو الأول امبراطور المانيا ، وبذلك ضمن مساندة الأمبراطور .

وحوالي ذلك الوقت ظهر هيوكابيه Hugh Capet ابن روبرت،وكان هيو هذا على درجة من القوة التي يعجز لويس عن مقاومتها ، وأحس لويس بهذا وآثر السلامة بعقد الصلح وانسحب من مدينة باريس واقام في مدينة لايون Laon ، وكان في انسحاب لويس فرصة استغلها هيو لتقوية نفوذه في فرنسا على حساب الملكية المنهارة حتى ان لوثير (٩٥٤ - ٩٨٦ م) الذي حكم فرنسا بعد لويس كان ملكاً اسمياً على البلاد ، وكان في ذلك فرصة أخرى اغتنمها هيو ليزيد من نفوذه داخل البلاد . ولما توفي لويس الخامس (٩٨٦ - ٩٨٧ م) - الذي تلى لوثير على العرش - دون وريث كانت الفرصة مهيأة تماماً لاستيلاء هيو كابيه على عرش فرنسا . وبذلك انتقل التاج الفرنسي من الأسرة الكارولنجية الى آل كابيه . واصبح هيو ملكاً على فرنسا وحكم حوالي تسع سنوات دون منازع (٩٨٧ - ٩٦٦ م)

من الواضح ان هيو كابيه كان نبيلاً اقطاعياً في دوقيته ، وعندما صار ملكاً على البلاد اصبح ممثلاً لكبار الاقطاعيين . ولكن آل كابيه ورثوا الحق

الملكي كاملاً وتمكنوا من مسايرة الانطاعين ، وهو ما عجزت عنه الملكية الكارلنجية وكان سبباً في نهايتها ، ولعل نجاح آل كابيه في هذا المضمار هو أن الجذور الاقطاعية لآل كابيه قد مكنتها من مسايرة الاقطاعيين وهو ما افتقرت اليه الأسرة الكارولنجية .

وإذا حاولنا القاء نظرة على فرنسا بعد هذه الأحداث نجد أن شمال فرنسا كان يختلف كثيراً عن الجنوب ، ففي الشمال اعتاد البارونات على زيارة القصر الملكي وتقديم ما عليهم من الواجبات الاقطاعية ، وشذ الجنوب عن الشمال ولم يرتبطوا بآل كابيه الا ارتباطاً واهياً . أما فيما يتعلق بالأقسام الادارية فقد كان في الشرق دوقية برجانديا التي حكمها فرع من اسرة آل كابيه الحاكمة ، ولعل في ذلك سر ولاء الشرق للبيت الحاكم . وفي الغرب كانت مقاطعة بريتاني شبه مهملة ، ومقاطعة نورمانديا التي كانت تابعة للتاج الفرنسي بموجب معاهدة سانت كلير التي وقعت عام ٩١١م ، وهي المقاطعة الوثنية التي اعتنق اهلها المسيحية وتعايشوا مع الفرنسيين ، وفي الجنوب كان أهم الأقاليم مقاطعة اكويتين وتولوز وبرشلونة ، أما في الشمال فقد كانت أمارة الفلاندرز ذات النشاط التجاري والمدن الفسيحة .

وليس لملوك آل كابيه الأوائل نشاط يسترعي الانتباه ، سوى انهم تمكنوا من تثبيت دعائم الوراثة في سلالتهم بعد هيو كابيه ، فقد تم تتويج روبرت في حياة ابيه وعرف باسم روبرت الثاني ٩٩٦ - ١٠٣١ م) وخلفه ابنه هنري الأول (١٠٣١ - ١٠٦٠ م) ومن بعده ولده فيليب الأول (١٠٦٠ - ١١٠٨ م). وظل مبدأ الوراثة في هذه الأسرة حتى عام ١٣٢٨ م .

لويس السادس ١١٠٨ - ١١٣٧ م

كان لويس يصرف أمور الدولة في عهد أبيه ، وتدرب على شؤون الحكم والادارة ، وما أن تولى العرش حتى كان قد نضج بدرجة تؤهله لحكم البلاد حكماً سليماً . وقد حارب لويس الاقطاعيين وانتصر عليهم

وكون جيشاً قوياً حمى به البلاد ، وعمل على رخاء دولته بحماية الفلاحين والصناع،وقد ساعده في حكمه سوجر Suger رئيس دير سانت دنيس St-Donis الذي كان وزيره وصديقه والذي يرجع له الفضل في تدبير شؤون الدولة ، وقد استمر سوجر هذا في منصبه في عهد لويس السابع .

لويس السابع (١١٣٧- ١١٨٠ م)

ورث الحكم عن أبيه ، وعمل بكل طاقته لخدمة الدولة لدرجة أهمل فيها واجباته الزوجية ، وأدى هذا إلى تمرد زوجته اليانور Eleanor وريثة دوقية اكويتين. ومن أهم أعمال لويس السابع خروجه مع كونراد الثالث ملك المانيا على رأس الحملة الصليبية المعروفة بالثانية التي اختل توازنها على أثر ضربات السلاجقة لرجالها في آسيا الصغرى ، ثم فشلها أيام أسوار دمشق . وبعد عودة لويس مهزوماً من الشام عام ١١٤٩ م طلق زوجته ، فتزوجت اليانور من هنري الثاني (١١٥٤ - ١١٨٩ م) ملك انجلترا ، وبذلك انتقلت دوقية اكويتين من التبعية للتاج الفرنسي الى التاج الانجليزي ، وسيترتب على ذلك صدام بين الدولتين لم تنج فرنسا منه الا بالصراع الذي تم بين هنري الثاني والكنيسة الانجليزية .

ولما كان لويس السابع أقرب إلى الرهبان من الملوك فقد خابت آماله في الحياة الدنيا فابتعد عنها وتقرب للكنيسة ، ولعل هذا الدافع يرجع الى أن لويس السابع قد أحرق في عام ١١٤١ م مدينة فترى Vitry اثناء صراعه مع كونت شامباني وأهلك ثلاثة عشر الف نسمة . والمهم أن لويس سلم ابنه فيليب مقاليد الحكم في فرنسا .

فيليب الثاني أوغسطس (١١٨٠ - ١٢٢٣ م)

كان ملكاً ذكياً عمل على تشجيع العلوم ، كما اتصف ايضاً بالحزم والشجاعة والحذر والدهاء ، ولم يتردد عن سلوك أي سبيل يوصله الى غايته . ومن حذره أنه كان كريماً من الكنيسة ولكنه لم يسمح لرجال الدين أو البابوية بأن تتدخل في شؤون دولته السياسية ، ولعل في هذه الصفات ما

جعله يحصل على ما يريد دون استعمال القوة العسكرية . وواقع الأمر كانت فرنسا في أشد الحاجة الى مثل هذه الشخصية لتقف أمام انجلترا وفيها هنرى الثاني ، وريتشارد قلب الأسد، ويوحنا، وأمام المانيا حيث حكم فريدريك باربا روسا وهنري السادس .

نجح فيليب في عام ١٢٠٤ م في فتح اقليم نورماندیا واسترده من التاج الانجليزي وتقوى فيليب بهذا النصر واستطاع ان يضم بريتاني ، وانجو، ومين ، وتورين ، وبواتو الى أملاك التاج الفرنسي . ومع قوة الملكية بالحصول على هذه الأراضي استطاعت السيطرة على الحكومة المحلية وتقلصت سلطة الأدواق والكونتات ، واشرفت الدولة على جميع الأقاليم .

لم تُسلم انجلترا بضياع نورماندیا ، فتحالف يوحنا ملك انجلترا (١١٩٩ - ١٢١٦ م) مع أوتو الرابع امبراطور المانيا ومع كونت فلاندر للوقوف في وجه التوسع الفرنسي ، ووضعت الخطط العسكرية للقضاء على فيليب في ضربه واحدة . ووقف فيليب وجنده في الميدان ليواجه كل هذه القوى مجتمعة، ولم يوزع قواته على جبهات القتال بل نازل بها مجتمعه القوات الانجليزية في معركة بوفين Bouvines عام ١٢١٤ م ، وهزم فيليب يوحنا وترتب على هذه الهزيمة نتائج بالغة الأهمية كان لها أثرها السياسي على قارة أوروبا بأكملها ، ومن هذه النتائج خلع أوتو من عرش الامبراطورية الالمانية وتوليه فريدريك الثاني ، وإنهاء زعامة المانيا على القارة الأوربية . كما خضع كونت فلاندرز لملك فرنسا . أما في انجلترا فقد كان من نتيجة هذه الهزيمة تمرد النبلاء الإنجليز على الملك ومحاربته وهزيمته وإجباره على توقيع العهد الاعظم Magna Carta بعد عام من الهزيمة ١٢١٥م . ولا شك ان موقف الملكية في فرنسا قد زاد قوة على ما تبقى من نفوذ الاقطاعيين .

وفي مجال السياسة الداخلية فقد حكم فيليب بلاده بمنتهى الاخلاص رغم صراعه لبعض الوقت مع الكنيسة بسبب زواجه من أجنس اف ميران Agens Of Meran وطلاقه لزوجته الثانية انجبورج Ingeborg.

وتعرض فيليب لقرار الحرمان من الكنيسة ولكنه لم يعبأ بهذا القرار.

وأعاد فيليب تنظيم دولته فاستبعد رجال الدين من البلاط وحل محلهم رجال القانون وشجع التجارة بمنح الامتيازات وحماية التجار ومنح عدداً من المدن عهداً بالحكم الذاتي . واستبدل بالخدمات الاقطاعية التي أصبح في غنى عنها البدلات العسكرية . واهتم بالعمارة فتم في عهده بناء حصن اللوفر ليحمي نهر السين، وأتم واجهة كنيسة نوتردام Notre Dame .

ولارضاء البابوية والرأي العام الأوروبي ولكي لا يظهر بمظهر المتخلف عن حماية الأراضي المقدسة خرج مع الحملة الصليبية الثالثة مع ريتشارد قلب الأسد وفريدريك باربار وسا لمحاربة صلاح الدين . وعاد فيليب من الشام فاشلاً قبل أن تستكمل الحملة اعمالها . وعلى اية حال فقد مات فيليب عام ١٢٢٣م بعد أن اقام دولة فرنسا القوية .

لويس الثامن ١٢٢٣ - ١٢٢٦ م

تولى الحكم بعد أبيه ، وقد شارك لويس في كثير من الأعمال في حياة أبيه . ومن ذلك انه قاد الجيش الفرنسي ضد انجلترا عندما استنجد بارونات انجلترا بالملك فيليب أوغسطس بعد محاولة تنصل الملك الانجليزي يوحنا من بنود العهد الاعظم ، كما تولى لويس ايضاً قيادة القوات الفرنسية في الحملة الاليبجنسية ضد المراطقة في جنوب فرنسا ، وهي المشكلة التي ورثها من أبيه . وأكد لويس سياسة ابيه في تقوية السلطة المركزية والقضاء على الهراطقة الذين سيطروا على جانب من جنوب فرنسا . وفي السنة الأخيرة من حكمه ١٢٢٦ م توجهت القوات الفرنسية الى جنوب فرنسا لضرب الهراطقة وسانده في عمله هذا البابا هونوريوس الثالث ، ولم يستطع عموري دي مونتفورت Amoury de montfort ابن سيمون دي مونتفورت قائد الحركة الاليبجنسية مواجهة القوات الفرنسية فأقر بسيادة لويس الثامن على أراضي الجنوب . وكان لويس قد تزوج من

بلانش القشتالية Blanche of Castile وانجب منها أبا هو لويس المعروف بإسم القديس لويس أو لويس التاسع

لويس التاسع ١٢٢٦ - ١٢٧٠ م .

حكم لويس فترة طويلة ، ويرجع ذلك إلى توليه الحكم قاصراً في الثانية عشر من عمره فتولت أمه الأرملة الشابة بلانش الوصاية على ابنها ، ورغم جمالها وفتنتها لم تفكر في الزواج وصانت ما يجري في عروقها من دم ملكي ، فهي ابنة الملك الفونسو التاسع Alfons. IX ملك قشتالة ١١٥٨ - ١٢١٤ م ، وزوجة ملك هو لويس الثامن وأم ملك هو لويس السابع ، وحفيده ملك هو هنري الثاني ملك إنجلترا . ويبدو أن هذا الرصيد الهائل من الملكية دفعها الى سلوك طيب حيال فرنسا وعوضت ما شاب جدتها اليانور زوجة هنري من سلوك معيب .

وعلى أية حال تفرغت بلانش لتربية ابنها لويس تربية فاضلة حتى حكم لويس بنفسه منذ عام ١٢٣٥م ، وخلال فترة حكمها نجحت في السياسة الداخلية والخارجية . ففي المجال الداخلي قامت بأعمال اجتماعية عظيمة ، فقد أعتقت الكثير من أرقاء الأرض . وجهزت العديد من البنات الفقيرات للزواج ، وتغلبت على البارونات الذين حاولوا إعادة حقوقهم القديمة . أما في المجال الخارجي فقد عملت على حقن الدماء عندما اشتد الصراع بين فرنسا وانجلترا وفضلت الصلح بشروط مشرفة .

عندما تسلم لويس التاسع مقاليد الحكم لم يبتعد عن السياسة التي رسمتها والدته . ففي مجال السياسة الداخلية عامل النبلاء معاملة طيبة مقابل الوفاء بما عليهم من الالتزامات لرجالهم وللدولة ، وشدد العقاب على المخالفين . وادخل العديد من القوانين التي تحرم الثأر وقتل العبيد والاتباع دون محاكمة ، وأوجب المحاكمة بالأدلة والشهود محل المبارزة ، وزاد من عدد المحاكم الملكية وتقلصت محاكم البارونات . ولكي يتأكد لويس من حسن سير القضاء قرر حق استئناف أحكام محاكم البارونات أمام محكمة

الملك المركزية . وبالإضافة إلى ذلك فقد كان لكل شاك الحق في مقابلة الملك ليعرض عليه مظلمته في القصر الملكي أو في أي مكان ، وسجل المؤرخ الفرنسي جوانفيل Joinville المعاصر للملك لويس ، أن الملك كثيراً ما كان يخرج بعد الصلاة ويجلس تحت أحد الأشجار في غابة فنسن Vincenne وحوله رجاله ، فيقدم اليه كل مظلوم ويشرح له قضيته دون مراسم رسمية ، وقد يفصل الملك في القضية في حينه ، أو يحيلها إلى أحد رجاله الجالسين حوله إذا كان الأمر يحتاج إلى دراسة . وخلاصة القول أن فرنسا نعمت برخاء لم تعرفه منذ قرون، وأمن طالما اشتاقت الناس إليه فانتجوا وزادت ثروة فرنسا بدرجة كبيرة .

وفيما يتعلق بالملك لويس وعلاقته برجال الدين ، فقد عاملهم على أنهم بشر وعيوب البشر كثيرة ، ولم يجد لويس من علاج سوى القدوة الحسنة ، فكان لهم مثالاً ، ولم يتورع عن معاقبة المخالفين، وحاكمهم أمام المحاكم الملكية بعد أن قيد سلطة المحاكم الكنيسة، وظل القانون يظله جميع المواطنين ، ورغم علاقة لويس الطيبة مع البابوية إلا أنه أصدر في عام ١٢٦٨ م قانوناً قيد به حق البابا في تعين رجال الدين في فرنسا .

وفيما يتعلق بالسياسة الخارجية فقد سار لويس على المفهوم نفسه الذي سار عليه في علاقته بباروناته ورعيته ، فقد كان يرى أنه بوسع الحكومة أن تسلك سلوكاً طيباً مع جيرانها مع الحفاظ على كرامتها ،فعمل على تجنب الحرب بقدر الامكان رغم ما كان له من جيش منظم مدرب . ومن ذلك أن لويس رد إلى انجلترا واسبانيا أراضي استولى عليها أسلافه دون حق، حتى أن لويس لم يدخل في حرب منذ عام ١٢٤٣م حتى وفاته ١٢٧٠ م باستثناء الحروب الصليبية، وهي الحروب التي كانت عملاً مقدساً من وجهة نظر الغرب الأوروبي .

وكثيراً ما تدخل لويس بين دولتين للتوفيق بينهما ، وهي سياسة مخالفة تماماً للعصر الذي عاش فيه . فقد كان المألوف اثارة النزاع بين الأطراف، وأن تشتعل الحرب بينهم ، والمنتصر في الحرب ضعيف .

وإذا كان لويس قد نجح داخل فرنسا في الساحة الأوروبية التي عرف فيها بإسم القديس لويس ، وأصبح المحارب والسياسي البارع والتقى الورع الذي حكمه الملوك بينهم ، فإنه قد فشل في حملاته الصليبية . فقد قام لويس بحملته الأولى المعروفة بالحملة السابعة عام ١٢٤٨ م واتجه الى مصر ورسا عند مدينة دمياط واستولى عليها ، وحقق نجاحاً في أول الحملة حتى وصل الى مدينة المنصورة ، ولكن الدائرة دارت على قواته وهزم واسر عام ١٢٥٠ م . وعندما افتدى نفسه بالمال ابحر الى الشام ليقوم بحملة اخرى ليعوض فشله في مصر ولكنه فشل في الشام مثلما فشل في مصر، فعاد الى بلاده مهزوماً ذليلاً .

وحاول لويس أن يعوض فشله في الحملتين السابقتين ، فاستعد في عام ١٢٧٠ م بحملة اخرى كانت وجهتها تونس هذه المرة ، ولما كان لويس مريضاً فقد مات بعد ما وصل إلى تونس ، ولم يعد هذه المرة مهزوماً بل عاد جثماناً ليكرمه الفرنسيون لما قدمه من أعمال عظيمة وادخلوه في تعداد القديسين، وظلت ذكراه عالقة بالأذهان باعتبار أن عصره كان من العصور الذهبية التي عاشتها فرنسا .

فيليب الثالث ١٢٧٠ - ١٢٨٥ م

ورث فيليب الثالث دولة فرنسا القوية بفضل أعمال اسلافه، ولم يكن فيليب حاكماً قوياً مثلهم ولكن الأنظمة التي ورثهاساعدته كثيراً،ولم تظهر عدم كفايته بقدر كبير . وقد لعب القدر دوراً كبيراً في حياة فيليب فقد نجح في ضم بعض الاقاليم إلى فرنسا دون إراقة دماء،وترتب على ذلك القضاء على جانب كبير من نظام الملكية الاقطاعية في فرنسا وظهور الملكية المركزية .

ومن ذلك ان الفرنسو أمير بواتيه أبحر وزوجته مع لويس التاسع إلى تونس في الحملة الصليبية ، ولكنه مات هناك ، وباعتبار فيليب ملكاً على فرنسا فقد آلت اليه املاكهما الواسعة في اقليم تولوز وبرفانس وبواتو

وأفرن Auvergne . والشيء نفسه حدث في عام ١٢٧٤ م بعد وفاة هنري ملك نافاري Navarre وكونت شامباني Champagne، ولم يترك هنري عقبا له سوى طفلة في الثالثة من عمرها فلجأت أمها إلى فيليب لحمايتها، فاستجاب لها ووضع أراضيها تحت حماية التاج الفرنسي، وزوج الأم الأرملة إلى ابنه فيليب . وعلى هذه الصورة تقلص الحكم الاقطاعي في فرنسا وبدأت فرنسا الدولة الملكية المركزية السلطة .

فيليب الرابع ١٢٨٥ - ١٣١٤ م

عرف الجميل لجمال وجهه ، وسار على النهج نفسه الذي سار عليه أسلافه من تقوية السلطة المركزية واخضاع كافة الطبقات من رجال الدين والاشراف والعامة لحكم القانون . وفي المجال الاقتصادي شجع الصناعة والتجارة حتى لا يعتمد إقتصاد فرنسا على الزراعة فقط،ولتنفيذ هذه الأفكار إعتمد على رجال القانون الشبان فكانوا أعوانه ومستشاريه .

ولعل ما دفع فيليب إلى ذلك،ما ورثه في فرنسا القوية بجهد أسلافه وبفضل الحروب الصليبية التي لعبت فيها فرنسا دوراً كبيراً عاد عليها برفعه ادبية وروحية . هذا بالإضافة إلى عدم الاستقرار في انجلترا بسبب الصراع بين الملوك والبارونات ، وفي المانيا المفككة نتيجة الصّراع بين الاباطرة والباباوات .

ويؤخذ على فيليب حاجته الدائمة للمال لتنفيذ مشروعاته فابتدع أنواعاً جديدة للضرائب وأصر على جمعها نقداً ، ووقف من فرسان الداويه Templars موقفاً عنيفاً وصادر أملاكهم ، وحل جماعتهم وعين موظفين بدلاً منهم تحت اشراف هيئه ديوان النفقات ،واقتصرت مهمتهم على تحصيل الأموال وصرفها، ولم يكن لهم شأن بالادارة المالية . ولم يكتف فيليب بذلك بل قبض على جميع فرسان الداوية في فرنسا واتهمهم بالعمل ضد المسيحية وحاكمهم وانتزع منهم اعترافاً بإدانتهم

وحاول فيليب تنظيم الحركة التجارية ، فحرم تصدير المعادن النفيسة من بلاده، وفرض الرسوم العالية على الصادرات والواردات، وتمادى في ذلك

حتى فرض الضرائب على الكنيسة دون الرجوع للبابا ، ويرجع ذلك ان الكنيسة كانت تملك ربع الأراضي الفرنسية . وهذا ما جعله يدخل في صراع مع البابا بونيفاس الثامن Boniface VIII ١٢٩٤ - ١٣١٣ م .

وجاهد البابا قدر استطاعته ولكنه فشل ومات في عام ١٣٠٣ م بعد ما اضناه الكفاح ، وإذا كان فيليب قد تدخل من قبل في شؤون أرض الكنيسة ، فإنه تدخل هذا المرة في تعيين البابا نفسه ، وعين البابا كلمنت الخامس Clement V (١٣٠٥ - ١٣١٤ م) ونقل مقر البابوية من روما الى افنيون في عام ١٣٠٩ م وظلت مقراً باباوياً حتى عام ١٣٧٧ م، وهي الفترة التي تعرف في التاريخ بإسم الأسر البابوي حكم خلالها ثمانية باباوات ، وهكذا انتصرت فرنسا على البابوية بصورة لم يتصر بها ملكاً أو امبراطوراً من قبل. وانقلب الوضع في هذه المرحلة وأصبح رجال القانون هم الحاكمون بعد أن استعان بهم فيليب ، على العكس من العهود السابقة في أوروبا حيث كان يستعان برجال الدين لضرب الاقطاع .

ورغم هذه الاصلاحات إلا أن أثرها كان سيئاً للغاية بعد بعد وفاته ، فرغم حب الشعب الفرنسي للملك فيليب وإعجابه بشجاعته الا أنه صب اللعنات على ذكراه ، فقد رأوا فيه ملكاً مستبداً حطم كيان فرنسا ، وان إصلاحاته المالية عادت بالضرر على الدولة ، فمن المعروف اقتصادياً ان رأس المال جبان وأنه يهرب من الحكم المطلق ، لذلك فر رجال المال من اليهود واللمباردين أمام تعسفاته في جمع المال. فتعطلت التجارة وشلت حركتها . وخلاصة القول أن الرخاء الذي ورثه فيليب عن أجداده كان يسير بالقصور الذاتي في عهد فيليب ثم اضمحل بعد وفاته .

وإذا ما استثنينا هذا الجانب نجد أن فرنسا تقدمت تقدماً رائعاً في بعض النواحي الاقتصادية والتشريعية والأدبية والفنية ، فقد جلبت الصناعات رقيق الأرض ، وظهرت طبقتا رجال الأعمال ورجال القانون وطغتا على طبقة رجال الدين ، وأصبح للطبقتين الجديدتين صوت في مجلس

الطبقات الذي عقد عام ١٣٣٢م،وهو المجلس الذي ناصر الملك ضد البابوية .

وظهر في عصر فيليب شعراء الفروسية الذي كتبوا للحب العذري في إقليم بروفانس جنوب فرنسا ، وظهرت ايضاً قصص الملاحم في شمال فرنسا ، وفي عصر فيليب ايضاً ظهر اثنان من المؤرخين هما جوانفيل الذي أرخ للملك لويس التاسع وفلهاردوين Villehardouin مؤرخ الحملة الصليبية الرابعة التي هاجمت القسطنطينية عام ١٢٠٤م وأقصت الحكم البيزنطي حتى عام ١٢٦١م .

وفي عهد فيليب ايضاً ارتقت جامعتا باريس وأورليان وأعيد تنظيمهما، وظهرت الكنائس الكبيرة في سانت دنيس ونوتردام في تحفة معمارية رائعة في فنها القوطي . والأهم من ذلك كله أن الوحدة الوطنية سادت هذه المرحلة لتخمل على وحدة البلاد بدلاً من النزعة الاقليمية الاقطاعية .

وفي ختام الحديث عن عهد فيليب نقول أن الفضل في هذا كله يرجع الى طبقه رجال القانون ـ الذين سيطروا على مقاليد الادارة ـ بعقولهم المتفتحة بدلاً من رجال الدين ذوي العقول الجامدة التي مثلت تلك العصور. وفي الرسائل التي تركها بطرس دوبوا Pierre Dubois وهو من رجال القانون تتضح الفجوه الواسعة بين العقليتين. ومما قاله أن اموال الكنيسة يجب أن تكون في خدمة الدولة، ويجب فصل كنيسة فرنسا عن روما والا يكون للبابوية سلطة زمنية على الاطلاق ، وشطح بطرس عندما قال: يجب أن يكون فيليب امبراطوراً على أوروبا بأسرها ويتخذ من القسطنطينية مقراً له ، ولكنه تجاوز فكر عصره بقرون عندما طالب بتكوين محكمة دولية للفصل في النزاع القائم بين الدول ، وأن تعلن المقاطعة الاقتصادية على أي دولة مسيحية ترفع سلاحها ضد دولة مسيحية أخرى، وان يمنح النساء جميع الحقوق السياسية كالرجال ، وطالب بإنشاء معهد للدراسات الشرقية في روما . ولا شك أن مثل الأفكار لم نسمع منها إلا في القرن العشرين ، وهذا يدل على عبقرية بطرس وسعة أفق وطموح تجاوز الحد .

تعاقب على عرش فرنسا بعد فيليب ثلاثة من أولاده كان آخرهم شارل الرابع ١٣٢٢ ـ ١٣٢٨ م ، ومات الأخير دون ولد يرث العرش، وكان اقرب وريث من الذكور هو فيليب دي فالوا Philpppe de Falois ابن اخي فيليب الرابع ، فاعتلى عرش فرنسا ١٣٢٨ ـ ١٣٥٠ م . ومع تولي آل فالوا العرش بدأت أسرة جديدة على عرش فرنسا وانتهى حكم آل كابيه .

الفصل الثاني عشر

انجلترا وأخطار الفيكنج

٨٧١ ـ ١٠٦٦م

حكم الملك الفريد
خلفاء الفريد
الملك كانوت وخلفاؤه
نهاية الحكم الانجلوسكسوني
الإقطاع في إنجلترا

الفيكنج هم سكان شبه جزيرة إسكندناوة القدامى ، وهم الدانيون Danes أو الدانمركيون ، والنرويجيون ، والسويديون ، وكلهم يرجعون إلى أصل انجلوسكسوني . وقد ساعدتهم طبيعة بلادهم وكثرة خلجانها على التحرك في البحار والأنهار المحيطة بهم . وكانوا يخرجون في جماعات بغية السلب والنهب وتوغلوا عن طريق الأنهار في البلاد التي هاجموها لمسافات طويلة معتمدين على عنصر المفاجأة . وقد سببت هجماتهم الدمار والفزع في أنحاء أوروبا قبل أن يولوا وجههم شطر الجزر البريطانية وغيرها من البلاد التي وصلوا إليها .

وأول هجمات الفيكنج على الجزر البريطانية كانت في نهاية القرن الثامن وأوائل التاسع الميلادي ، ومنذ العقد الرابع من القرن التاسع اشتدت غاراتهم في شكل جماعات صغيرة، والواضح أن مثل هذه الغارات لم تتعد السلب والنهب ، ومنذ عام ٨٦٥ وصلت جماعة كبيرة منهم بهدف الاستيطان، وفي الفترة الممتدة حتى عام ٨٧٠ نجحوا في امتلاك جانباً من الأراضي الانجليزية .

الفريدAlfred ‏٨٧١ ـ ٨٩٩ م:

تولى حكم مملكة وسكس وعمره ثلاث وعشرين عاماً ، وواقع الأمر أن مملكة وسكس هي التي تولت عبء الدفاع عن الجزر البريطانية بعد

سيطرة الدانيين على نورثمبريا وانجليا وجانب من مرسيا . وفي السنة الأولى لاعتلاء الفريد العرش لمع كبطل قدير تمكن من التصدي للغزاة في معارك متعددة لم يكن النصر فيها حاسماً لأي منهما ، وفي عام ٨٧٢ م تم عقد الصلح بين الطرفين .

لم تكن الهدنة سوى هدنة مسلحة بالنسبة للملك الفريد ، وظل الفريد يعد العدة للقاء المرتقب ، وبعد خمس سنوات تجددت المعارك مرة أخرى ، ففي عام ٨٧٦ فاجأ الفريد الدانيين ولكنه هزم وفر من ميدان المعركة ، ورغم الهزيمة عاود تجميع قواته مرة أخرى واستعد استعداداً أفضل بعدما خبر طرق القتال عند الدانيين . وفي عام ٨٧٨ م أنزل الفريد بالدانيين هزيمة ساحقة عند إدنجتونEdington ، وترتب على هذه المعركة معاهدة تقضي بسحب جميع قوات الدانيين من مملكة وسكس واعتناق زعيم الدانيين وهو جثروم Guthrum الديانة المسيحية، وتعهده بعدم مهاجمة أملاك الفريد بعد ذلك ، وبدت هذه المعاهدة وكأنها حفظت استقلال مملكة وسكس .

لم يلتزم الدانييون بالمعاهدة فقد قامت بعض الاشتباكات كان أشدها مهاجمة الدانيين عام ٨٩٢ م لمملكة وسكس بعد وصول مجموعة كبيرة من بلادهم بهدف الحصول على مستقر لهم في الجزرالبريطانية .وقد نجح الفريد في حصارهم حتى اضطروا للرحيل ، ونعم الفريد بالهدوء في مملكته حتى وفاته عام ٨٩٩ م.

والواقع أن الفريد لم ينتصر على عناصر الدانيين بسهولة ، فمثل هذه العناصر التي تعتمد على عنصر المفاجأة في الهجوم تحتاج لتنظيم عسكري غير تقليدي ، لذلك قام الفريد بتسليح أكبر عدد من المواطنين، وكانت عملية استدعائهم تتم في فترات وجيزة ، وكان يحارب بالبعض ويظل البعض في الحقول ويتم ذلك بالتناوب بينهم . وبالإضافة إلى ذلك قام بتحصين الأماكن الاستراتيجية ووفر لها وسائل الدفاع اللازمة ، وأخيراً شيد بعض السفن للتصدي للعناصر المغيرة ، وقد جهزت هذه السفن على طريقة سفن

الفيكنج ، فكانت طويلة بها ستون مجدافاً، ونجح باسطوله هذا في ضرب المغيرين عام ٨٩٦م.

واهتم الفريد بالعمل على نشر الديانة المسيحية، ولعل أهم ما قدمه في هذا المضمار تنصير جثروم زعيم الدانيين ، وارتبط بالبابارية كثيراً وزار روما عدة مرات . وإلى جانب ذلك اهتم بالتعليم فأسس المدارس وأولها مدرسة القصر التي استدعى لها العلماء من أوروبا ، ويبدو أنه تشبه بشارلمان في هذه الناحية . ولم يكتف بذلك بل شجع حركة الترجمة للكتب اللاتينية الشائعة في عصره وعلى رأسها كتاب التاريخ الكنسي للأمة الانجليزية للمؤرخ بيده Bede،وكتاب التاريخ للمؤرخ أورسيوسOrosius والعناية الربانية للبابا جريجوري ، وسلوى الفلاسفة للفيلسوف لبوثيوس Boethuis . كما إهتم الفريد بتاريخ انجلترا فوضع الحوليات الانجلوسكسونية التي تعتبر المصدر الوحيد لتاريخ انجلترا في عصورها القديمة .

واعتنى الفريد بالادارة المدنية وأعاد سلطة القانون بعد أن جمدتها الحروب ، وأمر بجمع القوانين وإعادة تصنيفها ثم أدخل عليها من التعديلات ما يتلاءم والديانة المسيحية . وفي مجال العمارة أقام الفريد الكثير من الكنائس والأديرة بعد أن خُرب ما كان موجوداً منها بسبب هجمات الدانيين ، والمعروف أن الأديرة لعبت دور كبيراً في المعرفة والتعليم في هذه العصور ، ومن هنا جاء إهتمام الفريد بها .

خلفاء الفريد :

حاول الفريد قدر جهده توحيد انجلترا ، واستمرت عملية توحيد البلاد في ظل حكم ملك واحد في عهد إدواردEdward (٨٩٩ - ٩٢٤) ابن الفريد ، وعمل ادوارد عن استرجاع منطقة الحدود الشمالية للبلاد وهي المنطقة التي عرفت باسم دانلوDanelaw وانتزاعها من الدانيين ، وقد استطاع إدوارد بمساعدة زوج اخته اثلردAlheterd ملك مرسيا فرض

سلطان العناصر الانجلوسكسونية على انجليا الشرقية وإسكس ، كما نجح إدوارد في فرض سلطانه على جانب من أقليم ويلز ونورثمبريا وبعض الأراضي التي سيطر عليها الدانيون ، ومد حدود بلاده حتى اسكتلندا في الشمال .

وخلف إدوارد ابنه إيثلستان Ethelstane (٩٢٥ - ٩٣٩ م) واستطاع إيثلستان إعادة إقليم دانلو إلى سلطانه ، ونجح في بسط نفوذه على البلاد التي تحت سلطانه وذلك بإرسال نواباً عنه لادارة الولايات المختلفة ، وهؤلاء النواب كانوا من الثقاة الذين اختارهم الملك بنفسه . ولم يستمر الحال على هذا المنوال فقد تمرد سكان ويلز واسكتلندا في محاولة للخروج من سلطان الملك إيثلستان ، وقد هزمهم الملك هزيمة ساحقة عام ٩٣٧ م في معركة برونابور Brunaburh وأجبرهم على تقديم فروض الولاء والطاعة . وسطع نجم إيثلستان وأصبحت انجلترا في عهده من دول أوروبا القوية ، وزاد إيثلستان من نجاحه العسكري بنجاح دبلوماسي وارتبط بعدة دول أوروبية عن طريق المصاهرة ، فزوج أخت له إلى هيو الكبير Hugh the Great ، وزوج أخت ثانية من أوتو الأول ، وزوج ثالثة من شارل البسيط ، وبهذه الصورة إرتبط على التوالي بإيطاليا والمانيا وفرنسا .

بعد موت إيثلستان خلفه في حكم انجلترا اخوته إدموند Edmund ٩٣٩ - ٩٤٦ م)، ثم ادردEdred (٩٤٦-٩٥٥ م). وقد نجح ادرد في أن يكون ملكاً على جميع انجلترا واعترفت بسيادته جميع العناصر وقدموا له فروض الولاء والتبعية . وبعد موت ادرد حكم عرش انجلترا ولداه إدويجEdwig (٩٥٥ - ٩٥٩ م) ثم إدجارEdgar (٩٥٩ - ٩٧٥ م).

ويعرف إدجار هذا باسم إدجار المسالمEdgar The peaceful فطوال مدة حكمه التي دامت ستة عشر عاماً لم يدخل في معركة عسكرية ، وقد عاونه في حكم البلاد دونستانDunstan رئيس أساقفة كنتربوري وكبير مستشاري الملك . وفي عهد إدجار زاد انصهار العناصر الانجلوسكسونية مع غيرها من العناصر انصهاراً معقولاً ولكنه غير تام

وكان لدونستان فضل كبير في هذه الناحية بفضل ما قام به من إعادة تنظيم الكنيسة واقامة كنائس جديدة واعادة النظام البندكتي في الاديرة. وفضلاً عن ذلك أعيد تنظيم القوانين فاستتب الأمن ونشطت التجارة وخضع الناس جميعاً لسلطة ملكية واحدة في ظل حكم مركزي قوي.

ولم يستمر الحال على هذا التقدم، فقد أعقب موت إدجار في عام ٩٧٥ إضطرابات داخل البلاد هددت وحدتها، وشجعت هذه الحالة على تجدد هجمات الدانيين، ويرجع هذا الاضطراب إلى أن الملك إدجار قد تزوج مرة أخرى بعد وفاة زوجته الأولى. وبعد وفاته أصبح أكبر أبنائه وهو إدوارد من زوجته المتوفاة ملكاً على البلاد في عام ٩٧٥ م، ولكن زوجته الثانية عملت على تولية ابنها اثلرد Ethelred فدخلت البلاد في مرحلة من الصراع على التاج إمتد أثره إلى نواح أخرى متعددة، وانتهى الصراع بتدبير مؤامرة راح ضحيتها الملك إدوارد.

تولى إثلرد ٩٧٥ - ١٠١٦ م عرش البلاد وعمره حوالي عشرة سنوات، فاستعاد كبار النبلاء نفوذهم وقلصوا نفوذ رجال الدين، واستبعد دونستان من المشورة الملكية وفرض النبلاء سيطرتهم على الملك القاصر وعلى شؤون الحكم بطريقة تخدم مصالحهم الخاصة، وقد أضر ذلك كله بالبلاد.

شجعت هذه الحالة الدانيون على تجديد غزواتهم لانجلترا، ولم تكن هذه الغزوات كسابقتها من الغزوات الجماعية، بل كانت غزوة مرتبه قادها ملوك الدانمرك والسويد، ولم يكن بوسع اثلرد مقاومة مثل هذه الغزوات التي استمرت من عام ٩٨٠ حتى عام ٩٩١م، وفي العام الأخير آثر السلامة ووافق على دفع جزية لشراء الصلح، وقد عرفت هذه الجزية التي دفعها الشعب الانجلوسكسوني للدانيين بإسم ذهب الدانيين Danegeld .

كان لعقد الصلح تأثير عكسي على الدانيين وأهل البلاد، فمن جهة الدانيين فقد شعروا بأن طلب الصلح دليل على ضعف الملكية فزاد طمعهم بالبلاد، حتى أنهم كانوا يأتون إلى البلاد لجمع الجزية في شكل حملات

عسكرية ارهقت الأهلين . ومن ذلك عندما جاء أولافOlaf ملك النرويج وسوين Swein، Sweyn ملك الدانمرك لهذا الغرض .

ضج إثلرد بهذه التصرفات ولم يكن بوسعه وقف هذه الأعمال ، فتحالف مع ريتشارد الثاني دوق نورماندیا ، وتزوج اثلرد أخته . ويبدو أن هذا التصاهر قد شجع العناصر الانجلوسكسونية فهبوا عام ١٠٠٢ م بثورة ضد العناصر الدانية حيث قتل منهم الكثير .

ردت الدانمرك في شخص ملكها سوين بحملات متعددة على البلاد ظلت حوالي عشر سنوات (١٠٠٣ - ١٠١٣ م) وإنتهت هذه الحملات بهزيمة إثلرد على أيدي القوات الدانية بقيادة سوين ، وعجز اثلرد عن المقاومة فهرب إلى نورماندیا ، واضطر مجلس الوتيانWitan الانجليزي أن يعترف بالملك سوين ملكاً على انجلترا ، ولكن سوين حكم بهذه الصورة لمدة عام واحد فقد مات في عام ١٠١٤ م وخلفه على عرش الدانيين ابنه كانوت Canute .

لم يعترف الانجلوسكسون في انجلترا بالملك كانوت ملكاً عليهم ، واستدعى مجلس الوتيان الملك إثلرد من نورمانديا . وفي الوقت نفسه رحب الدانيون المقيمون في أقليم دانلو بالملك كانوت ملكاً على انجلترا . وبدأ الصراع بين الجانبين وتجددت الحرب مرة أخرى بين الانجلوسكسون والدانيين ، ولم يدم الصراع بين إثلرد وكانوت طويلاً فقد مات إثلرد عام ١٠١٦ م ، ولكن مجلس الوتيان تمسك بالعرش لابنه إدموند الحديدي Edmund Ironside ، ولعل في تسميته ما ينم عن الشجاعة والصلابة . وقد نجح ادموند في الانتصار على الدانيين في عدة معارك ، وانتهى الأمر بعقد صلح يقضي أن يحكم إدموند العناصر الانجلوسكسونية التي تقطن الجزء الجنوبي من انجلترا ، ويحكم كانوت العناصر الدانية التي تقطن الجزء الشرقي الأوسط من انجلترا ، وإذا مات أحدهما يتولى الآخر حكم البلاد مجتمعه ، ولكن ادموند الحديدي لم يعش بعد هذه المعاهدة سوى بضعة أشهر ، وأصبح من حق كانوت أن يصبح ملكاً على الجانب

الانجلوسكسوني ، وبذلك كان كانوت أول ملك داني يحكم عرش انجلترا .

الملك كانوت وخلفاؤه :

حكم كانوت (١٠١٦ - ١٠٣٥ م)، إنجلترا بطريقة مختلفة عن والده سوين، ويقول البعض أن كانوت اعتنق المسيحية وزار البابا في روما وأصبح ابناً باراً للمسيحية ، ويمكن تلخيص حكم الملك كانوت بأنه حاول معاملة أهل البلاد كفرد منهم وليس كمتسلط عليهم أو فاتح يستغل البلاد . فاستعان بمجلس الوتبان في شؤون الحكم والادارة ، واستخدم القانون الانجلوسكسوني في طول البلاد التي حكمها وطبقه على العناصر الدانية والانجلوسكسونية مع إضافة بعض القوانين الدانية .

كما إستعان كانوت بمستشارين انجلوسكسون بعد أن كان كل إعتماده على مستشارين دانيين،ويعرف هؤلاء المستشارين في التاريخ الانجليزي في هذه المرحلة باسم الايرلز Eearls . وامعاناً في إرضاء الشعب الانجليزي لم يبق حوله من جنوده سوى حرسه الخاص وأن كانوا بضعة آلاف . ولعل أهم ما جلب له محبة أهل الجزيرة هو الاهتمام بأمور الكنيسة ، وما أضفاه على البلاد من الأمن والسلام .

وفي المجال الخارجي نجح الملك كانوت في عقد بعض الاتفاقيات التجارية ، وفي الوقت نفسه كان كانوت أيضاً ملكاً على الدانيين ثم آلت إليه أراضي النرويج ، وفي هذه الدول الثلاث التي حكمها ملك واحد كان التبادل التجاري يسير بخطى واسعة فضلاً عن الحركة التجارية مع أوروبا ، خاصة وإن الاتفاقيات التجارية ضمنت للمسافرين إمتيازات في القارة الأوروبية فسيطرت التجارة الانجليزية على معظم شمال أوروبا حتى البحر البلطي شرقاً . وقد ساعد على هذا النجاح أن الدانيين أهل الملاحة والأسفار ورجال التجارة ، قد أمدوا العناصر الانجلوسكسونية بخبراتهم في هذا المجال الأمر الذي أدى إلى انتعاش الحركة الاقتصادية .

مات كانوت عام ١٠٣٥ م، وبموته دب الصراع بين أولاده على وراثة عرش الدانيين ، وعلى اثر هذا الصراع لم يتمكنوا من تثبيت دعائم حكم الدانيين في انجلترا ، فأقام مجلس الوتيان على عرش انجلترا ابن ادموند وهو إدوارد الذي يعرف باسم ادوارد المعترف (١٠٤٣ - ١٠٦٦م). وهكذا عاد العرش مرة اخرى إلى بيت الفريد الانجلوسكسوني وانتهى أجل حكم الدانيين على انجلترا. وإن كان هناك ما يستحق الذكر في عهد ادوارد فهو الذي انشأ دير وستمنسترWestminster عام ١٠٥١ م.

كانت أم الملك ادوارد أخت ريتشارد الثاني دوق نورمانديا، وخلال حكم كانوت كان ادوار يعيش في بلاط خاله بنورمانديا ، ولما عاد إدوارد إلى انجلترا ليتولى عرشه إصطحب معه بعض أصدقائه من النورمان واقطع لبعضهم الأراضي وعهد إليهم بشؤون الحكم، وأصبح بلاط إدوارد مزاراً للشخصيات النورماندية ، وقد سبب هذا كله قلقاً كبير في انجلترا . وكان من أبرز شخصيات إنجلترا في هذه المرحلة جودوينGodwin الذي عينه كانوت ايرل مقاطعة وسكس ، وقد لعب جودوين هذا دوراً كبيراً في مجلس الوتيان لتعيين ادوارد ملكاً على البلاد ، ورد الملك هذا الجميل بأن تزوج ابنة جودوين، ولما كان ادوارد عديم الأولاد، فقد تطلع جودوين إلى عرش البلاد ، ولكن كان هناك رجل آخر هو وليم المعروف باسم وليم الفاتح دوق نورمانديا يتطلع إلى العرش نفسه فقد كان ابن خال إدوار .

بدأ وليم يخطط لحكم إنجلترا فزارها عام ١٠٥١ م، ولكن بعض المساندين لجودوين هاجموه في دوفر، فطلب إدوارد من جودوين معاقبة المعتدين ولكنه رفض فتم نفيه ، وتطور الأمر وقام هارولدHarold ابن جودوين بمهاجمة شاطىء نورمانديا ، ولكن هارولد وقع في الأسر . ومن أجل حصول هارولد على حريته اقسم بمساعدة وليم ليكون ملكاً على انجلترا بعد وفاة إدوارد، ولما مات إدوارد عام ١٠٦٦م حنث هارولد بوعده وساعده مجلس الوتيان في اعتلاء عرش انجلترا . .ولكن وليم غزا انجلترا في الرابع عشر من أكتوبر من العام نفسه وتولى حكم انجلترا .

الاقطاع في انجلترا :

ترتب على الغزو الانجلوسكسوني لانجلترا قدوم عدد من زعماء العشائر الذين كان لهم السلطة الحقيقية في البلاد ، وأصبح المجتمع الانجلوسكسوني يتألف من الطبقة الحاكمة التي يتكون منها مجلس الوتيان وهو الذي يختار الملك من الطبقة نفسها، ويلي هذه الطبقة طبقة اخرى هي الفلاحون ، ثم ثالثة وهي العبيد .

وتركزت السلطة في يد الملك وحاشيته ، وعمل الفلاحون والعبيد بجهد منقطع النظير في الأراضي الزراعية وتوسيع رقعتها ، ومنح الملك رجاله مقابل خدماتهم اقطاعيات وانسحب ذلك على رجال الكنيسة والرهبان ، وكانت هذه الهبات بداية الاقطاع الذي أفقد الاحرار حريتهم وخضوعهم للسادة الجدد .

وإذا أضفنا إلى تلك الحروب والمنازعات الداخلية التي طال أمدها بين الحكام المحليين ، نجد أن الفلاح الحر إضطر لوضع نفسه وأرضه وأهله تحت رحمة أحد السادة الاقطاعيين للدفاع عنه ، وعندما جاءت غزوات الدانيين ، لم يعد بوسع الأهالي تحمل وطأة الحرب ووطأة الضرائب التي فرضتها الدولة ، إما لمواجهة نفقات الحرب أو لشراء السلم . وعلى ذلك تحول الاحرار إلى عبيد للسيد الاقطاعي لضمان سلامتهم ولقمة العيش .

وعلى هذه الصورة بدأت ملامح الاقطاع تظهر بشكل ملموس في انجلترا ، وعندما لم يعد بوسع الملك الاشراف على جميع مرافق الدولة عهد إلى هؤلاء الاقطاعيين بهذه المهمة ، ومن هنا أصبحت دار الاقطاعي مقر الحكومة في منطقته ومحور النشاط الاقتصادي فيها . وقد إكتمل هذا النظام الاقطاعي بعد الفتح النورماني لانجلترا .

الفصل الثالث عشر

انجلترا تحت الحكم النورماني والبلانتاجنت

١٠٦٦ – ١٣٠٧م

وليم الفاتح

وليم الثاني

هنري الأول

ستيفن كونت بلوا

هنري الثاني وتوماس بكت

ريتشارد الأول (قلب الأسد)

يوحنا الثاني والعهد الأعظم

هنري الثالث

إدوارد الأول ونمو البرلمان

وليم الفاتح (١٠٦٦ - ١٠٨٧ م)

عندما مات إدوارد ملك انجلترا في يونية عام ١٠٦٦ م ، كان هارولد يشغل منصب إيرل وسكس خلفا لأبيه جودوين ، واختار مجلس الويتان هارولد ليكون ملكاً على انجلترا ، وتناسى هارولد القسم الذي قطعه على نفسه بمساعدة وليم دوق نورماندي ليصبح ملكاً على انجلترا بعد وفاة إدوارد المعترف ، واعتلى العرش . ولم ييأس وليم وكتب إلى البابا يخبره أن هارولد قد حنث بقسمه . ولما كان من مصلحة البابوية مساندة وليم فقد بارك البابا ادعاء وليم في عرش انجلترا ، فاستعد وليم لغزو إنجلترا .

ولم يكن الأمر سهلاً للملك هارولد في حكم البلاد الانجليزية ، فقد تحالف أخوه توستج Tostig مع ملك النرويج بقصد غزو انجلترا ، كما كان هناك بعض الأمراء الخارجين على سلطان الملك ، ولم يكن أمام الملك الانجليزي هارولد سوى الاستعداد لمواجهة القوات بقيادة وليم ، ولكن هارولد اضطر للسير شمالاً عندما علم برسو قوات النرويج لمساندة أخيه في توليه عرش البلاد ، وقد نجح هارولد في هزيمة القوات النرويجية عند ستامفورد Stamford ، وعاد مسرعاً للجنوب لملاقاة قوات وليم النورماندي .

ولكن تحركات وليم كانت أسرع من عودة هارولد إلى الجنوب . ففي

الرابع عشر من أكتوبر عام ١٠٦٦ رست قوات وليم النورماندي على الشواطىء الانجليزية وتقابلت مع قوات هارولد بالقرب من مدينة هاستنج Hastings ، وفي هذه المعركة قتل هارولد واخوته وانتصر وليم انتصاراً ساحقاً ، واكتسب لقب وليم الفاتح وأصبح ملكاً على البلاد بعد موافقة مجلس الويتان .

لم تكن موافقة مجلس الويتان باعتلاء وليم عرش انجلترا نابعة عن قناعة ولكنها تحت تأثير الخوف ، واقسم وليم باحترام القوانين الانجليزية المتبعة في تلك المرحلة لارضاء الشعب الانجليزي . ولكن حكم انجلترا لم يكن سهلا في مثل تلك الظروف ، فقد كان الكثير من الأعيان يتحينون الفرص لطرد وليم والنورمان من البلاد،واستمرت هذه المرحلة حوالي خمس سنوات . ومن هذه الأحداث أن الشعب الانجليزي أشعل الثورة في البلاد ضد وليم في عام ١٠٦٧ م أي في العام التالي لغزو وليم انجلترا ، وقد قامت هذه الثورة التي أشعلها بعض النبلاء عندما كان وليم غائباً عن انجلترا ، فقد عاد إلى نورماندیا لتسوية بعض أمور أمارته هناك .

ولما علم وليم بأحداث الثورة عاد مسرعاً إلى إنجلترا ، ونجح في القضاء على الفتنة بالقوة العسكرية ، ولكن القوة العسكرية لا تكفي لمنع حدوث ثورة أخرى.فقد لجأ وليم إلى القضاء على الأمراء بتجريدهم من أراضيهم التي هي مصدر قوتهم ، ووزع هذه الأراضي على رجاله المخلصين من النورمان ، ولما كان هؤلاء النورمان مضطرين للدفاع عن أنفسهم فقد بنوا القصور المحصنة للدفاع عن أنفسهم ضد أهل البلاد الأصليين ، كما إحتفظ وليم بأراضي شاسعة أصبحت ملكاً للتاج .

وعلى هذه الصورة نشأ نظام إقطاعي جديد ، على رأسه وليم الذي ملك كل الأراضي ، وهو الذي وزعها على الأمراء النورمان ، وتحول الشعب الانجليزي إلى عبيد ، وإن كان وليم قد سمح لبعض الانجليز الذين أظهروا ولاءهم للملك بشراء بعض الأراضي، إلاّ أن الطابع الإقطاعي النورماني هو الذي ساد البلاد .

وأمر وليم بتسجيل أسماء الملاك وما يملكونه ، وقام رجاله بعمل هذا الحصر الشامل الذي بدأ على ما يبدو في عام ١٠٨٣ م واستمر العمل فيه حوالي ثلاث سنوات،وكان نتيجة هذا العمل ما يعرف باسم الإحصاء الملكي Domesday book وأصبح هذا السجل حكماً في جميع المنازعات العقارية بعد ذلك . وفي عام ١٠٨٦م أي عقيب الانتهاء من إعداد هذا السجل دعا وليم جميع الملاك وكان عددهم حوالي ستين ألفا إلى إجتماع عقد في مدينة سالزبوري Salisbury حيث أقسم كل واحد منهم يمين الولاء والطاعة للملك .

ورغم أن وليم استمد شرعية فتح انجلترا من البابوية ، إلا أن سلطته امتدت إلى رجال الدين ، فلما فتح وليم انجلترا وجد رجال الدين الانجليز يعيشون حياة أقرب إلى الحياة المدنية من الحياة الكنسية ، ولم يكن بوسع وليم إصلاح كل رجال الدين فاستبدل بعضهم برجال دين من نورمانديا، فاستقدم القساوسة والأساقفة ورؤساء الأديرة ، وكان على رأس هؤلاء لانفرانك Lanfranc الذي أصبح رئيس أساقفة كانتربوري . وتعاون لانفرانك مع وليم وتم وضع نظام جديد للأديرة ، وفصلت المحاكم الدينية عن المحاكم الكنسية والتزم وليم بتنفيذ كل الأحكام التي تصدر عن المحاكم الكنسية ، وجمع العشور لمعونة الكنيسة . وإن كان وليم وضع كل هذه الامتيازات للكنيسة إلا أنه تحفظ من جانب آخر واشترط على كنيسة انجلترا عدم دخول أي مبعوث بابوي الأراضي الانجليزية إلا بإذن الملك ، كما طلب عدم إعلان أو تنفيذ أي قرار بابوي إلا بعد الرجوع للملك وفي خاتمة التنظيمات المتعلقة بالكنيسة تم فصل جمعية الأساقفة عن مجلس الويتان وأصبحت هيئة لها كيانها المستقل ولا تنفذ قراراتها إلا بعد موافقة الملك .

وفيما يتعلق بالتنظيمات المدنية فقد عامل وليم أهل البلاد معاملة الفاتحين .وحتى يثبت دعائم حكمه أقام حكومة زاد عددها مع مرور الوقت ، وتطلب هذا الكثير من الأموال للانفاق على الحكومة ، فأعاد جميع الضرائب التي ألغاها من قبل إدوارد المعترف ، وفرض الضرائب أيضاً على الصادرات

والواردات واستخدام الطرق والقناطر . كما أمر رجاله بتفتيش جميع الأماكن خاصة الأديرة للبحث عن الأموال عندما نما إلى علمه أن البعض خبأوا أموالهم في سراديب الأديرة .

وفي مجال العلاقات الخارجية فقد كان أهمها الصراع مع فرنسا ، ويرجع ذلك إلى أن وليم كان يحمل لقب دوق نورماندي قبل فتح انجلترا، وقد احتفظ بنورماندي بعد الفتح أيضاً ، ولما كانت فرنسا تعتبر نورماندي أرضاً تابعة لها وأن دوق نورماندي ليس إلا إقطاعياً يتبع ملك فرنسا ، نجد أن الصراع بدأ بعدم اعتراف وليم بهذا الواقع،وأنه أصبح حاكماً لانجلترا ونورماندي . وقعت الحرب بين وليم وفيليب الأول ملك فرنسا ، وانتقل وليم من انجلترا إلى القارة الأوروبية ليحارب في مدينة رون Rouen الواقعة على نهر السين شمال غرب باريس ، وتطورت الأحداث وأحرق وليم مدينة مانت Mantes الواقعة على مصب نهر اللوار Loire ، ولم يكتف بذلك بل أحرق ما جاورها وفي غمرة هذا النصر سقط وليم من على فرسه وأصيب إصابة قاتلة مات بسببها بعد قليل عام ١٠٨٧ م .

ولما علم أولاد وليم بقرب نهاية أبيهم بدأ الصراع على العرش ، وكان ابنه روبرت قد حارب أباه من أجل نورماندي ، وانتهى الأمر بأن أوصى وليم بدوقية نورمانديا بعد وفاته لابنه روبرت ، وانتهى الصراع بأن حصل روبرت وهو الابن الأكبر على نورماندي ، وأصبح الابن الثاني وليم روفوس Rufus (الأحمر) والذي عرف باسم وليم الثاني ملكاً على انجلترا ١٠٨٧ـ ١١٠٠ م . أما الابن الثالث وهو هنري الأول فقد تولى حكم انجلترا بعد أخيه وليم (١١٠٠ ـ ١١٣٥ م) ، وكانت ابنته أدلا Adela قد تزوجت من ستيفن كونت بلوا Stephen Count of Blois ، وحكم ستيفن هذا انجلترا من ١١٣٥ ـ ١١٥٤ م .

مات وليم في ظروف غير طبيعية فقد تركه أولاده على فراش الموت عدا هنري ليتصارعوا من أجل العرش ، ولكن وليم تذكر ربه وهو على فراش الموت ، فأمر بتوزيع ثروته على الفقراء والكنيسة وخصص منها جزء لاعادة

بناء مدينة مانت التي أحرقها. وانتهت حياة وليم بعد أن أقام الحكم النورماني في انجلترا، وأوجد نظاماً جديداً للاقطاع، وعمل على تشجيع التجارة والصناعة وأوجد أفكاراً جديدة في الأدب الانجليزي، وبلغ فن العمارة رقياً كبيراً، وأصلح الكنيسة وأصبح للدولة حكماً مركزياً قوياً، ونشر الأمن والسلام داخل البلاد. ولعل هذا مرجعه إلى النورمان الذين أتوا من نورماندیا وما حملوه معهم من حضارة وحيوية لم تعرفها بلاد انجلترا من قبل. ومن هذا كله نجد أن الانجلوسكسونين والدانيين والنورمانيين قد انصهروا في انجلترا - وإن كان ذلك بعد وقت ليس بقصير - ليكونوا الأمة الانجليزية التي أقبلت على عهد طويل من السلام الداخلي وصمدت أمام أية غزوة خارجية.

وليم الثاني ١٠٨٧ - ١١٠٠ م

استقل روبرت بإقليم نورماندیا وجعلها إمارة مستقلة، وتوج وليم الثاني ملكاً على إنجلترا، وأقسم وليم بمراعاة النظام الذي وضعه أبوه، ولكن وليم حكم البلاد حكماً استبدادياً واختلف مع لانفرانك رئيس أساقفة كانتربوري الذي توج وليم وأصبح مستشاره، وظل وليم على هذا الحال حتى عام ١٠٩٣ م، وفي خلال هذه المرحلة مات لانفرانك عام ١٠٨٩ م، وظل كرسي رئيس الأساقفة شاغراً حتى عام ١٠٩٣ م عندما عين انسلم Anselm في هذا المنصب. وفي هذا العام أيضاً مرض وليم الثاني ووعد بأن يسلك سلوكاً معتدلاً إذا شفاه الله، ولكنه عاد إلى سيرته الأولى بعد شفائه، وقاوم أنسلم الملك قدر إستطاعته. وفي عام ١٠٩٧ م طلب أنسلم الإذن من وليم ليتوجه إلى روما لتسلم رداء رئاسة الأسقفية من البابا. إعترض وليم وأنذره بعدم العودة إذا سافر إلى روما، ولكن أنسلم غادر انجلترا إلى روما ولم يقم بأي محاولة للعودة إلى إنجلترا طوال حكم وليم الثاني الذي انتهى باغتياله بيد مجهولة أثناء الصيد عام ١١٠٠ م.

هنري الأول ١١٠٠ - ١١٣٥ م

وعندما اعتلى هنري عرش انجلترا أرسل لاستدعاء أنسلم،

ولكن أنسلم قد تغير كثيراً في منفاه ، وعندما وصل اسدم إلى إنجلترا رفض الخضوع للملك ورفض أن يترك الملك أمر تعيين رجال الدين ، وناصر العامة رئيس الأساقفة ، وظل أنسلم في نزاع مع الملك منذ عودته عام ١١٠٠ م حتى غادر انجلترا عام ١١٠٣م ، وهبت انجلترا كلها لمناصرة أنسلم . وأخيراً وافق الملك على إجراء مصالحة مع رئيس الأساقفة ، وعقد اجتماعا لهذا الغرض في شهر يوليو عام ١١٠٥ م ، وتم الاتفاق على أن تختار جمعيات رجال الكنيسة الرهبانوالأساقفة ورؤساء الأديرة الانجليز بحضور الملك،ثم يقدم هؤلاء الأساقفة ورؤساء الأديرة يمين الولاء للملك باعتباره مصدر أملاكهم وسلطاتهم الاقطاعية . ويبارك البابا تلك التسوية وبقي أنسلم في انجلترا حتى مات عام ١١٠٩ م .

ورغم هذا كله فقد حافظ هنري على الأمن والسلم والنظام في انجلترا ودافع عنها عندما غزاها أخوه روبرت دوق نورماندي عام ١١٠١ م بعد عودته من الأراضي المقدسة ومشاركته في الحملة الصليبية الأولى ، ونجح هنري في رد الغزاة ، ولم يكتف بذلك بل تحين الفرصة وغزا نورماندي وانتصر في معركة تنشبريه Tinchebrai عام ١١٠٦ م وضم نورماندي للتاج الانجليزي .

ويبدا هنري في هذه المرحلة الرجل القوي الذي يبدد أطماع فرنسا في نورماندي، ولكي يقوي من مركزه أراد أن يظهر بمظهر الملك الانجلوسكسوني والنورماندي في آن واحد فتزوج في عام ١١١٤ م من ماتيلدا Matilda سليلة الملوك الاسكتلنديين والانجليز قبل الحكم النورماني ، فطعم الأسرة الحاكمة بالدم الانجليزي القديم. وراعى هنري العدالة في حكمه وتجنب الاسراف ، ويؤخذ عليه أنه فرض الضرائب الفادحة على الأهالي..

وأنجب هنري الأول وليم الذي غرق مع السفينة البيضاء عام ١١٢٠م،وابنة حملت اسم أمها ماتيلدا ، وأنجبت الابنة إبناً واحداً من زوجها جوفري أف انجو Geoffrey of Anjou ، وهذا الابن هو هنري الثاني فيما هنري الأول رجال الدين والنبلاء عن أن يقسموا يمين الولاء

لابنته ماتيلدا وإبنها هنري من بعده ، وعندما مات هنري الأول عام ١١٣٥ م إغتصب ستيفن كونت بلوا العرش وستيفن هذا هو حفيد وليم الفاتح عن طريق ابنته آدل Adele.

ستيفن كونت بلوا ١١٣٥ - ١١٥٤ م

عندما توفي هنري الأول كان يعتقد أن العرش سيؤول في هدوء إلى ابنته ماتيلدا ، ولكن ستيفن وهو أول من أقسم بالولاء لماتيلدا كان أول من حنث بوعده وإغتصب عرش إنجلترا ، فقد كان ستيفن محبوباً في لندن لذلك سانده أهالي المدينة ، ومن لندن اتجه ستيفن إلى ونشستر Winchester حيث تقبل تأييد وخضوع رجال الدين والنبلاء .

وكان على ستيفن أن يحترم حقوق من ساندوه فاحترم حرية الكنيسة وحقوق البارونات ، ورغم هذا فإن عصر ستيفن يعرف باسم عصر الفوضى Period of Anarchy وذلك بسبب الحرب الأهلية والفتن التي سادت معظم فترة حكمه تقريباً .

ووجد ستيفن التأييد من الحزب الديني القوي تحت قيادة أخيه هنري إسقف ونشستر ، وروجر أسقف سالزبوري Salisbury ، كما سانده أيضاً جماعة من البارونات بزعامة هيو بيجود Hugh Bigod ، ولكي يعزز ستيفن مركزه قرب البعض إليه بمنحهم لقب إيرل وكانت ألقاب شرفية لا إقطاعية ، وظل الحال يسير في إنجلترا لصالح ستيفن حتى عام ١١٣٩ م تقريباً رغم حدوث بعض الاضطرابات .

لم تستسلم ماتيلدا وزوجها جوفري لهذه الأحداث وأعلنا احتجاجهما . وفي عام ١١٣٥ م وهو العام الذي اغتصب فيه ستيفن عرش انجلترا ، غزا نورمانديا عن طريق انجو Anjou ولكن أهل نورماندي مالوا إلى جانب ستيفن . وفي الوقت نفسه قامت بعض الثورات في شمال انجلترا ولكن ستيفن نجح في القضاء عليها ، وتعزز موقف ستيفن عندما أيده البابا في عام ١١٣٦ م .

وبدأت المتاعب تحيط بالملك ستيفن في عام ١١٣٩ م عندما تنازع مع آل روجر أف سالزبوري، وترتب على هذا الصراع فقدان ستيفن تأييد رجال الدين . وانتهزت ماتيلدا الفرصة وغزت انجلترا ولكنها هزمت عند مدينة بريستول Bristol ، ولكن ستيفن أطلق سراحها وكان في ذلك قصر نظر من ستيفن . وترتب على هذا التصرف رد فعل ضد ستيفن، فقد إنفض بعض النبلاء من حول الملك وساندوا ماتيلدا . وقاد ستيفن قواته لمواجهة المتمردين ولكنه هزم وأسر في عام ١١٤١ م عند لنكولن Lincoln ، ولكنه حصل على حريته مقابل إطلاق سراح روبرت أف جلوسستر Gloucester وهو أخ غير شقيقٌ للملكة ماتيلدا .

ومع أسر الملك انفض من حوله بما فيهم أخوه هنري ، وأصبح الطريق ممهداً أمام ماتيلدا فتوجت ملكة على انجلترا ، ولكن الأحوال لم تهدأ بسبب ثورات بعض البارونات الذين يعملون لصالحهم ويطالبون بالعرش الانجليزي ، واندلعت الحرب الأهلية في انجلترا . وفي الوقت نفسه نجح جوفري في السيطرة على نورماندي ولكنه أصبح إقطاعياً من قبل لويس السابع ملك فرنسا .

ومال ميزان الحرب لصالح ماتيلدا في عام ١١٥٠ م عندما كبر إبنها هنري وأصبح في السادسة عشر من عمره وحمل لقب دوق نورماندي . ولما مات والده جوفري ورث إقليم أنجو ، وبزواج هنري من اليانور أف أكويتين في عام ١١٥٢ م بعد طلاقها من لويس السابع، حكم هنري أكويتين أيضاً . وبقوات نورماندي وأنجو وأكويتين غزا هنري انجلترا في الوقت الذي كان فيه ستيفن يحارب بعض البارونات في والينجفورد Wallingford التي تقع على بعد خمسين ميلاً غربي لندن ، وفي هذه المرحلة مات يوستاخ Eustache الوريث الوحيد لستيفن . وقد بدل هذا الموقف بأكمله ، ولما كان هنري صغير السن ، فقد عقدت معاهدة تقضي بأن يظل ستيفن ملكاً على البلاد طوال حياته ويصبح هنري بعده ملكاً على عرش انجلترا . ومات ستيفن في العام التالي ١١٥٤ م ، وتوج هنري في ديسمبر من العام نفسه

هنري الثاني ١١٥٤ - ١١٨٩ م .

باعتلاء هنري الثاني عرش انجلترا ينتهي حكم اسره النورمان في انجلترا ويبدأ حكم أسره البلانتاجنت Plantagenet ، وترجع هذه التسمية إلى جوفري أف أنجوي - والد هنري - الذي كان يلبس عسلوجا من نبات الرتم المسمى بالفرنسية Planta genêt في قبعته . ومن الواضح أن هنري انتزع حقه بحد السيف فبدأ قويا يحكم مملكه تمتد من اسكتلندا إلى جبال البرانس وتضم نصف فرنسا تقريبا ، ولكن هذه المساحة الكبيرة قد مزقتها الحروب الأهلية أو الأطماع الإقطاعية التي انتهزت فرصة الحروب الأهلية ووطدت مراكزها .

والمعروف عن هنري أنه كان حاد الطبع كثير المطامع ذا ذاكرة قوية ، وحتى يسيطر هنري على مملكه بدأ بضرب الإقطاع ونجح في اخضاعهم واحداً بعد الآخر ، ودمر العديد من الحصون الإقطاعية ، وأقام دعائم الأمن والعدالة والنظام وانتشر السلم داخل أنحاء البلاد . واستطاع هنري اخضاع ايرلندا لحكمه ، وبدا كأعظم حكام عصره ، واستقبل في بلاطه سفراء الدول الذين يطلبون العون أو المشورة لبلادهم . ولكن هذا الملك القوي الذي يعتبر من اعظم حكام انجلترا ، قد تحطم عندما تنازع مع توماس بكت Thomas Becket رئيس أساقفة كانتربوري .

ويرجع تاريخ توماس بكت عندما ولد في لندن عام ١١١٨ م ، من طبقة وسطى نورماندية ، وظهر نبوغ توماس وهو صغير فاهتم به ثيوبالد Theobald رئيس اساقفة كانتربوري وارسله ليدرس القانون المدني والكنسي في بولزنيا وغيرها ، ولما عاد إلى انجلترا تدرج في المناصب الدينية حتى أصبح رئيس شماسة كانتربوري في عام ١١٥٤ م ، وفي عام ١١٥٥ م أصبح الوزير الأول في البلاط الإنجليزي وعمره سبعة وثلاثين عاما ، وأصبح الصديق الحميم للملك هنري ومستشاره وموضع ثقته . وعاش توماس بكت كرجل دنيا على ارفع مستوى ، فقد شارك العاب الفروسية ، وكانت مائدته أفخم

الموائد ، وقاد الجيوش في الحروب ، وكان سفيراً للملك في جهات متعددة وله حاشية لا تقل عن مائتين من الرجال .

وفي عام ١١٦٢ م أصبح توماس بكت رئيس اساقفة كانتربوري ، وبتوليه هذا المنصب تبدل حاله تماما ، فقد هجر الحياة الدنيا بكل زينتها وعاش على الخضر والبقول ، وأصبح المدافع الأول عن حقوق الكنيسة ، وتمسك بعدم محاكمة رجال الدين أمام المحاكم المدنية ، ومن هنا كان الصدام مع الملك هنري .

وكان هنري يرى بسط سلطاته على جميع الطبقات بما فيهم رجال الدين ، خاصة عندما وجد أن المحاكم الكنسية لا تعاقب رجال الدين على ما يرتكبونه من جرائم . ولهذا السبب استدعى هنري الاشراف ورجال الدين إلى اجتماع عقد في مدينة كلارندون Clarendon - الواقعة إلى الجنوب الشرقي من سالزبوري - عام ١١٦٤ م . وأجبر هنري الحاضرين على توقيع دستور كلارندون الذي يقضي على الكثير من المزايا التي يتمتع بها رجال الدين .

إعترض توماس بكت على هذا الإجراء ورفض أن يضع خاتم الكنيسة على هذا الدستور ، ولكن هنري اذاع قرارات كلارندون وقدم توماس بكت ليحاكم أمام المحكمة الملكية وليس أمام المحكمة الكنسية . وكان لدى توماس بكت من الشجاعة ما جعله يمثل أمام المحكمة ويعارض رجال الدين الذين ساندوا الملك، واعلنوا أنه مذنب لخروجه على الملك باعتباره سيدهم الإقطاعي . وفي نهاية المحاكمة تقرر القبض عليه ولكنه اعترض وأعلن أنه سيستأنف الحكم أمام البابا ، وخرج من المحكمة دون أن يجرؤ أحد ويقبض عليه .

أحس توماس أنه يقف في وجه الملك بمفرده بعدما تخلى عنه رجال الدين، فهرب ليلاً إلى شمال فرنسا واستقر في دير سانت أومر St. Omer الواقع في اقليم فلاندرز ، ومن هذا الدير ارسل استقالته إلى البابا اسكندر الثالث ١١٥٩ - ١١٨١ م . ولكن البابا رفض قبول استقالته وأيده في موقفه

وطلب منه التوجه إلى دير بونتني Pontigny حتى ينجلي الموقف .

وظل الحال على هذا الوضع ستتين نفى هنري خلالها جميع أقارب توماس بكت ، وفي عام ١١٦٦ م سافر هنري إلى نورماندي فهاجمه توماس بكت من فرنسا واصدر قرار الحرمان ضد رجال الدين الذين ساندوا الملك وأيدوا دستور كلارندون . ورد هنري على ذلك مهددا بمصادره أملاك جميع الأديرة الواقعة في بلاده وتخضع لدير بونتني اذا استمر توماس مقيما في هذا الدير ، وجال توماس بكت ليعيش على الصدقات طوال ثلاث سنوات .

وفي عام ١١٦٩ م تدخل لويس السابع ملك فرنسا والبابا اسكندر الثالث وطلب البابا من هنري إعادة توماس إلى منصبه ، وهدد بانزال قرار القطع Interdict على انجلترا ، وهو قرار يقضي بتحريم الصلاة وجميع الخدمات الدينية في انجلترا . ولم يكن أمام هنري سوى الرضوخ لأوامر البابا ، وحضر إلى افرانش Avranches ،وقابل توماس بكت ووعده بالعمل على اعادة حقوق الكنيسة ، وعاد توماس بكت إلى انجلترا مكرما في أول ديسمبر ١١٧٠ م ، وما أن وطأت قدماه الأراضي الانجليزية حتى أعلن قرار الحرمان على رجال الدين الذين ساندوا الملك .

وبلغت هذه الأخبار الملك هنري وكان لا زال في نورماندي،وقد وصلت مسامعه بصورة محرفة ومبالغ فيها فغضب هنري ، وفسر بعض رجال هنري أن الملك يريد التخلص من توماس بكت . فاتجه أربعة من الفرسان هم ريجنالد فتز أورس Reginald Fitz Urse ، ووليم دي تراكي William de Traci ، وهيودي مورفي Hugh de Morville ، وريتشارد بريتو Richard Brito دون علم الملك واغتالوا توماس بكت عند مذبح كنيسة كانتربوري في التاسع والعشرين من ديسمبر عام ١١٧٠ م وقطعوه أربا بسيوفهم .

إهتز العالم المسيحي لهذه الحادثة وأدان هنري بهذه الجريمة الشنعاء ، ووجل هنري من هذا الإتهام ، وحتى يبرأ ساحته أمر بالقبض على القتلة ،

وأرسل إلى البابا يعلن براءته من حادثة الإغتيال . ولعل هنري قد أحس بأنه مسؤول عن مصرع توماس بكت بطريقة غير مباشرة ، فوعد بأنه سيكفر عن ذنبه بالطريقة التي يرضى عنها البابا ، وبدأ هنري بالغاء دستور كلاندون وجميع الآثار التي ترتبت عليه ، ومن ذلك اعادة جميع املاك وأموال الكنيسة التي صادرها .

أصبح قبر توماس بكت مزاراً للمسيحيين، واعلنت الكنيسة قداسته ومنحه البابا اسكندر الثالث لقب قديس في الثاني عشر من مارس عام ١١٧٢ م . كما أتى الملك هنري الثاني إلى قبر توماس بكت في كانتربوري نادما ، وعلى مسافة ثلاثة أميال من قبر توماس بكت ترجل هنري وسار حافي القدمين حتى وصل إلى قبر توماس ثم انحنى امام القبر وطلب من الرهبان أن يجلدوه ، وتزلزل كبرياء هنري أمام قبر صديقه وعدوه الميت ، وهنا يمكن القول أن هنري الثاني استسلم وخضع لتوماس بكت الميت ، بما لم يستسلم ويخضع به لتوماس بكت الحي .

والمهم ان اراده هنري الحديدية قد تحطمت وزاد سخط العامة عليه فضلاً عن سخط الكنيسة رغم براءته . وزادت عليه المتاعب من اسرته عندما تآمرت زوجته وولديه ريتشارد ويوحنا لخلعه عن العرش . وتحالف المتآمرون مع فيليب أوغسطس ملك فرنسا في حروبه ضد انجلترا، وظلت المتاعب تحيط بالملك هنري حتى مات في عام ١١٨٩ م .

وعلى هذه الصورة ربما يرى البعض أن هنري قد تحطم من جراء صراعه مع الكنيسة ، ولكن الحقيقة أن هذا الفشل يعتبر فشلاً عابراً في تاريخ انجلترا ، فالملك هنري كان يرى تحرير الدولة من القيود الكنسية والإقطاعية ، وغايته أن تكون هناك حكومة قوية لها نظام وقانون واحد يخضع له الجميع . وربما كان التوقيت الذي بدأه هنري هو الذي كان غير مناسب ، كما أن الطريقة التي عالج بها هنري مشاكل عصره هي التي جعلته يفشل في مشروعاته ، فالملك هنري كان يرى اخضاع الجميع لدستور واحد أمام حكومة مركزية قوية وهي سياسة حكيمة ، ولكن المشكلة أن هنري كان يرى

أن يقوم هذا النظام في ظل حكومة إستبدادية، وهذا هو لب المشكلة . وعلى أية حال لقد أقام هنري حكومة قوية ووحد البلاد بعدما أخضع الاشراف المتمردين ، ونجح في هذا الجانب نجاحاً كبيراً ورأس دوله في ظل حكومة مركزية غير مسؤولة إلى أقصى حد . وإذا كان هنري خاض صراعاً رهيباً مع الكنيسة فإن المراحل التالية ستشهد صراعاً أشد ضراوة بين الملكية والإقطاع :

ريتشارد الأول ١١٨٩ - ١١٩٩ م :

تولى ريتشارد الأول حكم انجلترا بعد أبيه ، ويعرف باسم ريتشارد قلب الأسد Richard I The Lion- Heart ، وقد ولد في اكسفورد عام ١١٥٧ م ، وعاش اكثر عمره في مقاطعة اكويتين ليصرف شؤون المقاطعة بدلاً من امه اليانور . وكان لتواجده في اقليم اكويتين أثراً كبيراً على ثقافته، فلم يعد انجليزيا وتأثر بالثقافة الفرنسية الجنوبية خاصة الشعر والغناء وحب المغامرات ، وعندما تولى حكم انجلترا اضطر للعمل بالسياسة وهو عنها بعيد .

وانشغل منذ توليه عرش انجلترا بالإستعداد للقيام بحملة صليبية وهي الحملة المعروفة بالثالثة، وانضم فيها إلى فيليب أوغسطس ملك فرنسا وفريدريك باربروسا امبراطور المانيا . ومن أجل هذه الحرب اضطر للمال ولم يكفيه ما تركه والده ، ولكي يحصل على الأموال فصل عدداً كبيراً من موظفي الدولة ثم أعاد تعيينهم مقابل بعض الأموال ، ومنح براءة قيام بعض المدن من أجل المال أيضاً ، وحصل على مبلغ هزيل ليعترف باستقلال اسكتلندا ، وصادر بعض السفن التي كانت راسية على شواطىء إنجلترا ليستخدمها في نقل قواته إلى سواحل الشام .

وفي طريقه إلى الاراضي المقدسة عبر البحر المتوسط مع فيليب أوغسطس إستولى على جزيرة قبرص عام ١١٩١ م ثم باعها لفرسان الداويه Templers ، ولما فشلت الصفقة مع الداويه باعها إلى جاي لوزجنان Guy

Lusignan المطالب بعرش مملكة بيت المقدس الصليبية ، وحارب ريتشارد صلاح الدين وفشل الملك الإنجليزي في الإستيلاء على مدينة بيت المقدس ، وعقد مع صلاح الدين صلح الرملة عام ١١٩٢ م ، وعاد إلى بلاده مقتنعا بأن الطريق إلى بيت المقدس يمر عبر القاهرة ، وأن الإستيلاء على بيت المقدس لا يتم إلا بعد ضرب القوى الإسلامية في مصر .

وبعدما أبحر ريتشارد من الساحل الشامي في التاسع من أكتوبر ١١٩٢م فاجأته عاصفة دفعت بسفينته إلى جزيرة كورفو Corfu البيزنطية، وخاف أن يأسره الإمبراطور اسحق انجيلوس Isaac Angelus ١١٨١ ـ ١١٩٥م ، فاستقل قارباً إلى البحر الأدرياتيكي ومنه إلى مدينة أكويليا Aquileia ثم اسرع ليصل إلى المانيا حيث يوجد زوج اخته ماتيلدا هنري الأسد . ولكنه وقع في يد ليوبولد دوق النمسا Leopold of Austria فأسره، لأن ريتشارد مزّق اعلام ليوبولد في عكا كما اتهمه بقتل كونراد أف مونتفرات Conrad of Monferrat ، ثم سلمه ليوبولد بعد ثلاثة أشهر إلى هنري السادس إمبراطور ألمانيا .

ظل ريتشارد سجينا لدى هنري رغم مخالفة ذلك لقوانين الحروب الصليبية ، وطالب هنري بالفدية لاطلاق سراحه ، وظل في الأسر حوالي سنة عجزت فيها انجلترا عن جمع الفدية اللازمة لاطلاق سراح ريتشارد . وفي هذه الأثناء حاول أخوه يوحنا اغتصاب العرش، ولكن الأم اليانور ساندت حقوق ريتشارد، ففر يوحنا إلى فرنسا وانضم إلى فيليب أوغسطس في الهجوم على انجلترا . ولما فشل فيليب في النيل من انجلترا غزا نورماندي وراسل هنري السادس ليبقي على ريتشارد أسيراً .

وفي مارس ١١٩٤ م اطلق سراح ريتشارد فعاد إلى انجلترا ليستعد لمحاربة فيليب ونجح ريتشارد في استعادة املاكه بعد حرب دامت خمس سنوات على أراضي القارة الأوروبية . وفي السادس والعشرين من مارس ١١٩٩ م مات ريتشارد في مدينة ليموزين Limousin بسهم انطلق من قلعة أحد الإقطاعيين الذين تصارع معهم ريتشارد.

يوحنا والعهد الأعظم ١١٩٩ - ١٢١٦ م .

تولى يوحنا بعد أخيه ريتشارد ، وعند تتويجه اضطره رئيس اساقفة كانتربوري هيوبرت والتر Hubert Walter أن يقسم بأنه تولى عرشه بالانتخاب من قبل النبلاء ورجال الدين وليس وراثه من أخيه . ويتضح من تاريخ يوحنا أنه لم يلتزم بهذا القسم ، وكانت حياة يوحنا عاصفة مع نبلائه والباباوية وفيليب أوغسطس ملك فرنسا ، وفرض الضرائب الفادحة من أجل الدفاع عن الممتلكات الإنجليزية في أوروبا . ورغم ذلك فإن سياسته لم تكن خاطئة على الدوام .

وفي العام الذي تولى فيه يوحنا عرش انجلترا طلق زوجته ايزابيلا اف جلوستر Isable of Gloucester بحجة أنها تمت اليه بصلة القرابة وتزوج من ايزابيلا اف انجوليم Isabele of Angouleme . وقد جرت عليه هذه الزيجة متاعب متعددة، لأن زوجته الثانية كانت مخطوبة إلى لوزجنان Lusignan كونت لامارش La Marche في مدينة بواتو Poitou . وقد غضب الاشراف في انجلترا وفي بواتو لهذا العمل، كما احتج البارونات النورمانديون في أنجو ومين . واشتكى هؤلاء إلى فيليب أوغسطس باعتبار أن نورماندي اقطاعية تابعة للتاج الفرنسي ، وأن يوحنا باعتباره مالكاً لإقليم نورماندي يعتبر تابعاً لملك فرنسا .

تجدد العداد القديم بين انجلترا وفرنسا في هذه المرحلة ووجد فيليب في هذه القضية فرصة لاذلال يوحنا ، وأرسل فيليب إلى يوحنا باعتباره تابعاً له وأمره بالحضور إلى القصر الملكي في باريس ليدافع عن نفسه ، ومن الطبيعي الا يحضر يوحنا وكان هذا متوقعاً ، وانعقدت المحكمة الإقطاعية الفرنسية ومنحت آرثر Arther كونت بريتاني - وهو حفيد هنري الثاني - نورماندي وأنجو وبواتو ، وتشجع آرثر وطالب بعرش انجلترا ، وساعده فيليب بالمال والرجال لتحقيق ذلك .

تقدم آرثر لمهاجمة نورماندي وحاصر اليانور والدة يوحنا في قلعة ميرابو Mirabeau ، وقادت الملكة الأم القوات للدفاع عن حقوق ابنها ، وأسرع

يوحنا إليها وهزم آرثر وقبض عليه وسجنه في قلعة فاليس Falaise ولم يسمع عن آرثر بعد ذلك، ويبدو أن يوحنا أمر بقتله .

انتهز فيليب هذه الفرصة وتقدم لغزو نورماندي وكان الموقف في صالحه ، فقد كان يوحنا يفتقر إلى المال ووسائل الدفاع فهزمه فيليب وهرب يوحنا إلى انجلترا ،وضم فيليب إلى فرنسا جميع الممتلكات الإنجليزية في القارة الأوروبية وهي نورماندي ، ومين ، وأنجو، وتورين في عام ١٢٠٥ م واقسم اقطاعيوها يمين الولاء للملك فيليب .

ولما كان البابا أنوسنت الثالث على خلاف مع فيليب أوغسطس فقد حاول مساعدة يوحنا قدر المستطاع ، ولكن يوحنا لم يمنح البابا الفرصة لمساعدته ، فقد اختلف الاثنان في العام نفسه بسبب الخلاف على تعين رئيس اساقفة كانتربوري . ويرجع هذا الخلاف إلى موت هيوبرت والتر عام ١٢٠٥ ، وكان الملك يوحنا يرى تعيين الأسقف يوحنا دي جراي Jhon de Gray ، ولكن بعض الرهبان الشبان في كاتدرائية كانتربوري اختاروا نائب رئيس ديرهم وهو ريجنالد Reginald .

اتجه المرشحان إلى روما يطلب كل منها تأييد البابا أنوسنت الثالث ولكن البابا اعترض على المرشحين وعين ستيفن لانجتون Stephen Langton وهو كاردينال انجلترا واستاذ سابق للاهوت في جامعة باريس . اعترض يوحنا على هذا الإجراء، ولم يعبأ البابا ونصب ستيفن لانجتون كرئيس لأساقفة كانتربوري عام ١٢٠٧ م. وتمسك يوحنا بموقفه وهدد وتوعدا وأنذر الرهبان، واصدر أوامره بعدم دخول ستيفن لانجتون الأراضي الإنجليزية واعلن تحديه للبابا . رد البابا على هذا الإجراء بانزال قرار الحرمان على الملك وقرار القطع على انجلترا في عام ١٢٠٨ م وظل القراران حتى عام ١٢١٣ م .

وخلال هذه المرحلة كان الملك يصادر أملاك الكنيسة، لذلك سانده النبلاء لأن انشغال الملك بالصراع مع رجال الدين يشغله إلى حد ما عن الصراع مع النبلاء ، وتجح يوحنا في هذه المرحلة في الإنتصار عسكرياً في

حروبه مع ايرلندا ، واسكتلندا ، وويلز . وقد شجع كل هذا يوحنا على التمادي في سياسته المتشددة ، فعندما احتاج إلى المال زج باليهود في السجن وصادر أموالهم ولم يرحم رجال الدين من السجن أيضاً ، وتركهم حتى ماتوا في سجنهم ، كما زاد من الضرائب التي أرهقت الأهالي .

ولما يئس البابا أنوسنت الثالث أصدر مرسوماً في عام ١٢١٢ م بخلع الملك يوحنا من العرش الانجليزي وحل رجاله من القسم الذي أدوه له، وأعلن أن الأملاك الانجليزية حقاً لكل من يتمكن من الاستيلاء عليها . وحانت الفرصة للملك الفرنسي فيليب أرغسطس فاستعد لغزو إنجلترا . وعلم يوحنا بهذا الاستعداد فدعا رجاله للحرب. ولكن رجاله لم يمدوا له يد المساعدة خوفاً من عقوبات البابا .

أحس يوحنا بالخطر، وكان لا بد من التراجع حتى يفوت الفرصة على الجميع فعقد اتفاقاً مع المبعوث البابوي باندولف Pandulf ، ويقضي هذا الاتفاق بأن يرد الملك يوحنا جميع أملاك الكنيسة وأن يضع انجلترا بأكملها تحت السيادة البابوية الاقطاعية إذا ألغى البابا قرار الحرمان وقرار القطع . واتفق الطرفان على ذلك وسلم يوحنا انجلترا إلى البابا عام ١٢١٣ م - ويعتبر هذا الاستسلام الأول للملك يوحنا - ثم استعادها بعد بضعة أيام بوصفها إقطاعاً، وعلى الملك أن يؤدي الجزية عن إنجلترا للبابوية .

وبعد أن سوى يوحنا مشكلته مع البابوية استعد لمحاربة فيليب أوغسطس ملك فرنسا ، وتحالف مع أوتو الرابع إمبراطور ألمانيا ، ولكن بارونات انجلترا تخلفوا عن المشاركة في هذه الحرب . ورغم ذلك عبر يوحنا القناة الانجليزية بما لديه من رجال ووصل إلى أنجو في الوقت الذي سار فيه أوتو إلى باريس ، وفي يوليو عام ١٢١٤ م هزم أوتو في موقعة بوفين Bouvines في إقليم فلاندرز وترتب على هذه الهزيمة نتائج هامة جداً في تاريخ أوروبا خاصة في ألمانيا وانجلترا. ففي ألمانيا اهتز عرش أوتو وفتح المجال أمام فريدريك الثاني ليتولى عرش ألمانيا. أما في انجلترا فقد اضطر يوحنا إلى عقد الهدنة بعد هزيمة ألمانيا وتخلي باروناته عنه . وبموجب هذا الصلح تنازل يوحنا

عن إقليم بواتو . أما فرنسا فقد أصبحت القوة الوحيدة على القارة الأوروبية .

ولم يكن يوحنا جاداً في طلب المدنة إنما عقدها لكسب الوقت، فلما عاد إلى انجلترا بعد عقد الهدنة بدأ يعد جيشاً لمحاربة فيليب. ولكن الأشراف والنبلاء رفضوا مرة أخرى الانضمام إلى الجيش واعترضوا على الضرائب التي يجمعها الملك للدخول في حروب لا فائدة منها ، وذكروا الملك أيضاً بسياسته الخاطئة التي أدت إلى تسليم انجلترا للباباوية . ولم يكن لدى الملك وسيلة غير التفاوض .

عرض يوحنا على الأمراء أن يؤدوا مبلغاً من المال بدلاً من الخدمة العسكرية ، ولكن الأمراء تجاهلوا هذا المطلب وطالبوا الملك الالتزام بالقوانين التي وضعها الملك هنري الأول التي تحدد حقوق الأشراف وسلطات الملك . وماطل يوحنا في الرد فظن الأمراء أنه يستعد لمحاربتهم فجمعوا قواتهم ، وحتى يكسب الملك يوحنا تأييد البابا ورجال الدين أعلن بعض الامتيازات لرجال الدين، وأعلن أنه سيحمل الصليب ويقود حملة صليبية إلى الشرق لاستعادة بيت المقدس .

ولم يغير هذا مجرى الأحداث فقد إجتمع في أبريل عام ١٢١٥ م في مدينة براكلي Brackley خمسة من الايرلات وأربعون من البارونات وقدموا قائمة بمطالبهم للملك ، وأرسل الملك إلى المجتمعين وليم لامارش بالاضافة إلى ستيفن لانجتون بهدف إخضاعهم لسلطان الملك ، ولكن المجتمعين رفضوا وأعلنوا في مايو من العام نفسه الحرب على الملك ونجحوا في غزو لندن بعدما استمالوا مواطنيها .. وطلب الملك من ستيفن لانجتون رئيس أساقفة كانتربوري إنزال قرار الحرمان على المتمردين ولكن ستيفن رفض إصدار مثل هذا القرار .

تحرك يوحنا بقواته من أكسفورد- إلى وندسور Windsor وتحرك البارونات من لندن وعقدوا اجتماعاً في رونيميد Runnymede من الثامن

الرابع عشر من يونية ١٢١٥م . وتولى امر الوساطه بين الملك والبارونات ستيفن لانجترن ووليم لامارش ، وظلت المباحثات بين الطرفين وهي التي انتهت بالوثيقة المعروفة بالعهد الأعظم Magna Carta، وهي الوثيقة التي صيغت عباراتها خلال عدة أيام ، ووقعها الملك يوحنا في الخامس عشر من يونيه عام ١٢١٥ م . ولعب ستيفن لانجترن ووليم لامارش دوراً كبيراً في صياغة بنودها . ويعتبر العهد الأعظم أشهر وثيقة في التاريخ الانجليزي بأكمله وبه إستسلم يوحنا الاستسلام الثاني .

والعهد الأعظم يتكون من اثنين وستين مادة بخلاف الديباجة وقد ورد بها .

تحية من يوحنا المتوج ملكاً على انجلترا بعناية الله تعالى ، وسيد إيرلندا ، ودوق نورماندي واكويتين وكونت انجو ، إلى رؤساء الأساقفة والأساقفة ورؤساء الأديرة والايرلات والبارونات ... وجميع رعاياه المخلصين ... وبإرادة الله ومن أجل خلاص جميع أرواحنا وأرواح خلفائنا ... وتلى ذلك البنود الخاصة بالعهد الخاصة بالعهد الأعظم . ونكتفي في هذا الموضع بإلقاء الضوء على بعض بنوده .

فقد ورد في البند الأول أن تكون الكنيسة حرة لا يتعدى أحد على شيء من حقوقها وحرياتها .

وفي البند الثاني « إننا نمنح جميع الأحرار في مملكتنا عنا وعن ورثتنا إلى أبد الدهر جميع الحريات المدونة فيما بعد » .

مادة ١٢ : ألا يفرض بدل خدمة أو معونة ... إلا المجلس العام في المملكة .

مادة ١٤ : وهي مرحلة انتقال حتى يتم تشكيل المجلس العام ، وقد ورد بها ، حتى يجتمع المجلس العام الذي يتولى تقدير المعونات وبدل الخدمات ... نأمر باستدعاء كبار الأساقفة ، والأساقفة ، ورؤساء الأديرة ، والإيرلات وكبار البارونات في البلاد ... وغيرهم ممن هم تحت رئاسة بعدد

اجتماع يحدد له موعداً ثابتاً دورياً كل اربعين يوماً على الأقل، ويحدد مكانه أيضاً .

بند ١٥ : لن نسمح من الآن فصاعداً لكائن من كان أن يأخذ معونة من رجالنا الأحرار إلا إذا كان ذلك بسبب الفداء ، أو تنصيب الابن الأكبر فارساً، أو زواج ابنته الكبرى للمرة الأولى، ويشترط أن تكون المعونة في مثل هذه الحالات معونة مقبولة.

ولما كانت الشكاوي تعرض من قبل على محكمة الملك ، ولما كانت محكمة الملك تتبعه أينما كان ، فقد ورد في المادة السابعة عشر ما نصه : « لن تعرض الشكاوي العادية على محكمتنا ، بل ينظر فيها في مكان محدد » .

وفي المادة السادسة والثلاثين ورد مبدأ في غاية الأهمية ويعتبر ثورة على النظم السائدة،وهو يجب ألا يطول حبس إنسان من غير محاكمة .

وفي المادة التاسعة والثلاثين تقرر عدم القبض على أي رجل حر أو يسجن أو تنزع ملكيته ، أو يخرج عن حماية القانون أو ينفى ، أو يؤذى بأي نوع من الإيذاء ، إلا بناء على محاكمة قانونية أمام أقرانه المساوين له في المدينة ، أو بمقتضى قانون البلاد .

وتعرضت المادة الحادية والأربعون لحرية التجارة ، فقد نصت على تمتع جميع التجار بحق الدخول إلى انجلترا والإقامة فيها والمرور بها براً وبحراً سالمين مؤمنين للشراء والبيع ، دون أن تفرض عليهم ضرائب غير عادلة .

وورد في المادة الستين أن كل الحريات السالفة الذكر يجب أن يراعيها أهل انجلترا كلهم ، سواء رجال الدين أم غيرهم .

وإذا اكتفينا في هذا الموضوع ببعض البنود الواردة في العهد الأعظم،إلا أنه يمكن القول أن هذا العهد كان أساس الحريات التي تمتعت بها انجلترا ولا زال كذلك ، وواقع الأمر أن العهد الأعظم جدير بهذه الشهرة . والحقيقة أن هناك بعض القصور في نصوص العهد الأعظم ، ولكن علينا أن ننظر إليه في

عصره وما كان هناك من أنظمة ولا نقارنه بما نحن فيه الآن ، وإذا كان العهد الأعظم بدا وكأنه انتصاراً للاقطاع لا للديمقراطية ، إلا أنه نص على الحقوق الأساسية وحماها وزاد عليها بعد ذلك وهو الذي بدل الملكية المستبدة إلى ملكية دستورية مقيدة .

لقد وقع يوحنا العهد الأعظم وهو مرغم ، دون أن يدري أنه خلد اسمه في التاريخ للتزول عن سلطاته الاستبدادية ، وأنه الذي جعل من انجلترا دولة تفتخر بأنها أما للديمقراطية . وعز على يوحنا هذا التنازل وأنه يعتبر بالنسبة لعصره ضعيفاً لا قوياً ، لذلك حاول إلغاء العهد الأعظم وساندة البابا في هذه المرحلة ، فأعلن الملك والبابا أن العهد باطل . ورفض الأمراء إطاعة أوامر الملك والبابا فأصدر الأخير قرار الحرمان عليهم، ولكن ستيفن لانجتون رئيس أساقفة كانتربوري صانع هذا العهد رفض نشر قرار الحرمان .

تأزم الموقف بين البابا وستيفن لانجتون ، وقام مبعوثو البابا في انجلترا بإذاعة قرار البابا ووقف ستيفن عن العمل ، فاستنجد نبلاء انجلترا بالملك فيليب أوغسطس الذي كان على خلاف مع البابا في هذه المرحلة ، وهب فيليب لمساعدة النبلاء خاصة أنه كان يرى أن ملك انجلترا ليس إلا تابعاً له .

أرسل فيليب إبنه لويس لمساعدة النبلاء وليتولى في حالة نجاحه عرش انجلترا ، ولما كان البابا لا يوافق على مثل هذا العمل فقد حذر البابا أنوسنت الثالث على لسان مبعوثيه الأمير لويس من الإبحار إلى إنجلترا . وفي الوقت نفسه قام يوحنا بضرب النبلاء في كل مكان واشتد في معاقبتهم، ولكنه مرض فجأة على أثر تناول كمية كبيرة من الدراق (الخوخ) ومات على أثر هذا المرض في التاسع عشر من أكتوبر عام ١٢١٦ م .

هنري الثالث ١٢١٦ - ١٢٧٢ م

تغير الموقف تماماً بعد وفاة هنري الثاني ، فقد مال الأشراف إلى الملك

المرتقب وانفضوا من حول لويس وطالبوه بالعودة إلى فرنسا ، وتُوج هنري الثالث ابن الملك المتوفي ملكاً على انجلترا (١٢١٦ - ١٢٧٢ م) ولما كان هنري الثالث في السادسة من عمره فقد وضع تحت وصاية وليم لامارش إيرل بمبروك Pembroke . وقد قام هذا الوصي بإعادة إصدار العهد الأعظم باسم الملك الجديد فهدأت النفوس كلها والتف الشعب الانجليزي حول مليكه الجديد وسانده أيضاً مبعوثو البابا وغالبية رجال الدين ، وكما يقال لقد فضل الانجليز ملكاً انجليزياً طفلاً عن ملك فرنسي غريب .

مات وليم لامارش في عام ١٢١٩ بعد أن حكم انجلترا حكماً فعلياً منذ تولية هنري الثالث وساعده في هذه الفترة المبعوث البابوي ، وتولى الوصاية على هنري المبعوث البابوي حتى عام ١٢٢١ م حيث عاد إلى روما . وتولى بعد ذلك أسقف ونشستر Winchester بطرس دي روشيه Peter des Roches أمر الوصاية، وساعده في أمر القضاء هيوبرت دي بورج Hubert de Burgh .

وفي عام ١٢٢٣ م أعلن البابا هونوريس الثالث أن الملك هنري بلغ سن الرشد وعليه أن يحكم بمفرده، ولكن هنري لم يتخل عن مساعدة بطرس حتى عام ١٢٢٧ م عندما ذهب بطرس في الحملة الصليبية السادسة مع فريدريك الثاني .

وعلى أية حال فقد كان هنري الثالث على شاكلة أسلافه ، ففرض الضرائب التي أرهقت النبلاء وكادوا يثورون عليه ، وسمح لرجال الدين بجمع العشور لمساعدة البابا في حروبه ضد الأمبراطور فريدريك الثاني . ورغم هذا كله فإن أهم شيء حدث في عصر هنري الثالث هو أن فترة قصور هنري الثالث ، أشعرت الوزراء بالمسؤولية الملقاة على عاتقهم ، فتعاون الوزراء مع النبلاء ونجحوا في دفع الدولة إلى الأمام بطريقة أفضل بكثير من الأجيال السابقة عندما كانت السلطة في يد الملك ، ومن تجاربهم في السلطة بدون تعرض الملك وضعوا أساس الحكم الديمقراطي في انجلترا وقد ظهرت نتائج هذه الممارسة على مر الزمن .

إدوارد الأول ١٢٧٢ - ١٣٠٧ م

كان رجلاً طموحاً ، قوي الادارة ، داهية في السياسة ، صبوراً في الحرب ، خبيراً بالفنون العسكرية ، وقاد حملة صليبية وهو أمير في عام ١٢٧١ م ولكنه لم يوفق فقد عاد بسرعة لتولي أمر الدولة. ويعتبر عهد إدوارد من أكثر العهود نجاحا في تاريخ انجلترا ، ويرجع ذلك إلى عدة عوامل منها أنه درب جميع الانجليز على حمل السلاح ، وأعاد تنظيم الجيش وبهذه القوة العسكرية فتح ويلز وكسب اسكتلندا عام ١٢٨٤ م . ورفض دفع الجزية التي تعهد بها الملك يوحنا عندما استسلم للبابارية ، ولكن هذا كله لم يكن سبباً في تمجيد عهد إدوارد، فإن نمو البرلمان الذي بدأ في عام ١٢٩٠ باجتماع رجال الدين والبارونات ثم تطور هذا البرلمان إلى البرلمان المثالي الذي عقد في عام ١٢٩٥ م بحضور الإيرلات والبارونات ، والفرسان ونواب عن الأساقفة ورؤساء الأساقفة والعامة ، هو الذي خلد عهد إدوارد. فقد قرر هذا البرلمان عدم فرض ضرائب إلا بموافقة البرلمان ، ووضع مبدأ في غاية الأهمية وهو أن ما يمس الناس جميعاً يجب أن يوافقوا عليه جميعاً ، كما قرر البرلمان في هذا العام أيضاً أن الأخطار التي تواجه الدولة يجب أن تعامل بطرق يتفق عليها الناس جميعاً .

وبالإضافة إلى تحسن طرق الإجراءات القانونية والتحقيق القضائي ، فإن ما قدمه إدوارد من التشريع التجاري، وصدور قانون التجار عام ١٢٨٣ م ، وعهد التجار في عام ١٣٠٢م، يعتبر من الأعمال العظيمة التي خلقها إدوارد .

وعندما مات إدوارد في عام ١٣٠٧ م كانت انجلترا تتمتع بحكم برلماني سليم وقانون تجاري عادل ونعمت انجلترا بحكم قوي وفق بين الحرية والقانون .

الفصل الرابع عشر

النورمان في إيطاليا وصقلية

تأسيس الإمارة النورمانية

النورمان والإمبراطورية البيزنطية

غزو النورمان لصقلية

النورمان والبابارية

حياة النورمان وثقافتهم في صقلية

العمارة

الحركة العلمية

نهاية حكم أسرة روجر الثاني

بداية تأسيس الإمارة النورمانية في جنوب ايطاليا :

أهم ما يلفت النظر في العصر البطولي للتاريخ النورماني هو استغلال البارونات النورمان لأراضي البحر المتوسط . فلقد قاموا بالمعارك ضد المسلمين في اسبانيا وصقلية والشام وشتتوا الجيش البابوي وتغلبوا على امراء لمبارديا والقواد البيزنطين،واصبحوا مغامرين عظماء في البحر المتوسط خلال القرن الحادي عشر الذي شاهد فترة التوسع النورماني المظيم . وبعد أن سيطروا على جنوب ايطاليا بداءوا ينظمون قواهم وخلقوا دولة قوية غنية، كـان لها حضارة عظيمة وأصبحت اعجوبة أوروبا .

وإذا أراد الإنسان أن يرجع نجاح النورمان في انجلترا إلى محض الصدفة ، أو إلى شخصية وليم الفاتح الفريدة في نوعها ، فإن الأعمال العظيمة للنورمان في جنوب إيطاليا دون أية مساعدة من الحكام ، فإن هذا أكبر دليل على القوة الخلاقة للعبقرية النورمانية الا وهي عبقرية الفتح والإدارة .

لقد نشأت أول علاقة بين النورمان وشعوب البحر المتوسط عن طريق الحج للأماكن المقدسة التي لعبت دوراً هاماً في الحياة والأدب في العصور الوسطى . ولقد ارتبطت فكرة الحج ارتباطا وثيقا بالأماكن المقدسة مع بداية

المسيحية والالام التي تحملها الشهداء المسيحيون ، وبالدوافع العملية من اجل التكفير عن الذنوب ، حتى أصبح الحجاج يسيطرون على الطريق في أواخر العصور الوسطى . وكان منهم كثير من المسيحيين الذين كانوا يرغبون في التكفير عن ذنوبهم وذلك بعمل الخير . وكان هؤلاء المذنبين الباحثين عن التوبة يتجولون احياناً في أنحاء الأرض لفترة معينة ،وكثيراً ما كانوا يقومون برحلة إلى الكنائس المجاورة أو إلى مكان آخر مقدس من أجل التكفير عن ذنوبهم مثل روما أو بيت المقدس أو كومبوستلا (مكان في تلال جالسيا بإسبانيا) حيث يرقد رفات القديس جيمس العظيم : James The Great

وأول اتصال واضح للنورمان في ايطاليا يرجع إلى سنة ١٠١٦ م عندما عادت مجموعة من الحجاج النورمانيين من بيت المقدس ومكثوا في مونت جارجانو Monte Gargano على الشاطىء الشرقي . وكان هناك كنيسة قديمة للقديس ميخائيل موضع احترام من جانب الحجاج النورمان الذين فهموا الفضائل العسكرية . وهنا جرت محادثات بين النورمان وبين ميلس Miles الذي قام بثورة فاشلة في أبوليا . وأوضح ميلس للنورمان أنه بعدد قليل مثلهم من الجنود يستطيع أن يهزم البيزنطيين بسهولة ،وعلى ذلك وعدوه بأن يعودوا وأهل بلدهم ليساعدوه .

وهناك رواية أخرى في العام نفسه تحكي أن أربعين حاجا نورمانيا شجعاناً وهم في طريقهم إلى وطنهم عائدون من بيت المقدس وجدوا جيشاً اسلامياً يحاصر سالرنو فقاموا بجمع الأسلحة والفرسان من أهل البلد ، ثم هزموا المسلمين وطردوهم . وعندما طلب منهم أهل سالرنو أن يمكثوا معهم أجابوا بأن كل ما عملوه ما هو إلا في حب الله ، ولكنهم وافقوا على أن يحملوا معهم وهم عائدين لبلادهم الليمون والجوز والمنتجات الأخرى من الجنوب كوسيلة لجذب النورمان الآخرين لكي يأتوا ويستقروا في أراضي اللبن والعسل . ولا شك أن الأسطورية قد لعبت دوراً كبيراً في هذه الروايات، وهناك احتمال بأن مبعوثاً لومبارديا قد اصطحب الحجاج الى وطنهم لكي يساعد في عملية تجنيد النورمان . ومن المؤكد انه في سنة ١٠١٧ م عاد النورمان إلى إيطاليا مستعدين للحرب ، الا أنه لم يكن هناك شيئاً يستدعي

ذلك بعدما هزم ميلس في شمال ابوليا هزيمة ساحقة في مدينة كان .

واستطاع النورمان بعد ذلك بسنوات كثيرة بعددهم القليل ومهارتهم أن يقوموا بمجهودات فردية في خدمة الأحزاب المختلفة في خضم السياسة الإيطالية . وانتقل النورمان من خدمة أمير إلى آخر طالما كان هناك امتيازات أكثر ، وأقاموا أول مركز نورماني في افرسا Aversa سنة ١٠٣٠ شمالي نابلي . ولكن تجمعهم في مراكز عديدة جعل نموهم بطيئاً ، إلا أن عددهم كان يتزايد باستمرار نتيجة تجنيدهم من وطنهم ليعيشوا كجنود مرتزقة حيث تدفع لهم أجورهم . وقد عمت شهرتهم لدرجة أن البابا طلب من أمير سالرنو أن يسرح قوات النورمان إلا أن الأمير أجاب قائلاً « لقد تكلفت الكثير من الوقت والمال كي أجمع هذا الكنز الثمين الذي كان جنود الأعداء يظهرون أمامه كاللحم أمام الأسود المفترسة » .

ومن بين القوات النورمانية تبرز أسرة هوتوفيل Hauteville التي كانت تمثل القوة النورمانية الكبيرة في هذه الفترة التكوينية ، وكذلك أصل الأمراء في جنوب إيطاليا وصقلية الذين أتو بعد ذلك . ولقد تولى رئيس الأسرة تانكرد Tancred بارونية هوتوفيل ولكنها لم تكف أبناؤه الاثني عشر ، فذهب معظمهم ليجرب حظه في الجنوب .

واشتهر من زعماء النورمان في ايطاليا في هذه الحقبة من الزمن ثلاثة أخوة يلقبون بلقب هوتفيل هم وليم وهمفري Humfroi ودروجو Drogo ، وقد نالوا جميعاً صيتاً رائعاً في ميدان الحرب والقتال ، وتقدم هؤلاء الأخوة لمساعدة البيزنطيين ١٠٣٨ م لطرد المسلمين من صقلية . وأصبح وليم هوتوفيل أميراً على النورمان في أبوليا عام ١٠٤٢ م . وبعد موت وليم سنة ١٠٤٦ م اعترف الإمبراطور الألماني الغربي هنري الثالث بأخيه دروجو أميراً على أبوليا . وحدث في ذلك الوقت أن جاء روبرت جويسكارد Robert Guiscard من نورمانديا وهو الأخ الرابع من أسرة هوتوفيل ، ولم يلبث روبرت أن أصبح زعيماً للنورمان في إيطاليا بعد وفاة همفري سنة ١٠٥٧ . واشتهر روبرت كسياسي ماهر وقائد شجاع لا يعرف الرحمة أو الوفاء بالعهد

في سبيل الوصول إلى هدفه. ووجه روبرت كل جهوده نحو غزو جنوب إيطاليا وسلب الدولة البيزنطية نفوذها في شبه الجزيرة الإيطالية دون أن يدري أن توسع النورمان في جنوب إيطاليا وما صحبه من النهب والسلب قد أثار حنق البابوية ومخاوفها . واستطاع روبرت أن يغزو كالبريا Calabria بأكملها سنة ١٠٥٧ ، وبذلك أصبح من الواضح أنه لا يمكن طرد النورمان من ايطاليا لدرجة أن القلق استبد بالبابا جريجوري السابع عندما وجد النورمان يتسلمون جميع الجزء الجنوبي من إيطاليا سواء أكانت ممتلكات بيزنطية أو باباوية .

وقد تمكن النورمان من الإستيلاء على باري Bari عام ١٠٧١ م بعد حصار دام ثلاث سنوات ، ثم نجح النورمان في غزو أبوليا وكالبريا والقضاء على ما تبقى من النفوذ والبيزنطي في إيطاليا ولم تفلح محاولات البابا جريجوري السابع المعروف بالعنف والصرامة في وقف التوسع النورماني ، ولم يلبث أن غزا روبرت جويسكارد سالرنو ونابلي .

وحاول روبرت أن يمد املاكه على حساب الدولة البيزنطية نفسها إلا أنه لم ينجح في ذلك كما سيأتي في موضع تال ، ومات سنة ١٠٨٥ م دون أن يحقق رغبته ، وانما يكفيه أنه ثبت اقدام النورمان في جنوب ايطاليا . وانتهت فترة الغزو النورماني في جنوب ايطاليا وهي الفترة التي استمرت نصف قرن من الزمان . وأعقب ذلك دور آخر من الصراع الداخلي بين النورمان أنفسهم استمر قرابة نصف قرن أيضاً حتى تمكن روجر الثاني ١١٣٠ - ١١٥٤ م من توحيد جميع الأراضي التي فتحها النورمان في إيطاليا واتخاذ لقب ملك سنة ١١٣٠ م .

النورمان والدولة البيزنطية :

في الوقت الذي نزل فيه فريق من النورمان بزعامة هرتوفيل وروبرت جسكارد في ايطاليا اتجه فريق آخر من المغامرين النورمان نحو الدولة البيزنطية ودخلوا في خدمتها كجند مرتزقة واستفاد هذا الفريق الأخير من الكارثة التي حلت بالبيزنطيين على أيدي السلاجقة عام ١٠٧١م ، وحاولوا أن يؤسسوا

لأنفسهم امارات مستقلة في آسيا الصغرى ، وأوضح مثل لهذا النوع من المغامرين النورمان رسل بايل Roussel of Bailleul ، الذي صار في وقت ما مسيطرا على إقليم قبدوقية والجهات المجاورة .

وحاول روبرت جويسكارد أن يحذو حذو رسل بايل ويقيم دولة نورمانية في الأناضول على حساب البيزنطين والسلاجقة ، لذلك ارسل روبرت جويسكارد قواته عند مدينة افلونا Avlona على ساحل والماشيا في صيف سنة ١٠٨١م ، ومنها اتجه إلى ديراكيوم Dyrrachium حيث هزم قوات الإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين Alexius I Comnenus ١٨٠١ ـ ١١١٨م ، واستولى على ذلك الموقع الهام في أوائل سنة ١٠٨٢ م ، وزحف بعد ذلك إلى القسطنطينية مباشرة إلا أنه عدل عن زحفه إليها ، وعاد إلى إيطاليا حيث كانت احوالها في ذلك الوقت تستدعي وجوده ، وترك قيادة قواته في البلقان لابنه بوهمند Bohemund الذي صار فيها بعد قائداً من قواد الحملة الصليبية الأولى .

واستطاع بوهمند أن ينزل الهزيمة بالإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين أكثر من مرة كما استولى على عدة مراكز هامة في ابيروس وتساليا ومقدونيا وأوشكت الإمبراطورية البيزنطية على السقوط في أيدي النورمان مما جعل الكسيوس كومنين يسرع إلى الإستجاد بسليمان بن قتلمش زعيم السلاجقة الروم . وامد هذا الزعيم الإمبراطور بسبعة الاف رجل ، وتمكن الإمبراطور البيزنطي من مواجهة الموقف بفضل تلك النجدة وأن يحرز انتصاراً على بوهمند في تساليا ، وعاد بوهمند إلى إيطاليا لإحضار امدادات جديدة عام ١٠٨٣ .

وعاود روبرت جويسكارد وابنه بوهمند الكرة مرة أخرى وتحدياً الأسطول البندقي المحالف للبيزنطيين ، قرب جزيرة كورفو Corfu ، وطالت الحرب بين الطرفين على سواحل إبيروس حتى توفي روبرت جوسكارد في عام ١٠٨٥م ، فعاد النورمان من البلقان إلى ايطاليا .

وبالرغم من ذلك لم ينس خلفاء النورمان بصفة عامة ، وبوهمند بصفة

خاصة »، لم ينسوا مطلقاً طريق الشرق . وهو الطريق الذي لم تلبث إن امدتهم الحروب الصليبية بفرصة عظيمة لاختراقه .

وفي الحقيقة أن نصيب النورمان في الحروب الصليبية الأولى كان بدون شك عاملاً من عوامل نجاحها وكانت مملكة انطاكية هي المملكة النورمانية الوحيدة في شرق البحر المتوسط التي اختفت معالمها النورمانية لدرجة كبيرة بعد بوهمند الأول وتانكرد . وقد كان النورمان على النقيض من رفقائهم المسيحين في فرنسا وايطاليا ولم تجذبهم الحركة الصليبية من الناحية التجارية أو التوسعية ، لأن النورمان في إيطاليا وانجلترا كانت تكفيهم مشاريعهم الإستيطانية .

كما أن جشع النورمان لم يجعلهم يقفون عند حد معين بل كانوا يغتنمون كل فرصة توافيهم للحصول على الأرض والكسب والشهرة ، وها هم مسيحيوا اسبانيا يطالبون العون من جيرانهم الشماليين ، فهرعت جيوش المتطوعين من نورمانديا عبر البرانس لمحاربة المسلمين وليغنموا إلى جانب ذلك ثمين المغانم وغاليها .

غزو النورمان لصقلية :

قد نظن أن غزو صقلية كان حملة صليبية قصيرة قبل أن تقع الحروب الصليبية نفسها ولم يقرها مجلس الكنيسة ، ولكن غزوها فكر فيه ونفذه النورمان الذين اتصفوا بالجرأة . وكما استفادت الحروب الصليبية في الشرق من الخلافات بين المسلمين ، ففي صقلية ايضاً لم يتورع النورمان في عقد محالفات مع بعض المسلمين ثم يتركوهم بعد ذلك لزراعة اراضيهم في سلام مقابل تحالفهم مع النورمان .

ولقد بدأ الغزو في صقلية بالإستيلاء على مسينا Messina عام ١٠٦١ واستمرت فترة الغزو ثلاثين سنة ، وقام بهذا العمل روجر بمساعدة روبرت جويسكارد في السنين الأولى من حكمه ، ولذلك ادعى روبرت بأن له نصيب

في هذه الإنتصارات . وكانت النقطة الحاسمة هو مشروع مشترك بين روبرت وروجر الذي نتج عنه حصار وغزو بالرمو Palermo ١٠٧٢ الذي مكن النورمان من الإستيلاء على العاصمة الإسلامية التي كانت تعتبر أكبر مدن صقلية والتي كان بها ميناء سمي باسم المدينة .

وتفاصيل سقوط صقلية في أيدي النورمان يرجع للنزاع الذي قام بين ابن الثمنة الملقب بالقادر بالله صاحب طرابلس وبين صهره القائد ابن الحواس علي بن نعمة صاحب قطانيا وسرقوسة ، فاستنجد ابن الثمنة بالنورمانديين المقيمين بقلورية في كالبريا، وسجل دخولهم على مسرح الحوادث في صقلية ضياع هذه الجزية من أيدي المسلمين، وقد تمكن روجر النورماندي من بسط سلطانه على الجزيرة تدريجاً. واستنجد أهل صقلية بالمعز بن باديس ضد روجر . وجمع المعز عدداً من سفنه وابحر قاصداً صقلية ولكن عاصفة عاتية اغرقت سفنه . وكانت هذه الكارثة ضربة قاضية لآماله ، فقد استطاع النورمان السيطرة على معظم جزيرة صقلية .

وحاول الأمير استرجاع الجزيرة إلا أنه فشل، وترك صقلية لمصيرها التعس. واستطاع روجر أن يتملك الجزيرة باستثناء مدينتي قصريانة وجرجنت اللتين حاصرهما النورمان حصاراً شديداً حتى ضاق الأمر على اهلها فاكلوا الميتة ، ولم يبق لديهم ما يأكلونه واضطر أهل جرجنت للتسليم أما قصريانة فظلت بعدها ثلاث سنوات ، فلما اشتد الأمر على اهلها اذعنوا للتسليم فتسلمها النورمان في سنة ٤٨٤ هـ/ ١٠٩١ م .

ولقد تطلبت هذه الحروب من الكونت العظيم روجر مهارة حربية ودبلوماسية عظيمة . وعلى أية حال انتهت فترة الغزو واستسلمت آخر قلعة عربية واسمها موتو عام ١٠٩١ م وسيطر الكونت روجر على المراكز المحصنة وتمتع البيزنطيون والمسلمون بالتسامح الديني والدنيوي . وباطلاعنا على كتاب نزعة المشتاق نجد أن الادريسي قد سجل هذه الحالة فيقول :

« ولما صار أمرها (أمر صقلية) اليه (الكونت روجر) استقر بها سرير

ملكه نشر سيرة العدل في أهلها واقرهم على اديانهم . . . وامنهم في انفسهم واموالهم واهليهم . . . ثم اقام على ذلك مدة حياته . . . . » .

والحقيقة أن التسامح الديني بين المسلمين وغيرهم لم يكن بدعة ادخلها النورمان في صقلية ، فإن المسلمين عندما كانوا يحكمون ايطاليا ، قد وضعوا اساس هذه السياسة . فقد كان التسامح الديني هو أساس المعاملة بين الحكام المسلمين وغير المسلمين المحكومين . فكان المسلمون والنصارى يعيشون جنباً إلى جنب على قدم المساواة ، وانتشرت العادات الإسلامية بين سكان الجزيرة .

النورمان والباباوية :

تكون العلاقات بين النورمان والباباوية حلقة كبيرة من التاريخ الأوروبي ، حيث اتفقت هذه الفترة من التوسع النورماني مع الحركة العظيمة للإصلاح الديني التي قام بها بكل شجاعة الباباوات في منتصف القرن الحادي عشر ، والتي بلغت ذروتها لبضع سنين ممثلة في مركز الباباوية العظيم في عهد البابا جريجوري السابع . وكانت حركة الإصلاح ذات اتجاهات متعددة منها القضاء على الرشوة Simony ، وزواج القساوسة وغير ذلك .

ومع هذه الحركة . ·وا غارات النورمان وكأنها تهدد مصالح الباباوية ، لذلك يجب ألا تندهش عندما ترى ليو التاسع ١٠٤٨ - ١٠٥٤ م وهو أول شخصية باباوية عظيمة يتدخل بحماس في الشؤون الدينية والزمنية ويقوم بدور حامي البلاد . وقد حدث في بنفنتو Benevento التي كانت تحت حماية ليو التاسع ، حيث قام ليو ومعه جماعة من قواد ألمانيا ، ومن أماكن أخرى في إيطاليا بمحاربة النورمان سنة ١٠٥٣ م ، ولكن ليو هزم هزيمة ساحقة في موقعة سيفيتات Civitate ، وادي ذلك إلى تدعيم السلطة النورمانية في ايطاليا . ولكن النورمان لم يستطيعوا أن يستمروا في القتال كما لو كانوا يحاربون ضد عدو غير ديني . فقد شعر النورمان بحدة الموقف فعاملوا البابا باحترام شديد وهو في

الأسر لبضع شهور في بنفنتو . واصبح من الواضح أمام المصلحين الدينيين أنه من الصعب هزيمتهم بالسلاح، وأنه من الممكن استغلالهم كحلفاء نافعين ضد النبلاء البيزنطيين ورجال الدين المارقين وكذلك من الخطر الإمبراطوري الألماني . وحدث أن عقد البابا نيقولا الثاني Nicholas II ١٠٥٧ ـ ١٠٦١ م اجتماعاً في قلعة نورمانية بصحبة رجال الدين العظماء وكذلك اثنين من رؤساء الأمراء النورمانيين هما : ريتشارد أف أفرسا ، وروبرت جويسكارد . وفي مقابل ذلك أقسم النورمان يمين الولاء والإخلاص للبابا واتفقوا على دفع جزية سنوية للبابا عن أملاكهم وأقسم روبرت أن يكون تابعاً للبابا . إلا أن روبرت لم يكتف بالأراضي التي تحت يديه بل هاجم الشاطىء الغربي حتى أمالفي Amalfi ثم تقدم حتى وصل إلى أبروزوي فاندهش البابا لذلك .

وحدث أن اعتلى جريجوري السابع عرش البابوية في ذلك الوقت، وجريجوري هو الكاردينال هلد براند الذي كان القوى المحركة للعرش البابوي لاسلافه بما فيهم اعظم باباوات القرن الحادي عشر . وبالرغم من ذلك فقد فشل في استمالة النورمان إليه وخشي أن يتم اتحاد بينهم وبين عدوه اللدود الإمبراطور الإلماني هنري الرابع، فعقد صلحا مع روبرت اتفق فيه على استثمار النورمان لأراضيهم نظير ولاء النورمان له . ولم يمض وقت طويل حتى اضطر البابا إلى توجيه نداء يائس إلى النورمان لمساعدته ضد هنري الرابع ، إلا أن هنري سيطر على روما بعد عدة محاولات وسجن البابا في قلعة سانت انجلو St. Anglo وعين بابا آخر مكانه ، وتوج البابا الجديد هنري الرابع امبراطورا في كنيسة القديس بطرس . وحدث في عام ١٠٨٥ م أن جاء جيش روبرت جويسكارد فقام الإمبراطور بانسحاب استراتيجي إلى الشمال حيث رفع الحصار عن سانت انجلو ووقعت روما فريسة للنهب على يد النورمان وحرقوا الجزء الأكبر من المدينة . ودمرت النيران بقايا الآثار القديمة والكنائس المسيحية مثل سانت كلمنت St. Clement، ودمرت أحياء عن آخرها وقاست روما القديمة على يد النورمان أكثر مما قاسته على يد الوندال ، لذلك لم يستطيع البابا جريجوري السابع أن يدعم مركزه

في روما دون قوة تحميه ، لذلك اتخذ من النورمان حلفاء له في الجنوب حتى سالرنو التي اعتبرت مدينة نورمانية في هذا الوقت .

ويتدخل النورمان أكثر من مرة في حروب التقليد العلماني لحماية بابا لاجيء أو لإنقاذ روما من الجيوش الالمانية . وكان النورمان في مركز قوى ثانوي واداة توازن أكثر مما كانت مركزاً رئيسياً . ولولا الحوادث التي جعلت من النورمانيين قيمة عظيمة للباباوية، لكانت محط إعجاب أكثر منه موضع خوف .

حياة النورمان وثقافتهم في صقلية :

مما يلفت النظر أن النورمانيين استطاعوا أن يتفاعلوا وأن يكيفوا أنفسهم مع البيئات الكثيرة المختلفة من جميع الوجوه في الأماكن التي حلوا بها من اسكتلندا حتى صقلية ، واستطاعوا أن يوقظوا بنشاطهم القوى العنيف الأقاليم والشعوب الخاملة، وإن رعاياهم قد امتصوا امتصالاً كاملاً عبر عدد قليل من القرون حتى اختفوا من التاريخ .

ولقد عاش النورمان مائة عام مشحونة بالإضطرابات والأزمات يحكمون جنوب ايطاليا واصبحوا فيها خلفاء للدولة البيزنطية بعد جهد كبير كما توضح في موضع سابق ، كما حكموا صقلية بعد أن الت اليهم سنة ١٠٩١ م بعد ما خلصت لهم من يدي المسلمين. واعترفت ايطاليا بحكم النورمان ، وكانت للصقلتين ـ جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا ـ شأن كبير في ميدان السياسة الأوروبية . وقد اكتسب النورمان مميزات تجارية وحربية عظيمة نتيجة لسيطرتهم على مضيق مسينا والخمسين ميلا الفاصلة بين صقلية وافريقيا واصبحت موانيء امالفي وسالرنو وبالرم مراكز تجارية نشطة مع ثغور البحر المتوسط بما فيها مراكز للتجارة الإسلامية في بلاد تونس واسبانيا ، وأصبحت صقلية وقتئذ اقطاعية غربية، وتحولت المساجد الإسلامية التي بنيت اثناء حكم المسلمين للجزيرة إلى كنائس فخمة زاهية وحل القساوسة الكاثوليك محل المطارنة البيزنطيين في إيطاليا الجنوبية .

ومنح البابا أوربان الثاني Urban II ١٠٨٨ ـ ١٠٩٩ سنة ١٠٩٨ م

روجر وخلفائه سلطة الرسول البابوي في صقلية لكي يقضوا على سلطة الآخرين ، ولذلك كان البابا يتعامل مع الكنيسة في صقلية عن طريق الكونت روجر فقط . ورغم أن هذا الامتياز غير العادي الذي منحه البابا للكونت روجر كان سبباً في تأسيس ما يسمى بمملكة الصقليتين إلا أنه أدى أيضاً إلى خلافات فيما بعد .

وعندما مات روجر الأول سنة ١٠١١ م ترك اثنين من أولاده هما سيمون وروجر تحت رعاية امهم ادليد، ومات سيمون بعد اربع سنوات وظل روجر الثاني وريثا لأراضي صقلية وكالبريا لا ينازعه في ذلك منازع ، وكان يبلغ من العمر حينذاك عشر سنوات واستولى على مقاليد الحكم عندما بلغ السادسة عشر من عمره وعرف بروجر العظيم .

وانتقلت العاصمة من مضيق مسينا من قصرها النورماني القديم في تلال ملتو حيث يرقد روجر الأول إلى بالرمو ، وكان ذلك اثناء فترة الوصاية لروجر الثاني . وتعتبر العاصمة الجديدة بالرمو مركزاً مناسباً للدول البحر الأبيض، كما ورث روجر ابوليا بعد موت ابن عمه وحماها من ثورة البارونات الثائرين، وكذلك من البابا الذي حاول أن يمنع بكل قوة تجمع ملكيات النورمان في ايدي حاكم واحد . ولم يعبأ روجر بذلك بل توسع في املاكه حتى ضمت نابولي واستطاع أن يحصل من البابا ، اناكليتوس الثاني (١١٣٠ م - ١١٣٨ م) على اقراره كملك وترج في عيد رأس السنة من سنة ١١٣٠م .

«By The grace of God, King of Sicily, Apuilia and Calabria help andshield of the Cristians, heir and son of the great Count Roger».

« على بركة الله ملكاً على صقلية وأبوليا وكالبريا معيناً وحامياً للمسيحية، ووريث وابن الكونت روجر العظيم » .

وكان لروجر من الطموح والشجاعة والدهاء وسعة الحيلة مالعمه روبرت جويسكارد فقد كان نابهاً يقظاً في تفكيره نشيطاً في عمله، وقاومه

الباباوات خوفا من اعتدائه عن الممتلكات البابوية كما قاومه الأباطرة الالمان الذين ساءهم استيلائه على ابروزوي وأيضاً البيزنطيون الذين كانوا يحلمون باسترجاع ايطاليا الجنوبية ، ومسلو صقلية الذين يتوقون إلى استرجاع صقلية . وقد حارب هؤلاء جميعاً في وقت واحد وفي بعض الأحيان كان يحارب عدة طوائف منهم في وقت واحد أيضاً . وخرج من حربهم وهو يحكم مملكة أقوى مما كانت عليها حين جلس على عرشها، ووسع ملكه بعد ذلك عبر البحر المتوسط . ونطلع إلى شمال أفريقيا واستطاع أن يضم إلى أملاكه أرضاً جديدة هي مدائن تونس وصفاقص ووهران وطرابلس .

واستعان روجر بمن بقي في صقلية من المسلمين النابهين والبيزنطيين واليهود وتمكن من تنظيم أداة حكومية مدنية وبيروقراطية إدارية أفضل مما كان لأية أمة أخرى في أوروبا في ذلك الوقت.وابقى روجر على النظام الإقطاعي في صقلية وتمكن من كبح جماح البارونات وذلك بفضل المحكمة الملكية التي كانت قوانينها تفرض على جميع طبقات المجتمع .

واصلح روجر حالة البلاد الإقتصادية وجاء اليها بناسجي الحرير من بلاد اليونان . كما عمل على توسيع نطاق التجارة بتأمين الناس على ارواحهم ومتاعهم وتجارتهم في غدوهم ورواحهم ، كما أمنهم أيضا على ممتلكاتهم، ومنح جميع الطوائف الدينية الأخرى حريتهم الدينية واستقلال فكرهم ، ففتح الباب لاعتلاء المناصب العليا في الدولة لذوي المواهب بغض النظر عن طبقاتهم الإجتماعية أو العقيدة الدينية ، ولبس روجر نفسه الثياب الإسلامية التي يرتديها رجال الدين المسلمين . ويمكننا القول أن مملكة روجر في صقلية كانت مملكة لاتينية في ثياب شرقية اي أنه عاش عيشة ملك لاتيني في بلاط شرقي . وظلت مملكته جيلا من الزمان اغنى دول أوروبا واعظمها حضارة بعاصمتها الرائعة مدينة بالرمو ، ويعتبر روجر من اكثر ملوك أوروبا استنارة في عصره .

وفي استطاعتنا أن نعرف ما كانت عليه صقلية في عهد النورمان باطلاعنا على كتاب نزهة المشتاق للادريسي حيث يصف لنا مدنها وحصونها

وقلاعها والعاصمة بالرمو اذ قال عنها « وهي المدينة السفينة العظمى والمحلة البهية الكبرى والمنبر الأعظم الأعلى على بلاد الدنيا . . . . ومنها كانت الأساطيل تغدو للغزو وتروح . . . ، .وساحلها بهيج مشرق . . ولها حسن المباني التي صارت الركبان ينشر محاسنها في بناءاتها ودقائق صناعتها وبدائع مخترعاتها . . . ومنازل شامخة شريفة وكثير من المساجد والفنادق والحمامات وحوانيت التجار الكبار . . . » ، هذا فضلاً عن وصفه لقلعة ثرمه وحصن ميلاص وبلدة مسيني وبلدة قلورية وبلدة شنت ماركو ووصفها « أنها قلعة عظيمة ذات آثار قديمة وعماراتها كثيرة وبها أسواق وحمام وجمل من الفواكه والثمار ولها بادية ومزارع واسعة ومياة نابعة وينبت بها من جميع جهاتها البنفسج الذكي الرائحة . . . » ومما سبق يتضح لنا على سبيل المثال حالة صقلية أثناء حكم النورمانيين .

وكان بها فلاحون اقوياء نشيطون يفلحون الأرض الخصبة ويخرجون الزروع ويمونون المدن ، وفي الحقيقة أنهم كانوا يعيشون في اكواخ صغيرة ولكنهم كانوا يعيشون عيشة كريمة . وكانت الحفلات والأعياد والأغاني تملأ هذه الحياة البسيطة بهجة وسعادة ، وكان لكل موسم من مواسم السنة الزراعية رقصات واغاني خاصة به ، وكان يصحب موسم جني العنب الأعياد الخمرية وكانت الأغاني اقرب إلى الأناشيد المليئة بالحنان والعفة .

وزار ابن جبير الرحالة المسلم جزيرة صقلية عام ٥٨٠ ـ ٥٨١ هـ ووصف في كتابه مدينة مسينا وشلفودي وبلارمه (بالرمو)، وهي العاصمة وقال عنها « هي بهذه الجزائر اما للحضارة والجامعة بين الحسنين غضارة ونضارة فما شئت بها من جمال تجد ومنظر ومراد عيش يافع اخضر عتيقة انيقة مشرقة مؤنقة تتطلع بمراي فتان تتخايل بين مساحات وبسائط كلها بستان فسيحة السكك والشوارع تروق الأبصار منظرها البارع . . . وممن أعجب ما شاهدناه من أمور الكفر أن الكنيسة تعرف بكنيسة الانطاكي - فأبصرنا من مبانيها مرأى يعجز الوصف عنه ويقع القطع بأنها اعجب مصانع الدنيا في

المزخرفة جدرها الداخلية ذهب كلها ، وفيها من ألواح الرخام الملون مالم ير مثله قد رصعت كلها بفصوص الذهب . . . » .

واندهش كل من زار بالرم في هذه الحقبة من الزمن كثرة اللغات المختلفة التي تكلمها اهلها ومن اختلاط الأجناس والأديان اختلاطا لا يعكر صفوه ما بينهم من اختلاف المذاهب، وكان بوسع الزائر أن يرى المساجد الإسلامية وقد جاورت الكنائس المسيحية والمعابد الإسرائيلية ، وكانت البلاد كثيرة الشوارع ولها حدائق هادئة وبيوت مريحة ، وشوارع كثيرة الحركة والنشاط .

العمارة :

وكانت فنون الشرق تحتل الصدارة في تزيين القصور والمنازل التي يقيم بها الفاتحون من أهل أوروبا وكانت انوالهم تنسج الأقمشة الحريرية الفاخرة والثياب المطرزة بالذهب. وصنعت الأقداح من العاج وقد حليت بالصور الدقيقة . كما كان الصناع يخطون ارضية المنازل بالفسيفساء وكذلك الجدران والسقوف بالرسومات التي تمثل الموضوعات الشرقية، وكان المهندسون بما فيهم المسلمون يشيدون الكنائس والأديرة والقصور ولا يظهر بها في زخرفتها اثر للطراز الرومانسكي، بل كانت الزخارف تجمع بين ما تركه الطراز البيزنطي أو العربي من اثار الألف عام السابقة . وشيد الفنانون البيزنطيون سنة ١١٤٣ م ديرا للراهبات بأموال وهبها جورج أمير بحرية روجر وأهداه إلى سانتا ماريا ويعرف الآن بالمرتورانا نسبة إلى مؤسسة ، ولم يبق من عناصر هذا الدير إلا القليل بعد ما جدد مرارا . وارض هذا الدير من الرخام البراق المختلف الألوان وتيجان الأعمدة منحوتة نحتا جيلاً وتتلالا الفسيفساء الذهبية في قبة المحراب. وأروع من في هذا الدير نفسه كنيسة القصر كابالابا لاتينا التي بدأها روجر الثاني سنة ١١٣٢م، فهي غاية في الروعة والجمال ويعلو المذبح صورة السيد المسيح ، وتعد من أروع ما في العالم من نقوش الفسيفساء .ويعلو هذا سقف من الخشب على شكل قرص العسل منحوت أو

مذهب أو مرسوم عليه بالألوان صور فيلة وغزلان وملائكة ، وليس في فنون العصور الوسطى أو الحديثة كنيسة ملكية تضارع هذه التحفة الفنية التي كانت تعتبر أثمن جوهرة في صقلية النورمانية .

الحركة العلمية :

كانت صقلية تعتبر مركزاً علمياً اسلامياً لأن أوروبا افاقت من وحشة العصور الوسطى في أواخر القرن الحادي عشر لتجد نفسها امام حضارة اسلامية شامخة البناء، فأخذ أهل أوروبا يقبلون على هذه الحضارة الإسلامية يرتشفون من معينها الفياض ويرتوون من منهلها العذب . وتدفق طلاب العلم الأوروبيين بوجه خاص على الأندلس وصقلية حيث اخذوا يترجمون إلى اللاتينية كل ما استطاعوا ترجمته من الفلسفة والعلوم والرياضيات وغيرها من النشاط الفكري . ومن علماء المسلمين أبو عبدالله الادريسي الذي ولد في سبته عام ١١٠٠ م وتلقى العلم في قرطبة وكتب في بلرمو اجابة لطلب روجر الثاني ملك صقلية كتابه المسمى (نزهة المشتاق في اختراق الأفاق) .

حقيقة أن بعض المعلومات التي ترجمها الغربيون عن العربية كانت يونانية الأصل اخذها العرب عن التراث اليوناني القديم، انما يرجع الفضل للعرب في الحفاظ على هذا التراث وتصحيحه وشرحه حتى اذا ما اندثر التراث اليوناني أو كاد يضيع في فترة العصور المظلمة التي اعقبت سقوط الإمبراطورية في الغرب لم يبق من التراث اليوناني الفكري ـ في كثير من الحالات ـ الا ما هو مسجل في التراجم العربية .

ولكي نلم بفكرة واقعية عن اعمال النورمان في الجنوب يجب أن نأخذ في الإعتبار الدور الذي لعبوه في الحروب الصليبية وفي الشرق الاتيني . ولقد شملت هذه الحركة كل أوروبا الغربية، وقدم النورمان الخدمات الكثيرة للحجاج المتوجهين إلى الشرق وكجنود حاملين الصليب . ومما يذكر أنه كان هناك ثلاثة من الأساقفة النورمان في مؤتمر كليرمونت سنة ١٠٩٥ عندما

، الثاني (١٠٨٨ ـ ١٠٩٩) فكرة الحروب الصليبية في العالم

وعلى أية حال فقد كان البارونات يدينون بالطاعة للكونت روجر لأنه اغدق عليهم العطايا ، وكان ذلك على نقيض الاقطاع الفاحش في ابوليا الذي كان ينظر إلى اسرة هوتوفيل على أنهم قادة وليسوا اسياد . كما كان روجر في مركز يسمح له أن يعالج أمور مملكته بحرية تامة ولا سيما مشاكل الكنيسة، وأن يعيد تنظيم الابرشيات التي اختفت تحت حكم المسلمين .

نهاية حكم أسرة روجر الثاني :

ومات روجر الثاني في سنة ١١٥٤ م وقد بلغ من العمر التاسعة والثلاثين من عمره وخلفه ابنه وليم الأول (١١٥٤ ـ ١١٦٦ م) الذي لقب بالخبيث . ويرجع بعض السبب في هذه التسمية إلى أن سيرته قد كتبها اعدائه والبعض الآخر إلى أنه ترك أمور الحكم لغيره وعاش ماجنا مترفا منعما بين المحاظي والخصيان ، وتمكن مسلمو افريقية في عهده من القضاء على سلطة النورمان في افريقيا بعد ثورة قاموا بها على النورمان في تونس. وخلفه [illegible] ١١٦٦ ـ ١١٨٩ م)،ولم تختلف حياته عن حياة سلفه والقصد من ذلك هو عدم الخلط بين الاسماء . وقد كفر وليم عن خطاياه بانفاق الأموال على دير مونريل وكذلك على بناء كنيسة وكلاهما يقع على بعد خمسة أميال من بالرمو .

ولعل ما انغمس فيه الملوك النورمان في صقلية قد اضعف بنيتهم وقصر اعمارهم وماتت اسرة روجر الثاني ميتة غير شريفة بعد اربعين سنة من موته . واختير بعد وليم الثاني للجلوس على عرش صقلية ابن غير شرعي لأحد ابناء روجر الثاني يدعى تانكرد في سنة ١١٨٩ م . وكان امبراطور المانيا هنري السادس (١١٩٠ ـ ١١٩٧ م) قد تزوج في هذه الفترة من كنستانس ابنة عم وليم الثاني،وكان هنري تواقا إلى توحيد جنوب ايطاليا وصقلية لذلك تحالف

مع بيزا وجنوه اللتين كانت تجارتها تحت السيطرة النورمانية . وتقدم هنري بجيشه ووقف امام بالرمو العاصمة بقوة عظيمة لا تقهر واقتنع اهلها بأن يفتحوا له أبوابها، وتوج ملكاً على صقلية. وخلفه ابنه فريدريك البالغ من العمر ثلاث سنوات والذي أصبح بعد ذلك من أقوى حكام ألمانيا المستبدين وأعظمهم استنارة في القرن الثالث عشر.

الفصل الخامس عشر

الكنيسة والإمبراطورية

الأوضاع السياسية في إيطاليا
مشاكل الكنيسة
الإصلاح الكنسي
الصراع بين هنري الرابع وجريجوري السابع
هنري الخامس وتسوية ورمز
فريدريك بارباروسا والبابوية
هنري السادس وفريدريك الثاني والبابا انوسنت الثالث
أنصار البابوية وأنصار الامبراطورية

الأوضاع السياسية في إيطاليا

تأثرت البابوية كثيرا بالاوضاع السياسية في أوروبا بصفة عامة ، وفي إيطاليا بصفة خاصة باعتبارها مركز البابا . وكلما زاد تصارع القوى السياسية وخاصة في إيطاليا عانت البابوية من تنافس الحكام . وقد وضح ذلك على مدى قرن ونصف من الزمان ابتداء من القرن العاشر . فقد ظهر في إيطاليا في هذه المرحلة أخلاط من الأجناس في الجنوب ، فقد كانت الامبراطورية البيزنطية تسيطر على بعض المواقع ، والمسلمون يتحكمون في مواقع أخرى وفي جزيرة صقلية ، هذا بالاضافة إلى بعض الدوقيات المحلية .

وفي ظل هذه الحالة المضطربة نجح النورمان في إقامة إمارتهم ، ومع بداية حكم روجر الأول Roger I ١٠٨٥ - ١١١١م كان النورمان قد نجحوا في فرض سلطانهم على جزيرة صقلية وأكثر المناطق في الجنوب الايطالي على حساب الممتلكات البيزنطية والاسلامية والأهالي ، وظهرت مملكة الصقليتين التي كانت من أهم المراكز الحضارية في غرب أوروبا في هذه المرحلة .

وفي وسط إيطاليا وجدت بعض الإمارات اللمباردية وبعض الإمارات الأخرى كان أهمها دوقية توسكانيا Tuscany ، وكان حاكمها بونيفاس Boniface من أقوى حكام إيطاليا ومن أكبر أنصار البابوية . وظلت زوجته

Mathilda وهي من الحرب الوثني الالماني على هذه الصورة من القوة ومساندة البابوية في عصر البابا جريجوري السابع ١٠٧٣ - ١٠٨٥م .

أما في شمال إيطاليا فقد ظهرت المدن أو ما يعرف بالقوميونات Communes التي حققت لنفسها نوعا من الاستقلال السياسي القائم على الحرية الاقتصادية ، قد شجع الحكام قيام هذه المدن، لمقاومة النفوذ الاقطاعي . وقد نجحت هذه المدن في دعم استقلالها ومقاومة أي سلطة تتدخل في شؤونها حتى ولو كانت السلطة البابوية . ولعبت هذه المدن دورا هاما في تاريخ إيطاليا .

وبالاضافة الى هذه القوى السياسية كانت هناك القوى الروحية الممثلة في شخص البابا ، وقد سعت البابوية في دعم زعامتها الروحية لتكون زعامة سياسية ، ولكن هذا التحول لا يتحقق إلا بعد أن تكون البابوية قد وصلت إلى درجة من النقاء يجعل لها الكلمة الأخيرة في وسط هذا الخليط السياسي المتضارب الأهواء، وكان عليها أن تصلح من شأنها وتتخلص من عيوبها ومشاكلها حتى يصبح لها السلطان السياسي إلى جانب السمو الروحي .

مشاكل الكنيسة

اهتم شارلمان بالكنيسة وساندها ، ولكنها ما لبث أن تعرضت إلى الضعف بعد نهاية حكم الكارولنجيين، ووصلت إلى مرحلة أصبحت سلطة البابا فيها سلطة رمزية فقط ، ويرجع ذلك إلى عدة عوامل سياسية وإلى البابوية ذاتها ، فقد أهمل الباباوات مسؤوليتهم الدينية مما أعطى الفرصة للحكام لتولي أمر الكنائس الموجودة في ممتلكاتهم، وضاعت وحدة الكنيسة أمام هذا التدخل العلماني في شؤون الكنيسة . ومما لا شك فيه أن تسلط الحكام على أمور الكنيسة أدى إلى تعيين رجال الدين الذين يعملون لمصلحة الدولة أكثر مما يعملون لمصلحة الكنيسة، فاختاروا رجالا غير مؤهلين لمناصب الكنيسة والأديرة، وخرج رجال الدين من سلطان البابا ليصبحوا اقطاعيين في اماكنهم .

وإن كانت هذه الطريقة قد أدت إلى ضعف الكنيسة والبابوية ، فقد كان هناك عاملا هاما أدى إلى اضمحلال البابوية ذاتها ، وهي طريقة انتخاب البابوات . ولعل مرجع ذلك إلى عدم وجود قاعدة دينية يتم اختيار البابا بموجبها . فقد تدخل الحكام والنبلاء ورجال الدين والعامة في اختيار البابا ، كما نظر نبلاء روما وشعبها على أن الانتخاب من حقهم دون سواهم ، ووصل الأمر إلى أن أصبح تعيين البابا بعيدا كل البعد عن الأصول الدينية وغير الدينية ، حتى أننا نرى أن بعض البابوات تولى عرش البابوية وهو في الثانية عشر من عمره مثل البابا بندكت التاسع ١٠٣٢ - ١٠٤٤م ، وليس ذلك فحسب بل إن الفترة الممتدة من ١١٢٤ - ١١٤٤م شاهدت تعيين أكثر من بابا في وقت واحد .

وفضلا عن سيطرة الحكام على شؤون الكنيسة في ممتلكاتهم وضعف البابا ، وجدت مشاكل أخرى خطيرة عانت منها الكنيسة لفترة طويلة من الزمن . وقد ساهمت هذه المشاكل على الهبوط بالكنيسة إلى أدنى مستوى يمكن أن تصل إليه مثل هذه الهيئة الروحية . وقد تجلت هذه المشاكل في الرشوة وزواج رجال الدين والتقليد العلماني .

وفيما يتعلق بالرشوة أو السيمونية ، فإن هذه التسمية جاءت من إحدى روايات الإنجيل وموجزها أن سيمون Simon الساحر حاول إغراء القديس بطرس ببذل المال مقابل أن يبارك له عمله فأجابه القديس بطرس وفقا لما جاء في سفر أعمال الرسل ، الاصحاح الثامن ١٨ - ٢٠ ، « لتكن فضتك معك للهلاك لأنك ظننت أن تقتني موهبة الله بدراهم» . وعلى أية حال فقد انتشرت السيمونية للحصول على المناصب الدينية . وتفسير ذلك أن الأديرة والكنائس جنت ثروات هائلة تطلع اليها رجال الدين عند خلو مناصب شاغليها وتنافس رجال الدين على تقديم الأموال للحكام أو كبار رجال الدين لشغل هذه المناصب .

وعن زواج رجال الدين فيرجع ذلك إلى عدم وجود قانون كنسي واضح يقضي بعدم زواج رجال الدين وهو المعروف بالعزوبة Celibacy ، وإن

كان هناك بعض التشريعات التي اعتبرت العزوبة عادة ديرية حاولت الكنيسة تعميمها على كافة رجال الدين بهدف تطهير النفس والانصراف الى الشؤون الدينية، وحتى لا تصبح ممتلكات الكنيسة وراثية في أبناء رجال الدين

وكانت المشكلة الثالثة هي مشكلة التقليد العلماني Lay Investiture التي كانت نقطة تصادم بين السلطة الروحية والسلطة الزمنية. والتقليد العلماني هو قيام الحكام الزمنيين بتعيين رجال الدين في مناصبهم على العكس ما يقضي به قانون الكنيسة الذي يحتم تعيين رجال الدين عن طريق كبار المسؤولين فيها . ولكن مع ضعف نفوذ الكنيسة تدخل الحكام العلمانيين وقاموا بتعيين رجال الدين على اساس انهم يشغلون مناصب دنيوية إلى جانب مراكزهم الدينية . ومن هنا كان على رجال الدين تقديم ولاءهم للرئيس العلماني عند تولي مناصبهم. ولم يكن ضعف الكنيسة هو السبب في ذلك بل إن الحكام العلمانيين وجدوا في تعيين رجال الدين في المناصب الاقطاعية ضربا للنفوذ الاقطاعي المعادي للسلطة المركزية ، هذا بالاضافة إلى ثقافة رجال الدين التي افتقر إليها الحكام العاديين . والمهم أن عناصر غير أمينة أو غير جديرة بهذه المناصب قد دخلت في السلك الكنسي مما أدى إلى تدهور أوضاع الكنيسة.

— الإصلاح الكنسي

شعر المخلصون للكنيسة بهذه المشاكل وطالبوا بالإصلاح، وبدأت ملامح هذا الاصلاح، وفي منتصف القرن الحادي عشر دخلت الكنيسة مرحلة من النقاء أهلتها لفرض سيطرتها. وكان من المتحمسين لهذا الاصلاح الإمبراطور هنري الثالث (١٠٢٩ ـ ١٠٥٦م ، والبابا ليو التاسع (١٠٤٤ــ ١٠٥٤م) ومن بعده البابا جريجوري السابع ، هذا بالاضافة إلى جماعة رهبان دير كلوني Cluny التي نشأت عام ٩١٠م .

وتدخل الامبراطور هنري لإصلاح الكنيسة وساعده في ذلك ما بلغته الإمبراطورية في عهده من قوة ، وكان تدخل الإمبراطور في انتخاب البابا

بهدف القضاء على تدخل شعب روما في هذا الانتخاب الذي اساءوا إليه كثيرا . وبهذا التدخل قضى الامبراطور على فوضى الاختيار الذي وقع في الربع الثاني من القرن الحادي عشر، وتولى عرش البابا ليو التاسع الذي تعاون مع الامبراطور لاصلاح أحوال الكنيسة .

وانضمت جماعة رهبان كلوني إلى البابا ليو التاسع والإمبراطور هنري الثالث ، ويرجع قيام جماعة ديركلوني إلى عام ٩١٠ في حوض نهر الرون الأعلى حيث أقام وليم التقي دوق اكويتين ديرا في منطقة كلوني .

ولم يكن دير كلوني أول ما انشأ من أديرة في أوروبا، فقد سبقته أنظمة أخرى بدأت قوية ثم تسرب إليها الضعف . وجاء انشاء دير كلوني للقضاء على المشاكل التي أدت إلى ضعف الأنظمة السابقة ، ووضعت أسس سليمة لدير كلوني . ومن هذه الأسس أن يكون لدير كلوني سلطة مركزية على جميع الأديرة الكلونية ويخضع رئيس كلوني للباباشخصيا، وعلى ذلك لم يتدخل رجال الكنيسة الواقع في منطقتهم الدير أو الحكام العلمانيين في هذه الأديرة . ومن هنا كانت الأديرة الكلونية قوة للكنيسة المركزية في روما وساندتها ضد المتدخلين في شؤونها .

كما عمل البابا نيقولا الأول Nicholas I (١٠٥٩ ـ ١٠٦١م) رغم مدته القصيرة على دعم الكنيسة . وفي السنة الأولى التي تولى فيها البابا نيقولا عرش البابوية عقد مجمعا دينيا في روما ووضع القواعد اللازمة لاختيار البابوات . ومن هذه القواعد أن يتم اختيار البابا من بين رجال الدين في كنيسة روما نفسها ، ويمكن اختيار البابا من كنيسة أخرى في حالة عدم تواجد الشخص المناسب في كنيسة روما . وأن يتم اختيار البابا عن طريق كرادلة روما وضواحيها السبع ، ثم يجتمع هؤلاء الكرادلة مع بقية الكرادلة والاساقفة لاقرار الانتخاب . وجاء في هذه القواعد أيضا ما يقطع خط الرجعة على المتدخلين في شؤون الكنيسة ، فقد ورد بها أنه إذا تم اختيار بابا بغير الطريقة القانونية يجب طرد مثل هذا البابا ومن ساعدوه من رحمة الكنيسة .

وقام البابا جريجوري السابع ١٠٧٣ ـ ١٠٨٥م كذلك بدور كبير من أجل رفعة الكنيسة ، وكان جريجوري يهدف إلى تحرير الكنيسة من مشاكلها الداخلية ، وبدأ بعقد مجمع في روما عام ١٠٧٤م من أجل القضاء على الرشوة . وفي هذا المجمع وضع البابا الأسس الكفيلة بالقضاء على هذه المشكلة ،فقد قضت القواعد بفصل أي رجل دين وصل إلى منصبه عن طريق دفع المال ، كما نصت القواعد أيضا بتحريم بيع مناصب رجال الدين بعد تاريخ انعقاد المجلس . كما تطرقت القواعد إلى زواج رجال الدين وحرمت رجال الدين المتزوجين من القاء القداس والمواعظ ، وحرم على الناس الاستماع إليهم .

كما نادى البابا جريجوري السابع بعدم خضوع الكنيسة للسلطة الزمنية ونادى بسمو البابوية على الامبراطورية وهي المشكلة المعروفة باسم التقليد العلماني ، وعمل البابا على تحقيق هذه الغاية ، ويتضح ذلك من المبادىء التي نسبت اليه عام ١٠٩٠م والتي يبدو أنها جمعت بعد وفاته ، وقد اشتملت هذه المبادىء على بنود عديدة تتعلق بمعظم الجوانب المتعلقة بالكنيسة والتي تجعل منها سلطة لا تسمو عليها أية سلطة أخرى. ومن هذه المبادىء أن سلطة البابا وحده هي التي تسمى بحق سلطة عالمية ، وأن يذكر اسم البابا دون سواه في الكنائس ، وأن للبابا حق عزل الأباطرة ، وأن القرارات التي يصدرها البابا لا يمكن لأي فرد الغاءها ، وللبابا الحق في إلغاء القرارات الصادرة من غيره ، وقد ورد بها أيضا أنه لا يستطيع أي إنسان أن يحاكم البابا ، ولا يجوز لأي فرد أن يعتدي على إنسان التجأ إلى البابا .

وكانت مثل هذه المبادىء لا بد أن تؤدي إلى الصدام بين البابوية والامبراطورية ، ولكن البابوية كانت تعتمد على احترام الناس لها ، بالاضافة إلى العقوبات الروحية التي كانت من أشد العقوبات التي يخشاها العالم المسيحي . ومن هذه العقوبات قرار الحرمان من رحمة الكنيسة Excommunication ، وهو قرار يقضي بحرمان من وقع عليه القرار من الاشتراك في قداس الكنيسة وجميع امتيازاتها ، واعتبار الشخص المحروم مطرودا من رحمة الكنيسة ومن مجتمعها . كما كان هناك قرار القطع الجماعي

Interdict ، وبموجب هذا القرار تقفل الكنائس ويدفن الموتى دون صلاة ، ولا يتم تعميد الأطفال ، وتوقف عقود الزواج ، وبمعنى آخر شل حركة الكنيسة في المنطقة التي يفرض عليها هذا القرار .

وعلى هذه الصورة عالجت البابوية مشاكلها الداخلية وأصبحت منذ عهد البابا جريجوري السابع قوة روحية كبيرة معتمدة على رجال الدين المخلصين من القساوسة ورؤساء أديرة كلوني ، وبعض الحكام الزمنيين ، وتبوأت مكانة عالية . ولكن هذا الوضع كان لا بد أن يؤدي إلى الصدام بين البابا وبين الحكام وخاصة الامبراطور الألماني ، فإن معنى تنفيذ قرارات البابا الخاصة بالتقليد العلماني أن تخرج كثير من الاقطاعيات من تبعية الامبراطور لتدخل في تبعية البابا ، وكان في ذلك تهديداً خطيراً للسلطة الامبراطورية أدى إلى الصدام بين السلطتين .

الصراع بين هنري الرابع وجريجوري السابع

كان من الطبيعي بعد حركة إصلاح الكنيسة أن يحدث الصراع بين الامبراطورية والبابوية ، وقد قدر لهذا النزاع أن يستمر لفترة طويلة وأن يكون له نتائج كبيرة على المجتمع الأوربي الغربي في العصور الوسطى ، وليس ذلك فحسب بل إمتد أثره إلى ما بعد العصر الوسيط . وكما سبق أن أوضحنا أن السبب الحقيقي لهذا النزاع يرجع إلى محاولة كل من الامبراطور والبابا أن يفرض أحدهما سلطته على الآخر . وإن كانت البابوية قد نظرت إلى هذا الموضوع من الناحية الروحية ، فإن الإمبراطور كان يرى عدم تدخل البابا في تعيين رجال الدين الذين كانوا عماد الادارة في الامبراطورية ، وأن ولاءهم كان في الدرجة الأولى للامبراطور . ولا يتسع المجال هنا للدخول في تفاصيل كل مراحل هذا النزاع ونكتفي بإلقاء الضوء على بعض نماذج من هذا الصراع بعد ما ألمحنا إليها في الفصول السابقة .

ومن هذه النماذج الصراع بين هنري الرابع ١٠٥٦ ـ ١١٠٥م ، والبابا جريجوري السابع ، والأسباب الحقيقية لهذا الصراع معروفة . ولكن الصراع

الذي بدأ مع هنري الرابع يرجع إلى أن هنري تولى العرش وعمره ست سنوات ، ولعل في صغر سن الامبراطور وما كانت عليه من وصاية أدخلت الامبراطورية في بعض المشاكل الداخلية مما شجع البابا جريجوري على الوقوف في وجه الامبراطور .

ولكن عندما كبر هنري ظهرت قوته ونزعته الاستبدادية في الحكم فاصطدم بالبابا جريجوري . وبدأ الصراع عام ١٠٧٥م - أي بعد سنتين من تولية جريجوري عرش البابوية ١٠٧٣ - ١٠٨٥م - عندما قام هنري الرابع بتعيين رئيس أساقفة مدينة ميلانو وأسقف مدينة فرمو Fermo وأسقف مدينة سبولتو Spoleto . ورد البابا على هذا الاجراء بالتهديد بقرار الحرمان ضد هنري وعزله من منصبه إذا لم يرجع عن قراراته .

ورد الامبراطور هنري الرابع بعقد مجلس في الرابع والعشرين من يناير عام ١٠٧٦م في مدينة ورمز . وقد حضر هذا المجلس جميع الاساقفة الألمان تقريبا . وفي هذا المجلس اتهم الاساقفة الحاضرون البابا بالتدخل في شؤونهم المحلية ، وأرسلوا إلى البابا رسالة بدأت بعبارة الاخ هيلدبراند وهو الإسم الحقيقي للبابا ، ولم يخاطبوه بإسم البابا . كما أرسل الإمبراطور هنري الرابع رسالة أخرى إلى البابا مطلعها « من هنري الملك الشرعي الذي اختاره الله إلى هيلدبراند الذي لا يعتبر البابا بل راهباً مزيفاً » ، وذيل الرسالة بقرارات مجمع ورمز التي تقضي بعزل البابا .

وعقد البابا مجمعا دينيا في روما في الثاني والعشرين من فبراير عام ١٠٧٦م للرد على خطاب الامبراطور هنري ، واصدر هذا المجمع قراراً بعزل الامبراطور لتمرده على الكنيسة ، واعتبار رعاياه في حل من القسم الذي أدوه له ، وحرم على الجميع أن يتعاملوا معه كملك ، وقد أدى ذلك إلى تصدع الامبراطورية ، وارتاع رجال الدين الألمان واتجه بعضهم إلى البابا يعلن ولاءه . كما عقد الأمراء الألمان الذين وجدوا في هذا الموقف فرصة لزيادة نفوذهم اجتماعا في مدينة تريبور Tribur في اكتوبر عام ١٠٧٦م وانحازوا الى

جانب البابا واعلنوا انه في حالة عدم تمكن هنري من رفع قرار حرمانه قبل الثاني والعشرين من فبراير عام ١٠٧٧م ، فإنهم في حل منه كملك وعليهم أن يختاروا ملكا آخر . وقد سرت هذه المواقف البابا لدرجة كبيرة .

اهتز عرش هنري الرابع بعدما انفض من حوله الأساقفة وعاداه النبلاء ، وكان عليه تدارك الأمر قبل فوات الأوان . وقرر هنري التوجه للبابا لطلب الصفح والغفران . والمعلومات الواردة هنا مستمدة من الخطاب الذي أرسله البابا جريجوري السابع إلى الأمراء الألمان في نهاية فبراير عام ١٠٧٧م ، وقد ورد في هذا الخطاب أن الامبراطور وصل أمام أبواب قلعة كانوسا Canossa التي احتمى بها البابا في مقاطعة توسكانيا التابعة للأميرة ماتيلدا ، وذلك في الخامس والعشرين من يناير عام ١٠٧٧م وطلب الاذن لمقابلة البابا .

ولكن البابا لم يجبه إلى طلبه إلا بعد ثلاثة أيام قضاها الامبراطور أمام أبواب القلعة في برد يناير القارس . وقد أوقع حضور هنري البابا في حرج شديد . فالبابا كرجل دين على رأس الكنيسة لا يستطيع أن يرد تائبا عن بابه ، كما أن العفو عن هنري يجعله أقوى مما كان ويعطي له الفرصة لضرب النبلاء الذين ساندوا البابوية ، واخيرا تحكم الجانب الديني على الجانب الدنيوي وعفا البابا عن هنري ، بعدما سار إليه حافي القدمين باكيا وسجد أمامه مقبلا الأرض طالبا الغفران .

ولم يكن هنري جادا في توبته فعاد إلى ألمانيا لينكل بالنبلاء ويعمل على زيادة نفوذه ، وضج النبلاء بأعمال هنري فاتجه بعضهم إلى البابا وحصلوا منه على قرار الحرمان ضد هنري ، وقرار آخر بعزله وتعيين رودلف دوق سوابيا Rudolph Duke of Swabia في مارس ١٠٧٧م ، ولكن هذين القرارين لم ينالا من هنري الذي زاد نفوذه في هذه المرحلة ، هذا بالاضافة إلى أن رودولف لم يتمكن من الوقوف في وجه هنري ، وظلت الفتنة في ألمانيا ثلاث سنوات .

وكرر جريجوري قرار عزل هنري وقرار حرمانه عام ١٠٨٠م ، وحرم

على الأهالي طاعته ، ولكن صدور القرارات وسحبها قد أضاع قوتها وعلى ذلك لم يكن لقرارات البابا قوة فعالة في هذه المرة ، كما مات رودولف في العام نفسه ، ولكن الأمراء عينوا ملكا آخر هو هيرمان اف سالم Herman of Salm ولكنه كان شخصية ضعيفة . وقد أعطى ذلك الفرصة للامبراطور ليتصرف كما يحلو له . كما اجتمع رجال الدين الألمان في مينز Mains وقرروا عزل البابا جريجوري مرة أخرى وساندهم في هذا القرار بعض رجال الدين في إيطاليا ، وعين البابا كلمنت الثالث Clement III (١٠٨٠ - ١١٠٠م) الذي توج هنري إمبراطورا .

وفي عام ١٠٨١م قاد هنري جيشا واتجه إلى إيطاليا ، وحتى عام ١٠٨٤م لم يتمكن هنري من الدخول إلى روما، في الوقت الذي احتمى فيه البابا بقلعة سانت انجلو St-Angelo واستنجد بروبرت جويسكارد Robert Guiscard زعيم النورمان في إيطاليا . وقد استغل النورمان فرصة عودة هنري من روما فدخلوها وعاثوا فيها فسادا بطريقة لم نسمع عنها زمن القوط والوندال عندما دخلوا المدينة، وانسحب النورمان ومعهم البابا الى سالرنو وخلفوا وراءهم سخط العامة على البابا وحلفائه ، وظل البابا في منفاه حتى مات في مايو عام ١٠٨٥م. ورغم نجاح هنري في عزل البابا ، فإنه يمكن القول أن الصراع بين البابوية والامبراطورية لم ينته وسيكون للقوتان جولات أخرى .

هنري الخامس وتسوية ورمز ١١٢٢م

وورث هنري الخامس (١١٠٦ - ١١٢٥م) الامبراطورية عن أبيه ، وورث معها الصراع مع البابوية . وتولى عرش البابوية خلال حكمه عدد من البابوات انشغلوا في هذه المرحلة بأمر الحروب الصليبية ، ولكنهم لم ينسوا حقوقهم التي يمارسها الاباطرة وخاصة مسألة التقليد العلماني . وعندما اعتلى عرش البابوية البابا كالكستس الثاني Calixtus II ١١١٩ - ١١٢٤م،

عمل على تسوية الأمر مع الامبراطور،لأن الصراع بين البابا والامبراطور ليس في مصلحة أي منهما . وبهذه الروح التي أبداها البابا عقدت تسوية ورمز Worms عام ١١٢٢م . وبموجب هذه الاتفاقية أصبح للبابا حق تعيين رجال الدين في مناصبهم باعتبارهم رؤساء في الكنيسة ، وباعتبار رجال الدين هؤلاء يتولون مناصب علمانية باعتبارهم من الاقطاعيين فعليهم أن يقدموا ولاءهم للامبراطور باعتبارهم إقطاعيين . وكانت هذه التسوية في صالح البابوية أكثر من الامبراطور ، لأن رجال الدين الذين قدموا الولاء للامبراطور هم الذين تسلموا أراضي إقطاعية، وليس كل رجال الدين من الإقطاعيين، وعلى ذلك خرج بعض رجال الدين من سلطان الامبراطور.

ولكن هذه التسوية رغم اهميتها لم توقف تنافس القوتين على السيادة ، خاصة وأن البابوية قد ظهرت قوتها في هذه المرحلة بشكل واضح من جراء الحروب الصليبية التي أظهرت البابوية كأقوى سلطة في العالم الأوروبي الغربي ، كما أن بعض النبلاء في ألمانيا بعد اتفاقية وورمز عملوا على توسيع رقعة نفوذهم مما أدى في النهاية إلى زيادة قوة الاقطاع في الوقت الذي وقف البعض إلى جانب الامبراطور ، وأدى ذلك إلى ظهور حزب الجبليين الموالي للامبراطور وحزب الجولفيين الموالي للبابا كما سبق أن أوضحنا .

فريدريك بارباروسا والبابوية

وساندت ايطاليا حزب الجولفيين ، وكان على الامبراطور فريدريك بارباروسا (١١٥٢ - ١١٩٠م) القيام بعدة حملات على ايطاليا للقضاء على انصار البابوية المتمثلة في المدن اللمباردية . وظلت الحرب لفترة طويلة انتهت بانتصار فريدريك باربروسا في اغسطس عام ١١٧٦م ودخل روما ، ولكن فريدريك هزم في العام نفسه في معركة ليناتو، وقد جعلت هذه الهزيمة فريدريك يجنح إلى السلم والتفاوض مع البابوية . وكان على الامبراطور ان يقدم فروض الولاء والطاعة للبابا ويطلب الصفح والغفران من البابا الكسندر الثالث ١١٥٩ - ١١٨٤م .

وانتقل البابا الى البندقية ودخل عليه الامبراطور في كنيسة القديس مرقص بعدما عزل الامبراطور البابا غير الشرعي ، فقد كان فريدريك عين ثلاث باباوات غير شرعيين منذ عام ١١٥٩ حتى عام ١١٧٧م، وهم فيكتور الرابع ١١٥٩ - ١١٦٤، باسكال الثالث Paschal III ١١٦٤ - ١١٦٨، كالكستس الثالث ١١٦٨ - ١١٧٨م. وفي كنيسة القديس مرقص قدم فريدريك فروض الولاء والطاعة وطلب الصفح والغفران من البابا مثلما تم في كانوسا قبل مائة عام . وعقدت اتفاقية بين البابا والامبراطور في عام ١١٧٧م عرفت باسم اتفاقية البندقية ، ولم يضف هذا الصلح شيئا جديدا الى بنود اتفاقية وورمز فيما يتعلق بالتقليد العلماني ، ولكنها اضافت صلحا بين الامبراطور والعصبية اللمباردية مدته ست سنوات ، وصلحا مع وليم الثاني النورماني مدته خمسة عشر سنة .

- هنري السادس وفريدريك الثاني والبابا أنوسنت

وورث هنري السادس الإمبراطورية والالتزام بتنفيذ اتفاقية البندقية ، وكان هنري السادس (١١٩٠ - ١١٩٧م) قد تزوج من كونستانس وريثة عرش الصقليتين ، ولما كان هنري متحمسا لفكرة الامبراطورية العالمية فقد استغل مركز زوجته ليتدخل بنفوذه في إيطاليا وهو الأمر الذي لا ترضى به البابوية ، ولكن قصر عهد هنري لم يجر الامبراطورية الى صراع مع البابوية . وعندما توفي هنري عام ١١٩٧م كان المفروض أن يرثه ابنه فريدريك المعروف بالثاني ولكن فريدريك كان صغيرا فآثرت أمه الانسحاب الى صقلية ووضعت نفسها وابنها تحت حماية البابا إنوسنت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦م) .

وساعدت الظروف البابا انوسنت على فرض كلمته على العالم الغربي ، فقد كان رجلا قويا مثقفا في اللاهوت والقانون ، واسع الآمال طموحا وهو الذي كان يرى أن البابا أقل من الرب منزلة وأرفع من الإنسان ، وأن الحكام الزمنيين مجرد عمال البابا وأتباعه يدينون له بالطاعة . ولما اشتد النزاع بين

الامراء الألمان ، أسرع أوتو وطلب التاج الامبراطوري رغم عدم أحقيته فمنحه له البابا نظير الولاء والتبعة ، وعندما تمرد عليه أصدر ضده قرار الحرمان الذي كان سبباً في عزله ، وولى مكانه فريدريك مربيه وصانعه .

وعندما قامت الحرب بين فرنسا وانجلترا انضمت ألمانيا إلى انجلترا ، ولما كان البابا غاضباً على الملك الانجليزي يوحنا فقد ساعد فرنسا التي انتصرت في معركة بوفين ١٢١٤ م ، وهي المعركة التي اضطر بعدها الملك الانجليزي يوحنا أن يسلم للاقطاع وثيقة العهد الأعظم ، كما سبق واستسلم للبابا عام ١٢١٣ م بعدما أصدر البابا ضده قرار الحرمان .

وإذا كان البابا أنوسنت قد أيد فرنسا ضد انجلترا فإن ذلك لا يعني أن فرنسا كانت بمنأى عن عقوبات البابا ، فإن فرنسا لم تنصاع لأوامر البابابوية ، لذلك أصدر البابا قرار الحرمان ضد الملك الفرنسي فيليب أوغسطس عام ١٢٠٠ م بسبب زواجه الثاني، وقاوم الملك في أول الأمر ولكنه استسلم في العام التالي وأعاد زوجته الأولى .

من ذلك كله يتضح أن البابا أنوسنت الثالث نجح في فرض سلطانه على انجلترا ، وقراراته على فرنسا ، وإرادته على ألمانيا ، وكان في ذلك كله نصراً للبابابوية . ولكن هذا النصر كان نصراً مصطنعاً، فقد أخرج البابابوية عن رسالتها واستعملت قوتها في ضرب السلطة الزمنية ، ولكن تطور الأحداث ونمو الروح الديمقراطية والدساتير والبرلمانات أنهى تسيد البابوية على السلطة الزمنية .

وعلى أية حال فالمهم هنا أن هذا الصراع قد شطر العالم الغربي شطرين أحدهما يساند البابابوية ويدعمها، والآخر يناصر الامبراطورية ويقويها . وكان لكل فريق حججه التي نادى بها وآراءه التي دافع عنها وظهرت بعض النظريات لكل الفريقين .

أنصار البابوية وأنصار الامبراطورية

ونادى بعض أنصار البابوية بنظرية الوحدة ، وتقضي هذه النظرية بأن

العالم وحدة واحدة ، دينه المسيحية ولغته اللاتينية ، وحكومته الاقطاع ، ويتولى البابا أمر الجانب الديني ، والامبراطور الجانب الحكومي . ولما كان الجانب الديني هو الجانب الرئيسي أصبح البابا أعلى مرتبة في السلطة والنفوذ . ويبدو أن دعاة هذه النظرية اعتمدوا على القانون الطبيعي بالطريقة التي فهمها أرسطو الذي قال أن القانون الطبيعي يحتم خضوع الكائنات الدنيا إلى العليا ، كما استعانوا أيضاً بأقوال القديس أوغسطين St. Augustine (٣٥٤ - ٤٣٠ م) الذي قال أن الدولة ليست شيئاً مقدساً ، وإنما القداسة للكنيسة . وترتب على هذه النظرية أن الروح أعلى مقاماً من المادة ، ولهذا فالبابا أسمى مقاماً من الإمبراطور وعلى الأخير أن يلتزم بأوامره ويخضع لسلطانه .

كما استعان أنصار البابوية بنظرية أخرى هي نظرية السيفين ومفهوم هذه النظرية أن الرب ملك الدين والدنيا وبيده سيفان أحدهما يمثل السلطان على الأرواح ويعتمد على القداسة ، والآخر على الأجساد وقائم على الحكومة الدنيوية . وبعد انتشار المسيحية في العالم على يد تلاميذ السيد المسيح بصفة عامة ، وفي روما على يد القديس بطرس بصفة خاصة ، سلم القديس بطرس سيف الأرواح للبابا وسيف الأجساد للإمبراطور . ولما كان السيف الأول يتفوق على الثاني كما تتفوق الأرواح على الأجساد ، فمن الطبيعي أن يتسيد البابا على الامبراطور .

وكان من أهم من نادوا بهذه النظرية العالم الانجليزي يوحنا أف سالسبوري John of Salisbury الذي مات أسقفاً لمدينة شارتر Chartres عام ١١٨٠ م . وقد اعتمد يوحنا على القانون الروماني مستشهداً بالمبدأ الروماني الذي ينص على أن من يملك حق إعطاء السلطة يملك أيضاً حق استعادتها . وعلى ذلك يكون للبابا السيطرة على الامبراطور ، وهو الذي يعينه وهو الذي يعزله .

كما ذهب بعض أنصار البابوية إلى أبعد من ذلك وابتدعوا بدعة تعرف بهبة قسطنطين Donation of Constantine ، وموجز هذه البدعة أن

الإمبراطور قسطنطين الأول مرض بمرض مستعصي ، ولم يشف منه إلا بدعاء البابا ، فكافأه الامبراطور بإصدار مرسوم يمنحه ملكية إيطاليا وسمح له بلبس التاج والعباءة الامبراطورية ، كما منح أساقفة الكنيسة امتيازات مجلس السناتو (الشيوخ) ، وترك للبابا الحرية التامة في إيطاليا . وأن الامبراطور قسطنطين غادر روما واتجه إلى القسطنطينية ليعيش فيها واتخذها عاصمة للامبراطورية . ورغم أن هذه الأسطورة لا تستند إلى الحقيقة في شيء من الوجهة التاريخية وثبت زيفها في القرن الخامس عشر الميلادي ، ولكنها كانت تؤثر على تفكير أوروبا أثناء الصراع بين الامبراطورية والباباوية ، وكانت جزءاً من القانون الكنسي واعتمد عليها البابا جريجوري السابع والبابا إنوسنت الثالث . ورغم أن هذه الفكرة تجعل من الذي أعطى ـ وهو قسطنطين ـ سيداً على آخذ العطية ـ وهو البابا ـ إلا أنها روجت لصالح البابوية .

وظهرت للبابا إنوسنت الثالث آراء وأقوال إعتمد عليها البعض في الدفاع عن حق البابوية ضد الامبراطورية ، ومما قاله إنوسنت الثالث أن البابا خليفة الرب Vicar of Christ والقديس بطرس على الأرض وبيده مفاتيح مملكة السماء ، وأن ما يفتقده الإنسان على الأرض سوف يفقده في السماء ، وأن خليفة القديس بطرس هو الوسيط بين الإنسان والرب ، وهو أقل من الرب ولكنه أرفع منزلة من الإنسان ، وهو يحاكم الجميع ولا يحاكمه أحد .

من ذلك كله يتضح أن أنصار البابوية رأوا أن البابا هو خليفة الرب والقديس بطرس وهو ظل الرب على الأرض وله سلطان الدنيا والدين ، وأن الدولة ليست شيئاً مقدساً وإنما الكنيسة هي المقدسة ، وأن خضوع الامبراطور للبابا أمر واجب دينياً

وكما كان هناك متحمسون للبابا كان يوجد أيضاً مدافعون عن الإمبراطورية وقامت آراء بعض هؤلاء على نظرية السيفين ، ولكن بطريقة عكسية ، فقد رأى اتباع هذه النظرية أن الامبراطور يستمد سلطانه من الرب ولا يمكن عزله إلا إذا أتى أعمالاً مخالفة للعقيدة المسيحية . ومن أبرز أنصار هذا الرأي الأسقف هينكمار Hincmar رئيس أساقفة مدينة ريمس Rheims

الذي عاش في القرن التاسع الميلادي ، وكان من أكبر المتحمسين من قبل إلى تسيد السلطة البابوية . ومن أفكار أصحاب هذا الرأي أن صاحب السلطة لا يسأل إلا أمام الرب . واعتمدوا أيضاً على بعض سوابق تاريخية في إيضاح سمو السلطة الامبراطورية . واستعانوا أيضاً ببعض أقوال شارلمان ومنها « أنه سيد وأب ، وأنه ملك وكاهن ، وأنه زعيم المسيحيين ومرشدهم جميعاً » . ومما قاله أيضاً للبابا ليو الثالث بأن « وظيفة الملك كائناً ما كان هو أن يحكم بين الناس وأن يدافع عن الكنيسة وأن واجب البابا هو أن يصلي ويبارك ويدعو لصاحب هذه الوظيفة » .

وبرز بين الفريقين فريق ثالث وقف موقفاً وسطاً بين أنصار البابوية وأنصار الإمبراطورية حتى يجنبوا العالم الأوروبي الغربي ويلات هذا الصراع ورفعوا شعار « إعط ما لله لله وما لقيصر لقيصر » .

المَلاحَق

البابوات والحكام

جدول (١)

البابوات في روما(١)

٣١٤ ـ ٣٣٥ سلفستر الأول
٣٣٦ مارك
٣٣٧ ـ ٣٥٢ جوليوس الأول
٣٥٢ ـ ٣٦٦ ليبريوس
٣٥٥ ـ ٣٥٦ (فيلكس الثاني)
٣٦٦ ـ ٣٨٤ داماسوس الأول
٣٦٦ ـ ٣٦٧ (أورسكيتوس)
٣٨٤ ـ ٣٩٩ سيركيوس
٣٩٩ ـ ٤٠١ أنسطيوس الأول
٤٠٢ ـ ٤١٧ أنوسنت الأول
٤١٧ ـ ٤١٨ زوسيموس
٤١٨ ـ ٤٢٢ بونيفاس الأول
٤١٨ ـ ٤١٩ (أبولاليوس)
٤٢٢ ـ ٤٣٢ كلستين الأول
٤٣٢ ـ ٤٤٠ سكستوس الثالث
٤٤٠ ـ ٤٦١ ليو الأول
٤٦١ ـ ٤٦٨ هيلاري
٤٦٨ ـ ٤٨٣ سمبلكيوس
٤٨٣ ـ ٤٩٢ فيلكس الثالث
٤٩٢ ـ ٤٩٦ جلاسيوس الأول
٤٩٦ ـ ٤٩٨ أنسطيوس الثاني
٤٩٨ ـ ٥١٤ سماخوس
٤٩٨ ـ ٥٠٥ (لاور نتيوس)
٥١٤ ـ ٥٢٣ هورميسداس
٥٢٣ ـ ٥٢٦ حنا الأول
٥٢٦ ـ ٥٣٠ فيلكس الرابع
٥٣٠ ـ ٥٣٢ بونيفاس الثاني
٥٣٠ ـ (ديوسكوروس)
٥٣٢ ـ ٥٣٥ حنا الثاني
٥٣٥ ـ ٥٣٦ أجابيتوس الأول
٥٣٦ ـ ٥٣٨ سلفريوس
٥٣٨ ـ ٥٥٥ فجليوس

(١) وضعت أسماء البابوات غير الشرعيين بين أقواس.

٥٥٥ - ٥٦١ بلاجيوس الأول
٥٦١ - ٥٧٤ حنا الثالث
٥٧٥ - ٥٧٩ بندكت الأول
٥٧٩ - ٥٩٠ بلاجيوس الثاني
٥٩٠ - ٦٠٤ جريجوري الأول
٦٠٤ - ٦٠٦ سبنيان
٦٠٧ - بونيفاس الثالث
٦٠٨ - ٦١٥ بونيفاس الرابع
٦١٥ - ٦١٨ ديوسدديت الأول
٦١٩ - ٦٢٥ بونيفاس الخامس
٦٢٥ - ٦٣٨ هونوريوس الأول
٦٤٠ - سفرينوس
٦٤٠ - ٦٤٢ حنا الرابع
٦٤٢ - ٦٤٩ ثيودور الأول
٦٤٩ - ٦٥٥ مارتن الأول
٦٥٥ - ٦٥٧ يوجين الأول
٦٥٧ - ٦٧٢ فيتاليان
٦٧٢ - ٦٧٦ ديوسديت الثاني
٦٧٦ - ٦٧٨ دونس
٦٧٨ - ٦٨١ أجاثون
٦٨٢ - ٦٨٣ ليو الثاني
٦٨٤ - ٦٨٥ بندكت الثاني
٦٨٥ - ٦٨٦ حنا الخامس
٦٨٦ - ٦٨٧ كونون
٦٨٦ - ٦٨٧ (ثيودور)
٦٨٧ - ٧٠١ سرجيوس الأول
٦٨٧ - ٦٨٨ (بلسكال)

٧٠١ - ٧٠٥ حنا السادس
٧٠٥ - ٧٠٧ حنا السابع
٧٠٨ - سيسنيوس
٧٠٨ - ٧١٥ قسطنطين
٧١٥ - ٧٣١ جريجوري الثاني
٧٣١ - ٧٤١ جريجوري الثالث
٧٤١ - ٧٥٢ زكريا
٧٥٢ - سطفن الثاني
٧٥٢ - ٧٥٧ سطفن الثالث (الثاني)
٧٥٧ - ٧٦٧ بولس الأول
٧٦٧ - ٧٦٨ (قسطنطين الثاني)
٧٦٨ - ٧٧٢ سطفن الرابع (الثالث)
٧٧٢ - ٧٩٥ هدريان الأول
٧٩٥ - ٨١٦ ليو الثالث
٨١٦ - ٨١٧ سطفن الخامس (الرابع)
٨١٧ - ٨٢٤ بلسكال الأول
٨٢٤ - ٨٢٧ يوجين الثاني
٨٢٧ - فالنتين
٨٢٧ - ٨٤٤ جريجوري الرابع
٨٤٤ - ٨٤٧ سرجيوس الثاني
٨٤٧ - ٨٥٥ ليو الرابع
٨٥٥ - ٨٥٨ بندكت الثالث
٨٥٥ - (أنسطسيوس)
٨٥٨ - ٨٦٧ نيقولا الأول
٨٦٧ - ٨٧٢ هدريان الثاني
٨٧٢ - ٨٨٢ حنا الثامن
٨٨٢ - ٨٨٤ مارينوس الأول

٨٨٤ ـ ٨٨٥ هدريان الثالث
٨٨٥ ـ ٨٩١ ستفن السادس (الخامس)
٨٩١ ـ ٨٩٦ فورموزس
٨٩٦ ـ بونيفاس السادس
٨٩٦ ـ ٨٩٧ ستفن السابع (السادس)
٨٩٧ ـ رومانوس
٨٩٧ ـ ثيودور الثاني
٨٩٨ ـ ٩٠٠ حنا التاسع
٩٠٠ ـ ٩٠٣ بندكت الرابع
٩٠٣ ـ ليو الخامس
٩٠٣ ـ (كرستوفر)
٩٠٤ ـ ٩١١ سرجيوس الثالث
٩١١ ـ ٩١٣ أنسطيوس الثالث
٩١٣ ـ ٩١٤ لاندو
٩١٤ ـ ٩٢٨ حنا العاشر
٩٢٨ ـ ليو السادس
٩٢٩ ـ ٩٣١ ستفن الثامن (السابع)
٩٣١ ـ ٩٣٥ حنا الحادي عشر
٩٣٦ ـ ٩٣٩ ليو السابع
٩٣٩ ـ ٩٤٢ ستفن التاسع (الثامن)
٩٤٢ ـ ٩٤٦ مارينوس الثاني
٩٤٦ ـ ٩٥٥ أجابيتوس الثاني
٩٥٥ ـ ٩٦٤ حنا الثاني عشر
٩٦٣ ـ ٩٦٥ ليو الثامن
٩٦٤ ـ ٩٦٦ بندكت الخامس
٩٦٥ ـ ٩٧٢ حنا الثالث عشر
٩٧٣ ـ ٩٧٤ بندكت السادس
٩٧٤ ، ٩٨٤ ـ ٩٨٥ (بونيفاس السابع)
٩٧٤ ـ ٩٨٣ بندكت السابع
٩٨٢ ـ ٩٨٤ حنا الرابع عشر
٩٨٥ ـ ٩٩٦ حنا الخامس عشر
٩٩٦ ـ ٩٩٩ جريجوري الخامس
٩٩٧ ـ ٩٩٨ (حنا السادس عشر)
٩٩٩ ـ ١٠٠٣ سلفستر الثاني
١٠٠٣ ـ حنا السابع عشر
١٠٠٤ ـ ١٠٠٩ الثامن عشر
١٠٠٩ ـ ١٠١٢ سرجيوس الرابع
١٠١٢ ـ ١٠٢٤ بندكت الثامن
١٠١٢ ـ (جريجوري)
١٠٢٤ ـ ١٠٣٢ حنا التاسع عشر
١٠٣٢ ـ ١٠٤٤ بندكت التاسع
١٠٤٥ ـ سلفستر الثالث
١٠٤٥ ـ بندكت التاسع
١٠٤٥ ـ ١٠٤٦ جريجوري السادس
١٠٤٦ ـ ١٠٤٧ كلمنت الثاني
١٠٤٧ ـ ١٠٤٨ بندكت التاسع
١٠٤٨ ـ داماسوس الثاني
١٠٤٨ ـ ١٠٥٤ ليو التاسع
١٠٥٤ ـ ١٠٥٧ فكتور الثاني

١٠٥٧ ـ ١٠٥٨ ستفن العاشر
١٠٥٨ ـ ١٠٥٩ (بندكت العاشر)
١٠٥٧ ـ ١٠٦١ نيقولا الثاني
١٠٦١ ـ ١٠٧٣ اسكندر الثاني
١٠٦١ ـ ١٠٧٣ (هونوريوس)
١٠٧٣ ـ ١٠٨٥ جريجوري السابع
١٠٨٠ ـ ١١٠٠ (كامنت الثالث)
١٠٨٧ ـ فكتور الثالث
١٠٨٨ ـ ١٠٩٩ أوربان الثاني
١٠٩٩ ـ ١١١٨ باسكال الثاني
١١٠٠ ـ (ثيودريك)
١١٠٢ ـ (ألبرت)
١١٠٥ ـ ١١١١ (سلفستر الرابع)
١١١٨ ـ ١١١٩ جلاسيوس الثاني
١١١٨ ـ ١١٢١ (جريجوري الثامن)
١١١٩ ـ ١١٢٤ كالكستس
١١٢٤ ـ ١١٣٠ هونوريوس الثاني
١١٢٤ ـ (كلستين الثاني)
١١٣٠ ـ ١١٤٣ انوسنت الثاني
١١٣٠ ـ ١١٣٨ (أناكليتوس الثاني)
١١٣٨ ـ (فكتور الرابع)
١١٤٣ ـ ١١٤٤ كلستين الثاني
١١٤٤ ـ ١١٤٥ لوكيوس الثاني
١١٤٥ ـ ١١٥٣ يوجين الثالث
١١٥٣ ـ ١١٥٤ أنسطسيوس الرابع
١١٥٤ ـ ١١٥٩ هدريان الرابع
١١٥٩ ـ ١١٨٤ اسكندر الثالث

١١٥٩ ـ ١١٦٤ (فكتور الرابع)
١١٦٤ ـ ١١٦٨ (باسكال الثالث)
١١٦٨ ـ ١١٧٨ (كالكستس الثالث)
١١٧٩ ـ ١١٨٠ (انوسنت الثالث)
١١٨١ ـ ١١٨٥ لوكيوس الثالث
١١٨٥ ـ ١١٨٧ أوربان الثالث
١١٨٧ ـ جريجوري الثامن
١١٨٧ ـ ١١٩١ كلمنت الثالث
١١٩١ ـ ١١٩٨ كلستين الثالث
١١٩٨ ـ ١٢١٦ انوسنت الثالث
١٢١٦ ـ ١٢٢٧ هونوريوس الثالث
١٢٢٧ ـ ١٢٤٠ جريجوري التاسع
١٢٤١ ـ ١٢٦٤ كلستين الرابع
١٢٤٣ ـ ١٢٥٤ انوسنت الرابع
١٢٥٤ ـ ١٢٦١ اسكندر الرابع
١٢٦١ ـ ١٢٦٤ أوربان الرابع
١٢٦٥ ـ ١٢٦٨ كلمنت الرابع
١٢٧١ ـ ١٢٧٦ جريجوري العاشر
١٢٧٦ ـ انوسنت الخامس
١٢٧٦ ـ هدريان الخامس
١٢٧٦ ـ ١٢٧٧ حنا الواحد والعشرون
١٢٧٧ ـ ١٢٨٠ نيقولا الثالث
١٢٨١ ـ ١٢٨٥ مارتن الرابع
١٢٨٥ ـ ١٢٨٧ هونوريوس الرابع
١٢٨٨ ـ ١٢٩٢ نقولا الرابع
١٢٩٤ ـ كلستين الخامس
١٢٩٤ ـ ١٣٠٣ بونيفاس الثامن

١٣٠٣ ـ ١٣٠٤ بندكت الحادي عشر
١٣٠٥ ـ ١٣١٤ كلمنت الخامس
١٣١٦ ـ ١٣٣٤ حنا الثاني والعشرون
١٣٢٨ ـ ١٣٣٠ (نيقولا الخامس)
١٣٣٤ ـ ١٣٤٢ بندكت الثاني عشر
١٣٤٢ ـ ١٣٥٢ كلمنت السادس
١٣٥٢ ـ ١٣٦٢ انوسنت السادس
١٣٦٢ ـ ١٣٧٠ أوربان الخامس
١٣٧٠ ـ ١٣٧٨ جريجوري الحادي عشر

الإنشقاق الديني الأكبر

(١) بابوات روما

١٣٧٨ ـ ١٣٨٩ أوربان السادس
١٣٨٩ ـ ١٤٠٤ بونيفاس التاسع
١٤٠٤ ـ ١٤٠٦ انوسنت السابع
١٤٠٦ ـ ١٤١٥ جريجوري الثاني عشر

(٢) بابوات أفينون

١٣٧٨ ! ١٣٩٤ كلمنت السابع
١٣٩٤ ـ ١٤٢٢ بندكت الثالث عشر

(٣) بابوات مجمع بيزا

١٤٠٩ ـ ١٤١٠ اسكندر الخامس
١٤١٠ ـ ١٤١٥ حنا الثالث والعشرون

***

١٤١٧ ـ ١٤٣١ مارتن الخامس
١٤٣١ ـ ١٤٤٧ يوجين الرابع
١٤٤٧ ـ ١٤٥٥ نيقولا الخامس
١٤٥٥ ـ ١٤٥٨ كالكستس الثالث
١٤٥٨ ـ ١٤٦٤ بيوس الثاني
١٤٦٤ ـ ١٤٧١ بولس الثاني
١٤٧١ ـ ١٤٨٤ سكستوس الرابع
١٤٨٤ ـ ١٤٩٢ انوسنت الثامن
١٤٩٢ ـ ١٥٠٣ اسكندر السادس

جدول (٢)

الأباطرة البيزنطيون

أسرة قسطنطين

	ميلادية
قسطنطين الأول (الكبير)	٣٠٦ ـ ٣٣٧
قسطنطيوس	٣٣٧ ـ ٣٦١
جوليان (يوليان)	٣٦١ ـ ٣٦٣
جوفيان	٣٦٣ ـ ٣٦٤
فالنز	٣٦٤ ـ ٣٧٨

أسرة ثيودوسيوس

ثيودوسيوس الأول (الكبير)	٣٧٩ ـ ٣٩٥
أركاديوس	٣٩٥ ـ ٤٠٨
ثيودوسيوس الثاني	٤٠٨ ـ ٤٥٠
مارقيان	٤٥٠ ـ ٤٥٧
ليو الأول	٤٥٧ ـ ٤٧٤
زينو	٤٧٤ ـ ٤٩١
أناستاس	٤٩١ ـ ٥١٨

أسرة جستنيان

جستن الأول	٥١٨ ـ ٥٢٧

	ميلادية
جستنيان الأول	٥٢٧ ـ ٥٦٥
جستن الثاني	٥٦٥ ـ ٥٧٨
طيبريوس الأول	٥٧٨ ـ ٥٨٢
موريس	٥٨٢ ـ ٦٠٢
فوقاس (مغتصب)	٦٠٢ ـ ٦١٠

أسرة هرقل

هرقل	٦١٠ ـ ٦٤١
قسطنطين الثالث	٦٤١ ـ ٦٤٢
قنسطانز الثاني	٦٤٢ ـ ٦٦٨
قسطنطين الرابع (بوجوناتوس)	٦٦٨ ـ ٦٨٥
جستنيان الثاني	٦٨٥ ـ ٦٩٥
ليونتيوس (مغتصب)	٦٩٥ ـ ٦٩٨
طيبريوس الثاني	٦٩٨ ـ ٧٠٥
جستنيان الثاني (عودته)	٧٠٥ ـ ٧١١
فيليبكوس	٧١١ ـ ٧١٣
أناستاس الثاني	٧١٣ ـ ٧١٦
ثيودوسيوس الثالث	٧١٦ ـ ٧١٧

الأسرة الأيسورية

ليو الثالث	٧١٧ ـ ٧٤١
قسطنطين الخامس	٧٤١ ـ ٧٧٥
ليو الرابع	٧٧٥ ـ ٧٨٠
قسطنطين السادس	٧٨٠ ـ ٧٩٧
إيرين	٧٩٧ ـ ٨٠٢

خلفاء الأيسوريين

نقفور الأول (مغتصب)	٨٠٢ ـ ٨١١

	ميلادية
ستوراكيوس	٨١١ -
ميخائيل الأول	٨١١ - ٨١٣
ليو الخامس الأرمني	٨١٣ - ٨٢٠
الأسرة العمورية	
ميخائيل الثاني	٨٢٠ - ٨٢٩
ثيوفيلوس	٨٢٩ - ٨٤٢
ميخائيل الثالث (السكير)	٨٤٢ - ٨٦٧
الأسرة المقدونية	
باسيل الأول	٨٦٧ - ٨٨٦
ليو السادس (الحكيم)	٨٨٦ - ٩١٢
الكسندر	٩١٢ - ٩١٣
قسطنطين السابع بورفير وجنيتوس	٩١٣ - ٩٥٩
(اشترك معه رومانوس الأول ليكابينوس المغتصب من ٩١٩ - ٩٤٤)	
رومانوس الثاني	٩٥٩ - ٩٦٢
نقفور فوقاس	٩٦٣ - ٩٦٩
يوحنا الأول تزيمسكس	٩٦٩ - ٩٧٦
باسيل الثاني (سفاح البلغار)	٩٧٦ - ١٠٢٥
قسطنطين الثامن	١٠٢٥ - ١٠٢٨
زوي	١٠٢٨ - ١٠٥٠
اشترك معها في الحكم أزواجها وهم :	
- رومانوس الثالث (أرجيروس)	١٠٢٨ - ١٠٣٤
- ميخائيل الرابع (البلافلاجوني)	١٠٣٤ - ١٠٤١
- ميخائيل الخامس (قلفات)	١٠٤١ - ١٠٤٢
- قسطنطين التاسع مونوماخوس	١٠٤٢ - ١٠٥٤
ثيودورا	١٠٥٤ - ١٠٥٦

ميلادية

ميخائيل السادس (ستراتيو تيكوس) ١٠٥٦ ـ ١٠٥٧

أسرة دوكاس وآل كومنين

إسحق الأول كومنين ١٠٥٧ ـ ١٠٥٩

قسطنطين العاشر (دوكاس) ١٠٥٩ ـ ١٠٦٧

رومانوس الرابع (ديوجينس) ١٠٦٧ ـ ١٠٧١

ميخائيل السابع (دوكاس) ١٠٧١ ـ ١٠٧٨

نقفور الثالث (بوتانياتس) (مغتصب) ١٠٧٨ ـ ١٠٨١

الكسيوس الأول (كومنين) ١٠٨١ ـ ١١١٨

يوحنا الثاني (كومنين) ١١١٨ ـ ١١٤٣

مانويل الأول (كومنين) ١١٤٣ ـ ١١٨٠

الكسيوس الثاني (كومنين) ١١٨٠ ـ ١١٨٣

اندرونيقوس الأول (كومنين) ١١٨٣ ـ ١١٨٥

أسرة انجيلي

إسحق الثاني ١١٨٥ ـ ١١٩٥

الكسيوس الثالث ١١٩٥ ـ ١٢٠٣

إسحق الثاني (عودته واشتراكه مع ابنه الكسيوس ١٢٠٣ ـ ١٢٠٤

الرابع) ـ ١٢٠٤

الكسيوس الرابع (مورتزفلوس)

الأباطرة اللاتين في القسطنطينية

بولدوين أمير الفلاندر ١٠٢٤ ـ ١٢٠٥

هنري أمير الفلاندر ١٠٢٦ ـ ١٢١٦

بطرس كورتناي ـ ١٢١٧

يولندا ١٢١٧ ـ ١٢١٩

روبرت الثاني (كورتناي) ١٢٢١ ـ ١٢٢٨

ميلادية	
بولدوين الثاني	١٢٢٨ ـ ١٢٦١
(تحت وصاية يوحنا دي برين ، ممارسة بولدوين للسلطة بمفرده ١٢٤٠ ـ ١٢٦١) .	١٢٢٩ ـ ١٢٣٧

أباطرة نيقية البيزنطيون

ثيودور الأول لاسكاريس	١٠٢٤ ـ ١٢٢٢
يوحنا الثالث فاتاتزيس	١٢٢٢ ـ ١٢٥٣
ثيودور الثاني لاسكاريس	١٢٥٤ ـ ١٢٥٨
يوحنا الرابع لاسكاريس	١٢٥٨ ـ ١٢٥٩
ميخائيل الثامن باليولوج (مغتصب)	١٢٥٩ ـ ١٢٦١

أسرة آل باليولوج

ميخائيل الثامن	١٢٦١ ـ ١٢٨٢
أندرو نيقوس الثاني	١٢٨٢ ـ ١٢٢٨
(بالاشتراك مع ابنه ميخائيل التاسع ١٢٩٥ ـ ١٢٢)	
أندرو نيقوس الثالث	١٢٢٨ ـ ١٣٤١
يوحنا الخامس	١٣٤١ ـ ١٢٧٦
يوحنا السادس كانتا كوزين (مغتصب)	١٣٤١ ـ ١٢٥٥
أندرو نيقوس الرابع (ابن يوحنا الخامس)	١٣٧٦ ـ ١٢٧٩
يوحنا السابع (ابن أندرونيقوس الرابع ، مغتصب)	ـ ١٣٩١
مانويل الثاني	١٣٩١ ـ ١٤٢٥
يوحنا الثامن	١٤٢٥ ـ ١٤٤٨
قسطنطين الحادي عشر	١٤٤٨ ـ ١٤٥٣

حكام مسترا البيزنطيين

مانويل كانتا كوزين	١٢٤٨ ـ ١٣٨٠

	ميلادية
ماثير كانتا كوزين	١٣٨٠ ـ ١٣٨٣
ثيودور الأول باليولوج	١٣٨٣ ـ ١٤٠٧
ثيودور الثاني	١٤٠٧ ـ ١٤٤٣
قسطنطين دراجاسيس	١٤٢٨ ـ ١٤٤٨
توماس	١٤٣٢ ـ ١٤٦٠
ديمتريوس	١٤٤٩ ـ ١٤٦٠

جدول (٣)

ملوك ألمانيا

٨٤٠ ـ ٨٧٦ لويس الثاني (الألماني)
٨٧٦ ـ ٨٨٠ كارلومان
٨٧٦ ـ ٨٨٢ لويس الصغير
٨٧٦ ـ ٨٨٧ شارل السمين
٨٨٧ ـ ٨٩٩ أرنولف
٨٨٩ ـ ٩١١ لويس الثالث (الطفل)

٩١١ ـ ٩١٨ كونراد الأول
٩١٩ ـ ٩٣٦ هنري الأول الصياد
٩٣٦ ـ ٩٧٣ أرتو الأول العظيم
راجع جدول أباطرة الامبراطورية الرومانية المقدسة جدول رقم (٤)

جدول رقم (٤)

٢ ـ أباطرة الإمبراطورية الرومانية المقدسة وملوكها

٨٠٠ ـ ٨١٤ شارلمان
٨١٣ ـ ٨٤٠ لويس التقى
٨١٧ ـ ٨٥٥ لوثر الأول
٨٥٠ لويس الثاني
٨٧٥ ـ ٨٧٧ شارل الأصلع
٨٨١ ـ ٨٨٧ شارل الثالث السمين
٨٩١ ـ ٨٩٤ جويدو
٨٩٢ ـ ٨٩٨ لامبرت
٨٩٦ ـ ٨٩٩ أرنولف
٩٠١ ـ ٩٢٨ لويس الثالث
٩١٥ ـ ٩٢٤ برنجار الأول
٩٦٢ ـ ٩٧٣ أوتو الأول
٩٧٣ ـ ٩٨٤ أوتو الثاني
٩٨٣ ـ ١٠٠٢ أوتو الثالث
١٠٠٢ ـ ١٠٢٤ هنري الثاني
١٠٢٤ ـ ١٠٣٩ كونراد الثاني
١٠٣٩ ـ ١٠٥٦ هنري الثالث
١٠٥٦ ـ ١١٠٥ هنري الرابع
١١٠٥ ـ ١١٢٥ هنري الخامس
١١٢٥ ـ ١١٣٨ لوثر الثاني
١١٣٨ ـ ١١٥٢ كونراد الثالث
١١٥٢ ـ ١١٩٠ فريدريك الثاني باربار،
١١٩٠ ـ ١١٩٧ هنري السادس
١١٩٧ ـ ١٢٠٨ فيلب الثاني
١١٩٧ ـ ١٢١٨ أوتو الرابع
١٢١٢ ـ ١٢٥٠ فريدريك الثاني
١٢٣٧ ـ ١٢٥٤ كونراد الرابع
١٢٤٧ ـ ١٢٥٦ وليم الهولندي
١٢٥٧ ـ ١٢٧٢ (فترة الشغور)
١٢٧٣ ـ ١٢٩١ رودلف الأول
هابسبورج
١٢٩١ ـ ١٢٩٨ أدولف ناسو
١٢٩٨ ـ ١٣٠٨ ألبرت الأول

١٣٠٨ ـ ١٣١٤ هنري السابع لكسمبرج
١٣١٤ ـ ١٣٤٧ لويس الرابع البافاري
١٣٤٧ ـ ١٣٧٨ شارل الرابع
١٣٧٨ ـ ١٤٠٠ ونسلاس
١٤٠٠ ـ ١٤١٠ روبرت
١٤١١ ـ ١٤٣٧ سجسموند المنغاري
١٤٣٨ ـ ١٤٣٩ ألبرت الثاني
١٤٣٩ ـ ١٤٩٣ فردريك الثالث
١٤٨٦ ـ ١٥١٩ مكسمليان الأول

جدول (٥)

ملوك فرنسا

٨٤٠ ـ ٨٧٧ شارل الأصلع
٨٧٧ ـ ٨٧٩ لويس المتأتيء
٨٧٩ ـ ٨٨٢ لويس الثالث
٨٧٩ ـ ٨٨٤ كارلومان
٨٨٤ ـ ٨٨٧ شارل السمين
٨٨٨ ـ ٨٨٩ أودو
٨٩٣ ـ ٩٢٣ شارل الثالث البسيط
٩٢٢ ـ ٩٢٣ روبرت الأول
٩٢٣ ـ ٩٣٦ راؤول البرجندي
٩٣٦ ـ ٩٥٤ لويس الرابع
٩٥٤ ـ ٩٨٦ لوثر
٩٨٦ ـ ٩٨٧ لويس الخامس
٩٨٧ ـ ٩٩٦ هيو الأول كابيه
٩٩٦ ـ ١٠٣١ روبرت الثاني
١٠٣١ ـ ١٠٦٠ هنري الأول
١٠٦٠ ـ ١١٠٨ فيلب الأول
١١٠٨ ـ ١١٣٧ لويس السادس
(السمين)
١١٣٧ ـ ١١٨٠ لويس السابع

١١٨٠ ـ ١٢٢٣ فيلب أوغسطس
١٢٢٣ ـ ١٢٢٦ لويس الثامن
١٢٢٦ ـ ١٢٧٠ لويس التاسع
(القديس)
١٢٧٠ ـ ١٢٨٥ فيلب الثالث
١٢٨٥ ـ ١٣١٤ فيلب الرابع
١٣١٤ ـ ١٣١٦ لويس العاشر
١٢١٦ ـ حنا الأول
١٣١٦ ـ ١٣٢٢ فيليب الخامس
(الطويل)
١٣٢٢ ـ ١٣٢٨ شارل الرابع
١٣٢٨ ـ ١٣٥٠ فيلب السادس فالو
١٣٥١ ـ ١٣٦٤ حنا الثاني (الطيب)
١٣٦٤ ـ ١٣٨٠ شارل الخامس
١٣٨٠ ـ ١٤٢٢ شارل السادس
١٤٢٢ ـ ١٤٦١ شارل السابع
١٤٦١ ـ ١٤٨٣ لويس الحادي عشر
١٤٨٣ ـ ١٤٩٨ شارل الثامن

جدول (٦)

ملوك انجلترا بعد الفتح النورماني

١٠٦٦ ـ ١٠٨٧ وليم الأول (الفاتح)
١٠٨٧ ـ ١١٠٠ وليم الثاني
١١٠٠ ـ ١١٣٥ هنري الأول
١١٣٥ ـ ١١٥٤ ستفن
١١٥٤ ـ ١١٨٩ هنري الثاني
١١٨٩ ـ ١١٩٩ ريتشارد الأول
١١٩٩ ـ ١٢١٦ حنا
١٢١٦ ـ ١٢٧٢ هنري الثالث
١٢٧٢ ـ ١٣٠٧ إدوارد الأول
١٣٠٧ ـ ١٣٢٧ إدوارد الثاني
١٣٢٧ ـ ١٣٧٧ إدوارد الثالث
١٣٧٧ ـ ١٣٩٩ ريتشارد الثاني
١٣٩٩ ـ ١٤١٣ هنري الرابع
١٤١٣ ـ ١٤٢٢ هنري الخامس
١٤٢٢ ـ ١٤٦١ هنري السادس
١٤٦١ ـ ١٤٨٣ إدوارد الرابع
١٤٧٣ ـ ١٤٨٥ ريتشارد الثالث
١٤٨٥ ـ ١٥٠٩ هنري السابع (تيودور)

جدول (٧)

القوط الشرقيون في إيطاليا

٤٩٣ ـ ٥٢٦ ثيودريك العظيم	٥٤٠ ـ ٥٤١ هلدباد
٥٢٦ ـ ٥٣٤ أثالريك	٥٤١ ـ أراريك
٥٣٤ ـ ٥٣٦ ثيودهات	٥٤١ ـ ٥٥٢ ترتيلا
٥٣٦ ـ ٥٤٠ وتيجيز	٥٥٢ ـ ٥٥٣ تيا

جدول (٨)

اللمبارديون في إيطاليا

٥٦٨ ـ ٥٧٢ ألبوين
٥٧٢ ـ ٥٧٣ كليفو
٥٨٤ ـ ٥٩٠ أوثاري
٥٩٠ ـ ٦١٥ أجيلولف
٦١٦ ـ ٦٢٦ أدالولد
٦٢٦ ـ ٦٣٦ أريولد
٦٣٦ ـ ٦٥٢ روثاري
٦٥٢ ـ ٦٥٣ رودولد
٦٥٣ ـ ٦٦٢ أريرت الأول
٦٦٢ ـ جودبرت
٦٦٢ ـ ٦٧١ جريمولد
٦٧١ ـ ٦٨٨ برثاي (بركتاريت)
٦٨٨ ـ ٧٠٠ جونبرت
٧٠٠ ـ ٧٠١ ليرتبرت
٧٠١ ـ ٧١١ أريرت الثاني
٧١٢ ـ انسبراند
٧١٢ ـ ٧٤٣ ليتوبراند
٧٤٣ ـ ٧٤٤ هلد براند
٧٤٤ ـ ٧٤٩ راتشيس
٧٤٩ ـ ٧٥٦ استولف
٧٥٦ ـ ٧٧٤ دسدريوس

جدول (٩)

الوندال في شمال إفريقيا

٤٣٩ - ٤٧٧ جيسريك

٤٧٧ - ٤٨٤ هونريك

٤٨٤ - ٤٩٦ جونثاموند

٤٩٦ - ٥٢٣ ثراساموند

٥٢٣ - ٥٣١ هلدريك

٥٣١ - ٥٣٤ جليمر

جدول (١٠)

القوط الغربيون في إسبانيا

٤٦٦ ـ ٤٨٣ أيورك
٤٨٣ ـ ٥٠٦ ألرك الثاني
٥٠٦ ـ ٥٢٢ أمالرك وثيودريك
٥٢٢ ـ ٥٣١ أمالرك (بمفرده)
٥٣١ ـ ٥٤٨ ثيوديس
٥٤٨ ـ ٥٤٩ ثيوديجزل
٥٤٩ ـ ٥٥٤ أجيلا
٥٥٤ ـ ٥٦٧ أثاناجلد
٥٦٧ ـ ٥٧٢ ليوفا الأول
٥٧٠ ـ ٨٨٦ ليو نيجلد
٥٨٦ ـ ٦٠١ ركارد الأول
٦٠١ ـ ٦٠٣ ليوفا الثاني
٦٠٣ ـ ٦١٠ وتريخ
٦١٠ ـ ٦١٢ جوندمار
٦١٢ ـ ٦٢٠ سيسيبوت
٦٢٠ ـ ٦٢١ ركارد الثاني
٦٢٠ ـ ٦٣١ سونثيلا
٦٣١ ـ ٦٣٦ سيسيناند
٦٣٦ ـ ٦٤٠ خنتزيلا
٦٤٠ ـ ٦٤١ توبلجا
٦٤١ ـ ٦٥٢ خندازونث
٦٥٢ ـ ٦٧٢ ركونث
٦٧٢ ـ ٦٨٠ واميا
٦٨٠ ـ ٦٨٧ إرويج
٦٨٧ ـ ٧٠١ إجيكا
٧٠١ ـ ٧١٠ وتزا
٧١٠ ـ ٧١١ رودريك

جدول (١١)

ملوك أراجون

١١٠٤ ـ ١١٣٤ ألفونس الأول	١٢٩١ ـ ١٣٢٧ جيمس الثاني
١١٣٤ ـ ١١٣٧ راميرو	١٣٢٧ ـ ١٣٣٦ ألفونس الرابع
١١٣٧ ـ ١١٧٣ بترونيلا	١٣٣٦ ـ ١٣٨٧ بطرس الرابع
١١٣٧ ـ ١١٦٢ ريموند برنجار	١٣٨٧ ـ ١٣٩٥ حنا الأول
١١٦٢ ـ ١١٩٦ ألفونس الثاني	١٣٩٥ ـ ١٤١٠ مارتن
١١٩٦ ـ ١٢١٣ بطرس الثاني	١٤١٢ ـ ١٤١٦ فردناند الأول
١٢١٣ ـ ١٢٧٦ جيمس الأول	١٤١٦ ـ ١٤٥٨ ألفونس الخامس
١٢٧٦ ـ ١٢٨٥ بطرس الثالث	١٤٥٨ ـ ١٤٧٩ حنا الثاني
١٢٨٥ ـ ١٢٩١ ألفونس الثالث	١٤٧٩ ـ ١٥١٦ فردناند الثاني

جدول (١٢)

ملوك قشتالة

١٠٣٣ ـ ١٠٦٥ فردناند الأول
(العظيم)
١٠٦٥ ـ ١٠٧٢ سانشو (شانجة)
(الثاني)
١٠٦٥ ـ ١١٠٩ ألفونس السادس
١١٠٩ ـ ١١٢٦ أوراكا
١١٠٩ ـ ١١٢٦ ألفونس السابع
(الأرغوني)
١١٢٦ ـ ١١٥٧ ألفونس الثامن
١١٥٧ ـ ١١٥٨ سانشو (شانجة)
(الثالث)
١١٥٨ ـ ١٢١٤ ألفونس التاسع
١٢١٤ ـ ١٢١٧ هنري الأول
١٢١٧ ـ ١٢٥٢ فردناند الثالث
(القديس)

١٢٥٢ ـ ١٢٨٤ ألفونس العاشر
(الحكيم)
١٢٨٤ ـ ١٢٩٥ سانشو (شانجة)
(الرابع)
١٢٩٥ ـ ١٣١٢ فردناند الرابع
١٣١٢ ـ ١٣٥٠ ألفونس الحادي عشر
١٣٥٠ ـ ١٣٦٩ بطرس (القاسي)
١٣٦٩ ـ ١٣٧٩ هنري الثاني
١٣٧٩ ـ ١٣٩٠ حنا الأول
١٣٩٠ ـ ١٤٠٦ هنري الثالث
١٤٠٦ ـ ١٤٥٤ حنا الثاني
١٤٥٤ ـ ١٤٧٤ هنري الرابع
١٤٧٤ ـ ١٥٠٤ إيرابلا (الكاثوليكية)
١٤٧٤ ـ ١٥٠٤ فردناند الخامس
(الكاثوليكي)

جدول (١٣)

جنوب إيطاليا وصقلية

(دوقات أبوليا)

١٠٥٩ ـ روبرت جويسكارد

١٠٨٥ ـ ١١١١ روجر الأول

١١١١ ـ ١١٢٧ وليم

١١٢٧ ـ ١١٢٩ روجر الثاني (العظيم)

(ب) كونتات صقلية

١٠٦١ ـ ١١٠١ ر

١١٠١ ـ ١١١٣ سيمون

١١١٣ ـ ١١٢٩ روجر الثاني (العظيم)

(جـ) ملوك صقلية

١١٢٩ ـ ١١٥٤ روجر الثاني (العظيم)

١١٥٦ ـ ١١٦٦ وليم الأول .

١١٦٦ ـ ١١٨٤ وليم الثاني

١١٨٤ ـ ١١٩٤ تنكرد

١١٩٤ ـ وليم الثالث

١١٩٤ ـ ١١٩٧ هنري السادس (الإمبراطور)

١١٩٧ ـ ١٢٥٠ فردريك الثاني (الإمبراطور)

١٢٥٠ ـ ١٢٥٤ كونراد الأول

١٢٥٤ ـ ١٢٥٨ كونراد الثاني

١٢٥٨ ـ ١٢٦٦ مانفرد

ـ ١٢٨٥ شارل الأول (الأنجوي)

(د) ملوك نابلي

١٢٦٦ ـ ١٢٨٥ شارل الأول

١٢٨٥ ـ ١٣٠٧ شارل الثاني (الأعرج)

١٣٠٧ ـ ١٣٤٣ روبرت

١٣٤٣ ـ ١٣٨٢ جوانا الأولى

١٣٨٢ ـ ١٣٨٦ شارل الثالث

١٣٨٦ ـ ١٤١٤ لادسلاوس

١٤١٤ ـ ١٤٣٥ جوانا الثانية

(هـ) ملوك صقلية من بيت أراجون

١٤٠٩ ـ ١٤١٢ مارتن الثاني

١٤١٢ ـ ١٤١٦ فردناند الأول

١٤١٦ ـ ١٤٥٨ ألفونس (الخامس)

١٤٥٨ ـ ١٤٧٩ حنا (الثاني)

١٤٧٩ ـ ١٥١٦ فردناند الثاني (الكاثوليكي)

المصادر والمراجع

١ - مراجع عربية ومعربة

السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير - الجزء الثاني - العصر الاسلامي - الاسكندرية ١٩٦٦ .

جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى . الاسكندرية ١٩٦٣ .

ديفز (هـ . و .) أوربا في العصور الوسطى . ترجمة دكتور عبدالحميد حمدي محمود . الاسكندرية ١٩٥٨ .

سعيد عبدالفتاح عاشور : أوربا العصور الوسطى - ٢ حـ القاهرة ١٩٦٤ .

قبرس والحروب الصليبية - القاهرة ١٩٥٧ بـ

عمر كمال توفيق : الامبراطور نقفور فوكاس واسترجاع الأراضي المقدسة - الاسكندرية ١٩٥٩ .

تاريخ الامبراطورية البيزنطية - اسكندرية ١٩٦٧ .

فيشر (هـ . أ. ل .): تاريخ اوربا في العصور الوسطى . جزءان ترجمة دكتور محمد مصطفى زيادة وآخرين . القاهرة ١٩٥٠ - ١٩٥٧ .

كولتون (ج.ج.): عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة - ترجمة دكتور جوزيف نسيم يوسف - دار المعارف - اسكندرية ١٩٦٤ .

٢ ـ مصادر ومراجع أجنبية

— Adams (G.B.)
The History of England from the Norman Conquest to the Death of John (1066- 1216) London; 1905.

— Bariog. Could (S.):
Germany. London; 1886.

— Barker (B.) Clark (G.) Vaucher (p.)
The European Inheritance (3 Vols.) Oxford; 1945.

— Barraclough (G.):
The Origins of Modern Germany. Oxford; 1947.

— Baynes (N.H.):
Constantine the Great and the Christian Church. London: 1929.

— Bloch (G.):
L'Empire Romain. Paris; 1931.

— Boyesen (H.H.):
A History of Norway. London; 1900.

— Bryce (J.):
1- The Holy Roman Empire, London; 1907.
2- History of the Later Roman Empire (2 Vols) London, 1923.

— The Cambridge Medieval History (8 Vols.) Cambridge, 1963.

— The Cambridge Ancient History (Vol.10).

— Diehl (C.):

— Chapman (C.E.):
A History of Spain. New York; 1931.

— Chapot (V.):
Le Monde Romain, Paris; 1927.

— Coulton (G.G.):
1- The Medieval Scene, Cambridge; 1931.
2- Life in the Middle Ages, Campridge; 1928.

— Davis (H.W.C.):
Charlemagne, London: 1929.

— Dawson (C.):
The Making of Europe, London; 1935.

— Deanesly (M.):
A History of The Byzantine Empire, Princeton, 1925.

— Diehl (C.), Marcais (G.):
Le Mond Oriental de 395 a 1081. (Hist. Du Moyen Age Tome 3) Paris; 1936.

Dill (S.):
1- Roman Society From Nero to Marcus Aurelius. London; 1925.
2- Roman Society in Gaul in the Merovingian Age. London; 1926.

— Duchesne (L.):
History Ancience de l'Eglise (3 Vols.) Paris, 1923.

— Dudden (F.H.):
Gregory the Great; His Place in Hist. and Thought; (2 Vols.) London, 1905.

— Eginhard, The Life of Charlemagne.
(Trans By A.J. Grant) London, 1926.

— Eyre (E.):
European Civilization (Vol.3 The Middle Ages) London 1935.

— Fichenau (H.):
The Carolingian Empire. Oxford, 1957.

— Fliche (A.):
L'Europe Occidentale de 888 a 1125 (Hist. du Moyen Age, Tome 2) Paris, 1930.

— Fliche (A.):
La Chretiente Medievale. Paris, 1929.

— Gibbon (E.):
The History of the Decline and Fall of the Roman Empire (7 Vols.) Oxford, 1929.

— Gibbons (H. A.):
The Foundation of the Ottoman Empire. Oxford, 1916.

— Glover, (T.R.):
The Conflict of Religions in the Early Roman Empire London. 1910.

— Guizot (M.):
Histoire de la Civilisation en France. Paris. 1868.

— Halphen (L.):
Etudes Critiques sur l'Histoire de Charlemagne. Paris. 1921.

— Hardy (E.G.):
Studies in Roman History (2 Vols.) London 1910.

— Haskins (C.H.):
1- The Normans in European History. Cambridge, 1915.

2- The Renaissance of the Twelfth Century. Cambridge 1928.

— Hayward (F.):
A History of the Popes. London, 1931.

— Hearnshaw (F.J.C.):
Some Great Political Idealists of the Christian Era. London 1937.

— Hodgkin (T.):
The History of England from the Earliest Times to the Norman Conquest. London, 1920.

— Hodgkin (T.):
Italy and Her Invaders (4 Vols.) Oxford, 1896.

— Kantorowicz (E.)
Frederick the Second. London, 1931.

— Karsten (T.E.):
Les Anciens Germains. Paris, 1931.

— Katz (S.):
The Decline of Rome and the Rise of Mediaeval Europe.
New York. 1955.

— Kleinc   sz (A.):
Charle   gne. Paris, 1934.

— Lavisse   .):
Histoire   ance de Paris, 1911.

— Lodge (I
The Clo   t the Middle Ages. London, 1922.

The Lot (F.):
1- Les Invasions Germaniques. Paris, 1935.
2- The End of the Ancient World and the Beginnings of the Middle Ages. London, 1931.
3- Les Invasions Barbares (2 Vols.) Paris, 1942.

— Lot (F.), Pfister (C.) Ganshof (F.):
Les Destineen de l'Empire on Occident 395- 888. (Findu Moyen Age). Tome I Paris. 1928.

— Mawer (A.):
The Vikings. Cambridge, 1930.

— Miller (W.):
The Balkans. London. 1908.

— Morfill (W.R.):
Poland. London. 1863.

— Moss (H.S.):
The Birth of the Middle Age. Oxford. 1947.

— Oman (C.):
The Dark Ages. London. 1908.

— Oman (E.):
The History of England (1377- 1485) London, 1920.
The History of England (1377- 1485) London, 1920.
— Orton (C.W.P.):
Outlines of Medieval History. Cambridge, 1924.

— Ostrogorsky (C.):
History of the Byzantine State. Oxford, 1956.

— Painter (S.):
A History of the Middle Ages, New York, 1954.

— Pirenne (H.):
Mohammed and Charlemagne, London, 1924.

— Peole (R.L.)
Illustrations of the History of Medieval Thought and Learning, London. 1002.

— Rogers (J.E.T.)
Holland. London. 1885

— Runciman (S.):
A History of the Crusade (3 Vols.) Cambridge. 1951.

— Stephons (H.M.):
Portugal. London. 1891.

— Stephenson (C.):
Mediaeval History. New York. 1943.

— Stevenson (W.B.):
The Crusaders in the East Cambridge. 1907.

— Taylor (O.H.):
The Mediaeval Mind (2 Vols.) London. 1938.

The Monk of St Gall.: The Life of Charlemagne (Trans. by A.J. Grant) London. 1926.

— Thompson (J.W.):
The Middle Ages (2 Vols.) London 1931